٢٤٢ - فصل: على من صحب سلطان أن يكون ظاهره وباطنه سواء

١١١٨ - يَنْبَغِي لِمَنْ صَحِبَ سُلْطَانًا أَوْ مُحْتَشِمًا أَنْ يَكُوْنَ ظَاهِرُهُ مَعَه، وَبَاطنُهُ سَوَاءً؛ فَإِنَّهُ قَدْ يَدُسُّ إِلَيْهِ مَنْ يَخْتَبرهُ[١]، فَرُبَّمَا افْتُضِحَ فِي الابْتِلَاءِ.

١١١٩ - وَقَدْ كَانَ جَمَاعَةٌ مِنَ المُلُوْكِ يَقْصِدُوْنَ تَقْرِيْبَ المُنَادِمِ، وَيَجْعَلُوْنَ لَهُ حُجْرَةً فِي دُوْرِهِمْ؛ فَإِذَا أَرَادُوْا أَنْ يَخْتَصُّوْهُ؛ اخْتَبَرُوْهُ بَاطِنًا، وَذاكَ لا يَدْرِي، فَيَظْهَرُ مِنْهُ مَا لا يَصْلُحُ فَيُطْرَدُ!

١١٢٠ - وَلَقَدِ امْتَحنَ **أَبْرَوِيزُ**[٢] رَجُلًا مِنْ خَاصَّتِهِ، فَدَسَّ إِلَيْهِ جَارِيَةً، مَعَها أَلْطافٌ[٣]، وأَمَرَها أَنْ لا تَقْعُدَ عَندَه، فَحَمَلَتْها. **ثُمَّ أَنْفَذَها مَرَّةً أُخْرَىٰ**، وَأَمَرَهَا أَنْ تَقْعُدَ بَعْدَ التَّسْلِيْمِ هُنَيْهَةً، فَفَعَلَتْ، فَلَاحَظَهَا الرَّجُلُ. **ثُمَّ بَعَثَها مَرَّةً ثَالِثَةً**، وَأَمَرَهَا أَنْ تُطِيْلَ القُعُوْدَ عِنْدَهُ، وَتُحَدِّثَه، فَأَطَالَتِ الحَدِيْثَ مَعَهُ، فَأَبْدَىٰ لَهَا شَيْئًا مِنَ المَيْلِ إِلَيْهَا، **فَقَالَتْ**: أَخَافُ أَنْ يَطَّلِعَ عَلَيْنَا، وَلٰكِنْ؛ دَعْنِي أُدَبِّرْ فِي هٰذَا.

فَذَهَبَتْ، فَأَخْبَرَتِ المَلِكَ بذٰلِكَ! فَوَجَّهَ غَيْرَهَا مِنْ خَوَاصِّ جَوَارِيْهِ بِمِثْلِ ذٰلِكَ، فَلَمَّا جَاءَتْهُ؛ **قَالَ**: مَا فَعَلَتْ فُلَانَةٌ؟ **قَالَتْ**: مَرِيْضَةٌ. فَارْبَدَّ[٤] لَوْنُهُ. ثُمَّ فَعَلتِ الجَارِيَةُ الثَّانِيَةُ مِثْلَ مَا فَعَلتِ الأُوْلَىٰ. **فَقَالَتْ** لَهُ: إِنَّ المَلِكَ يَمْضِي إِلَىٰ بُسْتَانِهِ، فَيُقِيْمُ هُنَاكَ: فَإِنْ أَرَادَكَ عَلَىٰ أَنْ تَمْضِيَ مَعَهُ؛ فَأَظْهِرْ أَنَّكَ عَلِيْلٌ، فَإِنَّ خَيَّرَكَ بَيْنَ الانْصِرَافِ إِلَىٰ دُوْرِ نِسَائِكَ أَوْ المَقَامِ هاهُنَا؛ فَاخْتَرِ المَقَامَ هاهُنَا، وَأَخْبِرْهُ أَنَّكَ لا تَقْدِرُ عَلَىٰ الحَرَكَةِ، فَإِنْ أَجَابَكَ إِلَىٰ ذٰلِكَ؛ جِئْتُ إِلَيْكَ كُلَّ لَيْلَةٍ مَا دَامَ المَلِكُ غَائِبًا! فَسَكَنَ إِلَىٰ قَوْلِهَا.

ثُمَّ مَضَتْ، وَأَخْبَرَتِ المَلِكَ بذٰلِكَ. فَلَمّا كَانَ بَعْدَ ثَلَاثٍ؛ اسْتَدْعَاهُ المَلِكُ، **فَقَالَ**:

---

(١) في الأصل: يخبره، وهو تصحيف.

(٢) أبرويز بن هرمز بن كسرى أنوشروان حكم بلاد فارس ثمان وثلاثين سنة كانت أبرز صفاته الجشع، جمع أموالًا عظيمة، و(أبرويز) تعني المظفر، انظر: (إيران في عهد الساسانيين) لآرثر كريستنسن ص(٤٢٨ و٤٣٦).

(٣) **الألطاف**: الهدايا.

(٤) اربدَّ: تغير وجهه.

إنِّي مَرِيْضٌ، فَعَادَ الرَّسُوْلُ، فَأَخْبَرَهُ، فَتَبَسَّمَ، **وَقَالَ**: هٰذَا أَوَّلُ الشَّرِّ. فَوَجَّهَ إِلَيْهِ مَحَفَّةً حُمِلَ فِيْهَا إِلَيْهِ، فَلَمَّا بَصُرَ بِهِ أَبْرَويزُ: **قَالَ**: وَالمَحَفَّةُ الشَّرُّ الثَّانِي. فَرَأَىٰ العِصَابَةَ عَلىٰ رَأْسِهِ؛ **قَالَ**: والعِصَابَةُ الشَّرُّ الثالِثُ. **فَقَالَ لَهُ المَلِكُ**: أَيُّهُمَا أَحَبُّ إِلَيْكَ: الانْصِرَافُ إِلىٰ نِسَائِكَ لِيُمَرِّضْنَكَ، أَوِ المُقَامُ هَاهُنَا إِلىٰ وَقْتِ رُجُوْعِي؟ **قَالَ**: المُقَامُ هَاهُنَا أَرْفَقُ لِي؛ لِقِلَّةِ الحَرَكَةِ. فَتَبَسَّمَ **وَقَالَ**: حَرَكَتُكَ هَاهُنا إِنْ تُرِكْتَ أَكْثَرُ مِنْ حَرَكَتِكَ إِلىٰ مَنْزِلِكَ! ثُمَّ أَمَرَ لَهُ بِعَصَا الزُّنَاةِ، الَّتِي كَانَ يَوْسَمُ[1] بِهَا مَنْ زَنَا، فَأَيْقَنَ الرَّجُلُ بِالأَمْرِ! وَأَمَرَ[2] أَنْ يُكْتَبَ مَا كَانَ مِنْ أَمْرِهِ حَرْفًا حَرْفًا، فَيُقْرَأَ عَلىٰ النَّاسِ حَرْفًا حَرْفًا إِذَا حَضَرَوا، وَأَنْ يُنْفَى إِلى أَقْصَى المَمْلَكَةِ، وَتُجْعَلَ العَصَا عَلى رَأْسِ رُمْحٍ، يَكُوْنُ مَعَهُ حَيْثُ كَانَ؛ لِيَحْذَرَ مِنْهُ مَنْ لا يَعْرِفُهُ. فَلَمَّا نُفِي؛ أَخَذَ مِنْ بَعْضِ المُوَكَّلِينَ مُدْيَةً، فَجَبَّ[3] بِهَا ذَكَرَهُ، وقالَ: مَنْ أطاعَ عضوًا صغيرًا أَفْسَدَ عليهِ جميعَ أعضائِهِ. وَمَاتَ مِنْ سَاعَتِهِ.

١١٢١ ـ **قُلْتُ**: وَقَدْ كَانَ جَمَاعَةٌ مِنَ الأُمَرَاءِ يَتَنَكَّرُوْنَ، وَيَسْأَلُوْنَ العَوَامَّ عَنْ سِيْرَتِهِم، فَيَتَكَلَّمُ العَامِّيُّ بِمَا لا يَصْلُحُ، فَيَضْبِطُوْنَهُ عليه. وَرُبَّمَا بَعَثوا دَسِيْسًا [عَلَيْهِ]. وَرُبَّ كَلِمَات قَالَهَا مُسْتَرْسِلٌ، فَبَلَّغَها فُضُولِيٌّ، [فَأَهْلَكَتْ صَاحِبَها].

١١٢٢ ـ وَرَأَىٰ **عُمَرُ بْنُ عَبْدِ العَزِيْزِ** رَجُلًا مِنَ العُمَّالِ كَثِيْرَ الصَّلَاةِ، فَدَسَّ عَلَيْهِ مَنْ قَالَ لَهُ: إِنْ أَخَذْتُ لَكَ الوِلَايَة الفُلَانِيَّةَ؛ فَمَا تُعْطِيْنِي؟ **قَالَ**: أَعْطَيْتُكَ كَذَا وَكَذَا!! **قَالَ لَهُ عُمَرُ**: غَرَرْتَنا بِصَلاتِكَ.

١١٢٣ ـ وَقَدْ بُلِّغْتُ أَنَّ رَجُلًا كَلَّمَ ٱمْرَأَةً، فَأَجَابَتْهُ، فَٱسْتَدْعَتْهُ إِلىٰ دَارِهَا، فَلَمَّا دَخَلَ؛ أَقَامَتْ عَلىٰ قَتْلِهِ.

١١٢٤ ـ فَقَدْ يَنْجَلِي مِنْ هٰذِهِ الحِكَايَةِ أَنَّهُ لا يَنْبَغِي أَنْ يُسْكَنَ إِلىٰ قَوْلِ ٱمْرَأَةٍ أَوْ بَعْلٍ يَجُوْزُ أَنَّهُ يَكُوْنَ جَاسُوْسًا وَمُخْتَبِرًا، وَكَذٰلِكَ لا يُظْهَرُ مَا يَنْبَغِي إِخْفَاؤُهُ مِنْ مَالٍ أَوْ مَذْهَبٍ أَوْ سَبِّ رَجُلٍ؛ فَرُبَّمَا كَانَ لَهُ فِي الحَاضِرِيْنَ قَرِيْبٌ. ولا يُوْثَقُ بِمَوَدَّةٍ لا أَصْلَ لَهَا؛ فَرُبَّمَا كَانَتْ تَحْتَهَا آفَةٌ تَقْصِدُهُ.

---

(١) **يوسم**: يكوى بالنار علامة على فجوره. (٢) الآمر هنا هو أبرويز.
(٣) **جب**: قطع.

١١٢٥ ـ وَلْيُحَذِّرْ مِنْ كُلِّ أَمْرٍ يُحْتَمَلُ، وَرُبَّ كَلِمَةٍ نَقَلَهَا صَدِيْقٌ إِلَىٰ صَدِيْقٍ، فَتَحَدَّثَ بِهَا مَنْ لا يَقْصِدُ أَذَى لِلْقَائِلِ، فَبُلِّغَتْ، فَتَأَذى. وَرُبَّ مُظْهِرٍ لِلْمَحَبَّةِ مُبَالِغٍ حَتَّى يَسْتَمْكِنَ مِنْ مُرَادِهِ.

فَالحَذَرَ الحَذَرَ مِنَ الطُّمَأْنِيْنَةِ إِلىٰ أَحَدٍ، خُصُوْصًا مِنْ عَدُوٍّ آذَيْتَهُ، أَوْ قَتَلْتَ لَهُ قَرِيْبًا، فَرُبَّمَا أَظْهَرَ الجَمِيْلَ شَبَكَةً لِاصْطِيَادِكَ؛ كَحَدِيْثِ الزَّبَاءِ[1].

٢٤٣ - فصل: الحرص والأمل

١١٢٦ ـ رَأَيْتُ النَّفْسَ بَعْدَ عُلُوِّ السِّنِّ يَقْوَىٰ أَمَلُهَا، وَيَزْدَادُ حِرْصُها؛ كَمَا قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**يَشِيْبُ ابْنُ آدَمَ، وتَشِبُّ مِنْهُ خَصْلَتَانِ: الحِرْصُ وَالأَمَلُ**»[2].

وَرَأَيْتُ أَكْثَرَ أَسْبَابِ ذٰلِكَ فَرَاغَ اليَدِ مِنَ الدُّنيا، وكَثْرَةَ العائلةِ، وقوَّةَ الحَاجَةِ، فَيَحْتَاجُ الإِنْسَانُ إِلىٰ التَّعَرُّضِ بِمَا يَشِينُ العِرْضَ، لِيَحْصُلَ الغَرَضُ! **فَقُلْتُ**: إِلٰهِي! أَبَعْدَ رُؤْيَةِ جِبَالِ عَرَفَةَ أَضِلُّ؟! أَبَعْدَ مُشَارَفَةِ الحَرَمِ تَأْخُذُنِي أَعْرَابُ البَادِيَةِ؟!

وَا أَسَفا! أَيَطْلُعُ فَجْرُ النَّحْرِ وَمَا وَصَلْتُ إِلىٰ عَرَفاتٍ؟! وَيَا ضَيَاعَ سَفَرِ العُمُرِ وَمَا حَصَلَ المَقْصُوْدُ!

قَدْ كُنْتُ أَرْجُوْكَ لِنَيْلِ المُنَىٰ ... وَاليَوْمَ لَا أَطْلُبُ إِلَّا الرِّضَا

ثُمَّ **قُلْتُ**: يَا نَفْسُ! مَا لَكِ مَلْجَأٌ إِلَّا اللَّجَأُ، واسْتِغَاثَةُ الغَرِيْقِ؛ فَإِنْ رُحِمْتِ، وَإِلَّا؛ فَكَمْ مِنْ حَسْرَةٍ تَحْتَ التُّرَابِ!

٢٤٤ - فصل: كبير السن ينكح الصغيرة

١١٢٧ ـ شَكَا لِيْ بَعْضُ الأَشْيَاخِ، فَقَالَ: قَدْ عَلَتْ سِنِّي، وضَعُفَتْ قُوَّتِي، وَنَفْسِي تَطْلُبُ مِنِّي شِرَاءَ الجَوَارِي الصِّغَارِ، وَمَعْلُوْمٌ أَنَّهُنَّ يُرِدْنَ النِّكَاحَ، وَلَيْسَ فيَّ،

---

(١) تقدمت الإشارة إليه في الفصل (١٨٥).

(٢) صح بلفظ: «يهرم ابن آدم وتشب معه خصلتان: الحرص على المال، والحرص على العمر» رواه البخاري (٦٤٢١)، ومسلم (١٠٤٧)، عن أنس رضي الله عنه.

وَلا تَقْنَعُ مِنِّيَ النَّفْسُ بربَّةِ البَيْتِ؛ إِذْ قَدْ كَبِرَتْ. **فَقُلْتُ لَهُ**: عِنْدِي جَوَابَانِ:

أَحَدُهُمَا: الجَوَابُ العَامِّيُّ، وَهُوَ أَنْ **أَقُوْلَ**: يَنْبَغِي أَنْ تَشْتَغِلَ بِذِكْرِ المَوْتِ، وَمَا قَدْ تَوَجَّهْتَ إِلَيْهِ، وتَحْذَرَ مِن اشْتِرَاءِ جَارِيَةٍ؛ لا تَقْدِرُ عَلىٰ إِيْفَاءِ حَقِّهَا؛ فَإِنَّهَا تُبْغِضُكَ. فَإِنْ أَجْهَدْتَ؛ اسْتَعْجَلْتَ التَّلَفَ، وَإِنِ اسْتَبْقَيْتَ قُوَّتَكَ؛ غَضِبَتْ هِيَ، عَلىٰ أَنَّها لا تُرِيدُ شَيْخًا كَيْفَ كانَ.

وَقَدْ أَنْشَدَنا عَلِيُّ بْنُ عُبَيْدِ اللهِ؛ قَالَ: أَنْشَدَنَا مُحَمَّدٌ التَّمِيْمِيُّ:

أَفِقْ يَا فُؤَادِي مِنْ غَرَامِكَ وَاسْتَمِعْ ... مَقَالَةَ مَحْزُوْنٍ عَلَيْكَ شَفِيْقِ
عَلِقْتَ فَتَاةً قَلْبُهَا مُتَعَلِّقٌ ... بِغَيْرِكَ، فَاسْتَوْثَقْتَ غَيْرَ وَثِيْقِ
وَأَصْبَحْتَ مَوْثُوْقًا، وَرَاحَتْ طَلِيقَةً ... فَكَمْ بَيْنَ مَوْثُوْقٍ وَبَيْنَ طَلِيقِ

فَاعْلَمْ أَنَّهَا تَعُدُّ عَلَيْكَ الأَيَّامَ، وَتَطْلُبُ مِنْكَ فَضْلَ المَالِ؛ لِتَسْتَعِدَّ لِغَيْرِكَ، وَرُبَّمَا قَصَدَتْ حَتْفَكَ؛ فَاحْذَرْ! والسَّلامَةُ فِي التَّرْكِ، والاقْتِنَاعِ بِمَا يَدْفَعُ الزَّمَانَ.

والجَوَابُ الثَّاني: فَإِنِّي أَقُوْلُ: لا يَخْلُوْ أَنْ تَكُوْنَ قَادِرًا عَلىٰ الوَطْءِ فِي وَقْتٍ، أَوْ لا تَكُوْنُ.

فَإِنْ **كُنْتَ لا تَقْدِرُ**؛ فَالأَوْلَىٰ مُصَابَرَةُ التَّرْكِ لِلْكُلِّ، وَإِنْ كَانَ يُمْكِنُ للحَازِمِ أَنْ يُدَارِيَ المَرْأَةَ بِالنَّفَقَةِ، وَطِيْبِ الخُلُقِ؛ إِلَّا أَنّه يُخاطِرُ.

وَإِنْ **كُنْتَ تَقْدِرُ** فِي أَوْقَاتٍ عَلَىٰ ذٰلِكَ، وَرَأَيْتَ مِنْ نَفْسِك تَوْقًا شَدِيدًا؛ فَعَلَيْكَ بِالمُرَاهِقَاتِ؛ فَإِنَّهُنَّ مَا عَرَفْنَ النِّكَاحَ، وَمَا طَلَبْنَ الوَطءَ، واغْمُرْهُنَّ بالإِنْفَاقِ، وَحُسْنِ الخُلُقِ، مَعَ الاحْتِيَاطِ عَلَيْهِنَّ، والمَنْعِ مِنْ مُخَالَطَةِ النِّسْوَةِ، وَإِذَا اتَّفَقَ وَطْءٌ؛ فَتَصَبَّرْ عَنِ الإِنْزَالِ، رَيْثَمَا تَقْضِي المَرْأَةُ حَاجَتَها!

وَاعْتَمِدْ وَعْظَها وتَذْكِيْرَها بِالآخِرَةِ! وَاذْكُرْ لَهَا حِكَايَاتِ العُشَّاقِ مِنْ غَيْرِ نِكَاحٍ، وقُبْحَ صُوْرَةِ الفِعْلِ! وَالْفِتْ قَلْبَها إِلىٰ ذِكْرِ الصَّالِحِيْنَ! وَلَا تُخْلِ نَفْسَكَ مِنَ الطِّيْبِ وَالتَّزَيُّنِ، والكِيَاسَةِ، والمُدَارَاةِ، والإِنْفَاقِ الوَاسِعِ! فهٰذَا رُبَّمَا حَرَّكَ النَّاقَةَ لِلْمَسِيْرِ، مَعَ خَطَرِ السَّلَامَةِ.

٢٤٥ - فصل: العاقل من راقب العواقب

١١٢٨ - أَبْلَهُ النَّاسِ مَنْ عَمِلَ عَلىٰ الحَالِ الحَاضِرَةِ، وَلَمْ يَتَصَوَّرْ تَغَيُّرَها، وَلَا وُقُوْعَ مَا يَجُوْزُ وقوعُهُ.

١١٢٩ - مِثَالُهُ: أَنْ يَغْتَرَّ بِدَوْلَةٍ، فَيَعْمَلَ بِمُقْتَضىٰ مُلْكِهِ؛ فَإِذَا تَغَيَّرَتْ؛ هَلَكَ! وَرُبَّمَا عَادَىٰ خَلْقًا؛ اغْتِرَارًا بِأَنَّهُ مُتَسَلِّطٌ، أَوْ أَنَّهُ صَاحِبُ سُلْطَانٍ؛ فَإِذَا تَغَيَّرَتْ حَالُهُ؛ أَكَلَ كَفَّهُ نَدَمًا عِنْدَ فَواتِ التَّدارُكِ!

١١٣٠ - وَكذٰلِكَ مَنْ لَهُ مَالٌ يُبَذِّرُهُ؛ سُكُوْنًا إِلىٰ وُجُودِ المَالِ، وَيَنْسَىٰ حَالَه عِنْدَ العَدَمِ! وَمَنْ يَتَنَاوَلُ الشَّهَواتِ، وَيُكْثِرُ مِنَ المَآكِلِ والمَشَارِبِ والنِّكَاحِ؛ ثِقَةً بِعَافِيَتِهِ، وَيَنْسَىٰ مَا يَعْقُبُ ذٰلِكَ مِنَ الأَمْرَاضِ وَالآفَاتِ!

١١٣١ - وَمِنْ أَظْرَفِ الأَحْوَالِ أَنْ يُحِبَّ جَارِيَتَهُ، فَيُعْتِقَها، وَيَهَبَ لَهَا، أَوْ امْرَأَةً فَيَسْكُنَ إِلَيْهَا، ويَهَبَ لَهَا، فَتَتَمَكَّنَ، وَلا تَمْضِي الأَيَّامُ حَتَّىٰ يَسْلُوَهَا، أَوْ يَطْلُبَ غَيْرَهَا، وَلا يَجِدُ طَرِيْقًا لِلْخَلَاصِ؛ فَإِنْ تَخَلَّصَ مِنْهَا؛ أَخَذَتْ مَا غَنِمَتْ مِنْهُ، فَلَقِيَ مِنَ الغَيْظِ أَضْعَافَ مَا يَلْتَذُّ بِهِ.

١١٣٢ - فَلَا يَنْبَغِي أَنْ يُوْثَقَ بِٱمْرَأَةٍ، وَلا بِمَحَبَّةِ إِنْسَانٍ! فَإِنَّهُ قَدْ يُحِبُّ ٱمْرَأَةً، وَيَظُنُّ أَنَّهُ لا يَسْلُوْهَا أَبدًا، فَيَسْتَرْسِلُ إِلَيْهَا، وَالسُّلُوُّ يَحْدُثُ، وَرُبَّمَا أَحَبَّ غَيْرَهَا، فَيَنْسَىٰ الأُوْلَىٰ، فَيَصْعُبُ عَلَيْهِ الخَلَاصُ مِنَ الأُوْلَىٰ!

١١٣٣ - فَالعَاقِلُ لَا يَدْخُلُ فِيْ شَيْءٍ حَتَّىٰ يُهَيِّئَ الخُرُوْجَ مِنْهُ؛ فَإِنَّ الأَشْيَاءَ لَا تَثْبُتُ، وَالمَحَبَّةَ لا تَدُوْمُ، وَالتَّغَيُّرَ مَقْرُوْنٌ بِكُلِّ حَالٍ.

١١٣٤ - وَكَذٰلِكَ يُعْطِي مَالَهُ وَلَدَهُ، ثُمَّ يَبْقَىٰ كَلًّا[1] عَلَيْه، فَيَتَمَنَّىٰ الوَلَدُ هَلَاكَهُ، وَرُبَّمَا عَلَّ بِهِ[2] فِي النَّفَقَةِ.

١١٣٥ - وَكَذٰلِكَ قَدْ يَثِقُ بِالصَّدِيْقِ، فَيَبُثُّ أَسْرَارَهُ إِلَيْهِ، فَرُبَّمَا أَظْهَرَ ذٰلِكَ، فَكَانَ مِنْهَا مَا يُوْجِبُ هَلَاكَهُ.

---

(١) **كلًا**: عالة.

(٢) **علَّ به**: قتر عليه.

١١٣٦ ـ وَكَذٰلِكَ يَغْتَرُّ الإِنْسَانُ بِالسَّلَامَة، وَيَنْسَىٰ طُرُوْقَ المَوْتِ، فَيَأْتِيْهِ بَغْتَةً، فَيَبْهَتُهُ[1]، وَقَدْ فَاتَ الاسْتِدْرَاكُ، وَلَمْ يَبْقَ إِلَّا النَّدَمُ.

١١٣٧ ـ فَالعَاقِلُ مَنْ كَانَتْ عَيْنُهُ مُرَاقِبَةً لِلْعَوَاقِبِ، مُحْتَرِزَةً مِمَّا يَجُوْزُ وُقُوْعُهُ، عَامِلَةً بِالاحْتِيَاطِ فهي في كُلِّ حَالٍ، حَافِظَةً لِلْمَالِ وَالسِّرِّ، غَيْرَ وَاثِقَةٍ بِزَوْجَةٍ وَلَا وَلَدٍ وَلَا صَدِيْقٍ، مُتَأَهِّبَةً لِلرَّحِيْلِ، مُتَهَيِّئَةً لِلنُّقْلَةِ. هٰذِهِ صِفَةُ **أَهْلِ الحَزْمِ**. والتفريطُ الواسعُ[2] [وقتَ] البذرِ.

٢٤٦ - فصل: ليس إلّا المعرفة بالجملة

١١٣٨ ـ مِنْ أَعْجَبِ الأُمُوْرِ طَلَبُ الاطِّلَاعِ عَلَىٰ تَحْقِيْقِ العِرْفَانِ لِذَاتِ اللهِ ﷻ، وصِفَاتِهِ وأَفْعَالِهِ! وَهَيْهَاتَ؛ لَيْسَ إِلَّا المَعْرِفَةُ بِالجُمْلَةِ. وَلَقَدْ أَوْغَلَ **المُتَكَلِّمُوْنَ**، فَمَا وَقَعُوْا بِشَيْءٍ، فَرَجَعَ عُقَلَاؤُهُم إِلَىٰ التَّسْلِيْمِ.

١١٣٩ ـ وَكَذٰلِكَ **أَصْحَابُ الرَّأْيِ**، مَالُوْا إِلَىٰ القِيَاسِ؛ فَإِذَا أَشْيَاءُ كَثِيْرَةٌ بِعَكْسِ مُرَادِهِم، فَلَمْ يَجِدُوْا مَلْجَأً إِلَّا التَّسْلِيمَ، فَسَمَّوا مَا خَالَفَهُمُ اسْتِحْسَانًا.

١١٤٠ ـ فَالفَقِيْهُ مَنْ عَلَّلَ بِمَا يُمْكِنُ؛ فَإِذَا عَجَزَ؛ اسْتَطْرَحَ لِلتَّسْلِيْمِ. هٰذَا شَأْنُ العَبِيْدِ.

١١٤١ ـ فَأَمَّا مَنْ يَقُوْلُ: لِمَ فَعَلَ كَذَا؟ وَمَا مَعْنَىٰ كَذَا؟ فَإِنَّهُ يَطْلُبُ الاطِّلَاعَ عَلَىٰ سِرِّ المَلِكِ، وَمَا يَجِدُ إِلَىٰ ذٰلِكَ سَبِيْلًا؛ لِوَجْهَيْنِ:

أَحَدُهُمَا: أَنَّ اللهَ تَعَالَىٰ سَتَرَ كَثِيْرًا مِنْ حِكَمِهِ عَنِ الخَلْقِ.

والثَّانِي: أَنَّهُ لَيْسَ فِي قُوَىٰ البَشَرِ إِدْرَاكُ حِكَمِ اللهِ تَعَالَىٰ كُلِّهَا.

فَلَا يَبْقَىٰ مَعَ المُعْتَرِضِ سِوَىٰ الاعْتِرَاضِ المُخْرِجِ إِلَىٰ الكُفْرِ، ﴿فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى ٱلسَّمَآءِ ثُمَّ لْيَقْطَعْ فَلْيَنظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُۥ مَا يَغِيظُ﴾ [الحج: ١٥]، والمَعْنَىٰ: مَنْ رَضِيَ بِأَفْعَالِي، وَإِلَّا؛ فَلْيَخْنُقْ نَفْسَه؛ فَمَا أَفْعَلُ إِلَّا مَا أُرِيْدُ.

---

(١) **يبهته**: يدهشه.

(٢) في الأصل: المد سع.

٢٤٧ - فصل: العجب لمن يترخّص في المخالطة

١١٤٢ ـ مَنْ رَزَقَهُ اللهُ تَعَالَىٰ العِلْمَ وَالنَّظَرَ فِي سِيَرِ السَّلَفِ؛ رَأَىٰ أَنَّ هٰذَا العَالَمَ ظُلْمَةٌ، وَجُمْهُوْرَهُم عَلىٰ غَيْرِ الجَادَّةِ، والمُخَالَطَةَ لَهُمْ تَضُرُّ وَلا تَنْفَعُ! فَالعَجَبُ لِمَنْ يَتَرَخَّصُ فِي المُخَالَطَةِ، وَهُوَ يَعْلَمُ أَنَّ الطَّبْعَ لِصٌّ[1] يَسْرِقُ مِنَ المُخَالِطِ!

١١٤٣ ـ وَإِنَّمَا يَنْبَغِي أَنْ تَقَعَ المُخَالَطَةُ لِلأَرْفَعِ وَالأَعْلَىٰ فِي العِلْمِ والعَمَلِ؛ لِيُسْتَفَادَ مِنْهُ؛ فَأَمَّا مُخَالَطَةُ الدُّونِ؛ فَإِنَّهَا تُؤْذِي؛ إِلَّا أَنْ يَكُوْنَ عَامِّيًّا يَقْبَلُ مِنْ مُعَلِّمِهِ؛ فَيَنْبَغِي أَنْ يُخَالَطَ بالاحْتِرَازِ.

١١٤٤ ـ وَفِي هٰذَا الزَّمَانِ: إِنْ وَقَعَتِ المُخَالَطَةُ **لِلْعَوَامِّ**؛ فَهُمْ ظُلْمَةٌ مُسْتَحْكِمَةٌ؛ فَإِذَا ابتُلِيَ العَالِمُ بِمُخَالَطَتِهِم؛ فَلْيُشَمِّرْ ثِيَابَ الحَذَرِ، وَلْتَكُنْ مُجَالَسَتُهُ إِيَّاهُم لِلتَّذْكِرَةِ والتَّأْدِيْبِ فَحَسْبُ.

١١٤٥ ـ وَإِنْ وَقَعَتِ المُخَالَطَةُ **لِلعُلَمَاءِ**؛ فَأَكْثَرُهُمْ عَلىٰ غَيْرِ الجَادَّةِ، مَقْصُوْدُهُم صُوْرَةُ العِلْمِ لا العَمَلُ بِهِ؛ فَلا تَكَادُ تَرَىٰ مَنْ تُذَاكِرُهُ أَمْرَ الآخِرَةِ، إِنَّمَا شُغْلُهُمُ الغِيْبَةُ، وَقَصْدُ الغَلَبَةِ، واجْتِلَابُ الدُّنيا، ثُمَّ فِيْهِم مِنَ الحَسَدِ لِلنُّظَرَاءِ مَا لا يُوْصَفُ!

١١٤٦ ـ وَإِنْ وَقَعَتِ المُخَالَطَةُ **لِلأُمَرَاءِ**؛ فَذَاكَ تَعَرُّضٌ لِفَسَادِ الدِّيْنِ؛ لأَنَّهُ إِنْ تَوَلَّىٰ لَهُمْ **وِلايةً دُنْيَوِيَّةً**؛ فَالظُّلْمُ مِنْ ضَرُوْرَاتِهَا؛ لِغَلَبَةِ العَادَةِ عَلَيْهِم، وَالإِعْرَاضِ عَنِ الشَّرْعِ. وَإِنْ كَانَتْ **وِلَايَةً دِيْنِيَّةً**؛ كَالقَضَاءِ؛ فَإِنَّهُمْ يَأْمُرُوْنَهُ بِأَشْيَاءَ لا يَكَادُ يُمْكِنُهُ المُرَاجَعَةُ فِيْهَا، وَلَوْ رَاجَعَ؛ لَمْ يَقْبَلوا، وَأَكْثَرُ القَوْمِ يَخَافُ عَلىٰ مَنْصِبِهِ، فَيَفْعَلُ مَا أُمِرَ بِهِ، وَإِنْ لَمْ يَجُزْ.

١١٤٧ ـ وَرُبَّمَا رَأَيْتُ فِي هٰذَا الزَّمَانِ أَقْوَامًا يَبْذُلُوْنَ المَالَ لِيَكُوْنُوْا قُضَاةً أَوْ شُهُوْدًا، وَمَقْصُوْدُهُمُ الرِّفْعَةُ. ثُمَّ أَكْثَرُ الشُّهُوْدِ يَشْهَدُ عَلىٰ مَنْ لَا يَعْرِفُه، وَيَقُوْلُ: إِنَّهُ مَعْرُوْفٌ! وَيَدْرِي أَنَّهُ كَذَّابٌ! وَإِنَّمَا عُرِفَ لأَجْلِ حبَّةٍ يُعْطَاهَا. وَكَمْ قَدْ وَقَعَتْ شَهَادَةٌ عَلىٰ غَيْرِ المَشْهُوْدِ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ مُكْرَهٍ!

---

(١) في الأصل: بصير، وهو تصحيف.

١١٤٨ ـ وَإِنْ وَقَعَتِ المُخَالَطَةُ **لِلْمُتَزَهِّدِيْنَ**؛ فَأَكْثَرُهُم عَلىٰ غَيْرِ الجَادَّةِ، وَعَلىٰ خِلَافِ العِلْمِ؛ قَدْ جَعَلُوْا لأَنْفُسِهِم نَوَامِيْسَ؛ فَلَا يَتَنَسَّمُوْنَ[١]، وَلا يَخْرُجُوْنَ إِلىٰ سُوْقٍ، وَيُظْهِرُوْنَ التَّخَشُّعَ الزَّائِدَ، وَكُلُّه نِفَاقٌ. وَفِيْهِم مَنْ يَلْبَسُ الصُّوْفَ تَحْتَ ثِيَابِهِ، وَرُبَّمَا لَوَّحَ بِكُمِّهِ لِيُرَىٰ!

١١٤٩ ـ وَقَدْ حُكِيَ عَنْ **طَاهِرِ بْنِ الحُسَيْنِ**: أَنَّهُ قَالَ لِبَعْضِ المُتَزَهِّدِيْنَ: مُذْ كَمْ قَدِمْتَ العِرَاقَ؟ قَالَ: دَخَلْتُهَا مُنْذُ عِشْرِيْنَ سَنَةً، وَأَنَا مُنْذُ ثَلَاثِيْنَ سَنَةً صَائِمٌ! **قَالَ**: سَأَلْنَاكَ مَسْأَلَةً، فَأَجَبْتَ عَنِ اثْنَتَيْنِ.

١١٥٠ ـ وَبَنَتْ[٢] **الصُّوْفِيَّةُ** أَرْبِطَةً[٣]؛ فَهِي خَوَارِجُ عَلىٰ المَسَاجِدِ، وَهِيَ دَكَاكِيْنُ كَرِيْهَةٌ؛ يَقْعُدُ فِيْهَا الكُسَالَىٰ عَنِ الكَسْبِ مَعَ القُدْرَةِ عَلَيْهِ، وَيَتَعَرَّضُوْنَ بِالقُعُوْدِ لِلصَّدَقَاتِ، وَلأَحْوَالِ الظَّلَمَةِ، وَقَدْ أَرَاحُوْا أَنْفُسَهُم مِنْ إِعَادَةِ العِلْمِ، وَأَكْثَرُهُم لا يُصَلِّي نَافِلَةً، ولا يَقُوْمُ اللَّيْلَ، بَل هَمُّهُم[٤] المَأْكُوْلُ والمَشْرُوْبُ والرَّقْصُ.

وَقَدِ اتَّخَذُوْا سُنَنًا تُخَالِفُ الشَّرِيْعَةَ؛ فَهُمْ يَلْبَسُوْنَ المُرَقَّعَ، لا مِنْ فَقْرٍ، وَهٰذَا قَبِيْحٌ؛ لأَنَّهُ لَيْسَ عِنْدَهُم مِنْ أَمَارَاتِ[٥] الزُّهْدِ سِوَىٰ المَلْبَسِ الدُّونِ؛ فَثِيَابُهُم تَصِيْحُ: نَحْنُ زُهَّادٌ! وَبَاقِي أَفْعَالِهِم المَسْتُوْرَةِ تَفْضَحُهُم إِذَا اطُّلِعَ عَلَيْهَا!! فَالْمَطْبَخُ دَائِرٌ، والحَمَّامُ، والحَلْوَىٰ كَثِيْرَةٌ، وَالطِّيْبُ والدَّعَةُ والكِبْرُ حَاصِلٌ بِذٰلِكَ الزِّيِّ!

وَقَدْ قَالَ **النَّبِيُّ** ﷺ **لِمَالِكِ بْنِ نَضْلَةَ**[٦] وَقَدْ رَآهُ أَشْعَثَ الهَيْئَةِ: «**أَمَا لَكَ مَالٌ؟**». قَالَ: بَلىٰ؛ مِنْ كُلِّ المَالِ آتَانِيَ اللهُ ﷻ. قَالَ: «**فَإِنَّ اللهَ ﷻ إِذَا أَنْعَمَ عَلىٰ عَبْدٍ نِعْمَةً؛ أَحَبَّ أَنْ يُرَىٰ عَلَيْهِ**»[٧].

وَمِنْ أَخْلَاقِهِم تَنْفِيْرُ النَّاسِ عَنِ العِلْمِ، وَيَزْعُمُوْنَ أَلّا حَاجَةَ إِلىٰ الوَسَائِطِ، وَإِنَّمَا هُوَ قَلْبٌ وَرَبٌّ!

---

(١) **يتنسمون**: يخرجون للتنزه والتفريج عن النفس.

(٢) في الأصل: بيوت، وهو تصحيف.

(٣) جمع رباط.

(٤) في الأصل: يهمهم.

(٥) **أمارات**: علامات.

(٦) مالك بن عويف بن نضلة الجشمي، صحابي قليل الحديث.

(٧) رواه أبو داود (٢٠٠٦)، والترمذي (٢٠٠٦)، والنسائي (٥٢٣٩)، وأحمد (٣/ ٤٧٦).

وَلَهُمْ مِنَ الأَقْوَالِ وَالأَفْعَالِ المُنْكَراتِ مَا قَدْ ذَكَرْتُهُ فِي (تَلْبِيْسِ إِبْلِيْس). آهٍ لَوْ كَانَ لِهٰذَا الزَّمَانِ **عُمَرُ**؛ لاحْتَاجَ كُلَّ يَوْمٍ إِلىٰ مِئَةِ دِرَّةٍ[1]، لَا؛ بَلْ كَانَ يَسْتَعْمِلُ السَّيْفَ فِي هٰؤلاءِ الخَوَارِجِ. وَهُمْ دَاخِلَ البَلَدِ لَا قُدْرَةَ لِلْعُلَمَاءِ عَلَيْهِم؛ إِذْ قَوْلُهُم فِيْهِم لا يُقْبَلُ.

١١٥١ ـ فَمَنْ رَزَقَهُ اللهُ سُبْحَانَهُ النَّظَرَ فِي سِيَرِ السَّلَفِ، وَوَفَّقَهُ لِلاقْتِدَاءِ بِهِم: آثَرَ أَنْ يَعْتَزِلَ عَنْ أَكْثَرِ الخَلْقِ، وَلا يُخَالِطَهُم؛ فَإِنَّهُ مَنْ خَالَطَهُمْ؛ أُوْذِيَ، وَمَنْ دَارَىٰ؛ لَمْ يَسْلَمْ مِنَ المُدَاهَنَةِ؛ **فَالنُّصْحُ اليَوْمَ مَرْدُوْدٌ**.

٢٤٨ - فصل: من البله أن تبادر عدوًا بالمخاصمة

١١٥٢ ـ مِنَ البَلَهِ أَنْ تُبَادِرَ عَدُوًّا أَوْ حَسُوْدًا بِالمُخَاصَمَةِ. وَإِنَّمَا يَنْبَغِي إِنْ عَرَفْتَ حَالَهُ أَنْ تُظْهِرَ لَهُ مَا يُوْجِبُ السَّلَامَةَ بَيْنَكُمَا؛ إِنِ اعْتَذَرَ قَبِلْتَ، وَإِنْ أَخَذَ فِي الخُصُوْمَةِ صَفَحْتَ، وَأَرَيْتَهُ أَنَّ الأَمْرَ قَرِيْبٌ، ثُمَّ تُبْطِنُ الحَذَرَ مِنْهُ؛ فَلا تَثِقُ بِهِ فِي حَالٍ، وَتَتَجَافَاهُ بَاطِنًا، مَعَ إِظْهَارِ المُخَالَطَةِ فِي الظَّاهِرِ.

١١٥٣ ـ فَإِذَا أَرَدْتَ أَنْ تُؤذِيَهُ؛ فَأَوَّلُ مَا تُؤْذِيهِ بِهِ إِصْلَاحُكَ وَاجْتِهَادُكَ فِيْمَا يَرْفَعُكَ. وَمِنْ أَعْظَمِ العُقُوْبَةِ لَهُ العَفْوُ عَنْ زَلَلِهِ. وَإِنْ بَالَغَ فِي السَّبِّ؛ فَبَالِغْ فِي الصَّفْحِ؛ تُنِبْ عَنْكَ العَوَامَّ فِي شَتْمِهِ، وَيَحْمَدُكَ العُلَمَاءُ عَلىٰ حِلْمِكَ! وَمَا تُؤْذِيْهِ بِهِ مِنْ ذٰلِكَ، [وَتُوْرِثُهُ بِهِ الكَمَدَ ظَاهِرًا]، وَغَيْرَه فِي البَاطِنِ أَضْعَافٌ، وَ[خَيْرٌ] مِمَّا تُؤْذِيْهِ بِهِ مِنْ كَلِمَةٍ إِذَا قُلْتَها لَهُ سَمِعْتَ أَضْعَافَهَا.

١١٥٤ ـ ثُمَّ بِالْخُصُوْمَةِ تُعْلِمُهُ أَنَّكَ عَدُوُّهُ؛ فَيَأْخُذُ الحِذْرَ، وَيَبْسُطُ اللِّسَانَ، وَبِالصَّفْحِ يَجْهَلُ مَا فِي بَاطِنِكَ؛ فَيُمْكِنُكَ حِيْنَئِذٍ أَنْ تَشْتَفِيَ مِنْهُ، أَمّا أَنْ تَلْقاهُ بِمَا يُؤْذِي دِيْنَكَ، فَيَكُوْنُ هُوَ الّذِي قَدِ اشْتَفَىٰ مِنْكَ! وَمَا ظَفِرَ قَطُّ مَنْ ظَفِرَ بِهِ الإِثْمُ، بَلِ الصَّفْحُ الجَمِيْلُ. وَإِنَّما يَقَعُ هٰذَا مِمَّنْ يَرَىٰ أَنَّ تَسْلِيْطَهُ عَلَيْهِ: إِمّا عُقُوْبَةٌ لِذَنْبٍ، أَوْ لِرَفْعِ دَرَجَةٍ، أَوْ لِلابْتِلَاءِ؛ فَهُوَ لا يَرَىٰ الخَصْمَ، وَإِنَّمَا يَرَىٰ القُدْرَةَ.

---

(١) **الدِّرة**: سوط أو عصا لينةٌ يؤدب بها.

٢٤٩ - فصل: الخلاص من المحن بالتوبة والدعاء

١١٥٥ ـ إِذَا وَقَعْتَ فِي مِحْنَةٍ يَصْعُبُ الخَلَاصُ مِنْهَا؛ فَلَيْسَ لَكَ إِلَّا الدُّعَاءُ، واللَّجَأُ إِلَىٰ اللهِ، بَعْدَ أَنْ تُقَدِّمَ التَّوْبَةَ مِنَ الذُّنُوْبِ؛ فَإِنَّ الزَّلَلَ يُوْجِبُ العُقُوْبَةَ؛ فَإِذَا زَالَ الزَّلَلُ بِالتَّوْبَةِ مِنَ الذُّنُوْبِ؛ ارْتَفَعَ السَّبَبُ.

١١٥٦ ـ فَإِذَا تُبْتَ وَدَعَوْتَ، وَلَمْ تَرَ للإِجَابَةِ أَثَرًا؛ فَتَفَقَّدْ أَمْرَكَ؛ **فَرُبَّمَا** كَانَتِ التَّوْبَةُ مَا صَحَّتْ، فَصَحِّحْهَا، ثُمَّ ٱدْعُ، وَلَا تَمَلَّ مِنَ الدُّعَاءِ؛ **فَرُبَّمَا** كَانَتِ المَصْلَحَةُ فِي تَأْخِيْرِ الإِجَابَةِ، **وَرُبَّمَا** لَمْ تَكُنِ المَصْلَحَةُ فِي الإِجَابَةِ؛ فَأَنْتَ تُثَابُ، وتُجَابُ إِلَىٰ مَنَافِعِكَ، وَمِنْ مَنَافِعِكَ أَلَّا تُعْطَىٰ مَا طَلَبْتَ، بَلْ تُعَوَّضَ غَيْرَهُ.

١١٥٧ ـ فَإِذَا جَاءَ إِبْلِيْسُ، **فَقَالَ**: كَمْ تَدْعُوْهُ وَلا تَرَىٰ إِجَابةً! **فَقُلْ**: أَنَا أَتَعَبَّدُ بِالدُّعَاءِ، وَأَنَا مُوْقِنٌ أَنَّ الجَوَابَ حَاصِلٌ؛ غَيْرَ أَنَّهُ رُبَّمَا كَانَ تَأْخِيْرُهُ لِبَعْضِ المَصَالِحِ عَلَيَّ مُنَاسِبٌ، وَلَوْ لَمْ يَحْصُلْ؛ حَصَلَ التَّعَبُّدُ وَالذُّلُّ.

١١٥٨ ـ فَإِيَّاكَ أَنْ تَسْأَلَ شَيْئًا إِلَّا وَتُقْرِنُهُ بِسُؤَالِ الخِيَرَةِ؛ فَرُبَّ مَطْلُوْبٍ مِنَ الدُّنيا كَانَ حُصُوْلُه سَبَبًا لِلْهَلاكِ. وَإِذَا كُنْتَ قَدْ أُمِرْتَ بِالمُشَاوَرَةِ فِي أُمُوْرِ الدُّنيا لِجَلِيْسِكَ، لِيُبَيِّنَ لَكَ فِي بَعْضِ الآرَاءِ مَا يُعْجِزُ رَأيَكَ، وَتَرَىٰ أَنَّ مَا وَقَعَ لَكَ لا يَصْلُحُ؛ فَكَيْفَ لا تَسْأَلُ الخَيْرَ رَبَّكَ، وَهُوَ أَعْلَمُ بِالمَصَالِحِ؟! **وَالاسْتِخَارَةُ مِنْ حُسْنِ المُشَاوَرَةِ.**

٢٥٠ - فصل: العلماء وأقسامهم والجهال وأقسامهم

١١٥٩ ـ نَظَرْتُ إِلَىٰ النّاسِ، فَرَأَيْتُهُم يَنْقَسِمُوْنَ بَيْنَ عَالِمٍ وَجَاهِلٍ: **فَأَمَّا الجُهّالُ**؛ فانْقَسَموا:

فَمِنْهُم سُلْطَانٌ قَدْ رُبِّيَ فِيْ الجَهْلِ، ولُبْسِ الحَرِيْرِ، وشُرْبِ الخُمُوْرِ، وظُلْمِ النَّاسِ، وَلَهُ عُمَّالٌ عَلَىٰ مِثْلِ حَالِهِ؛ فهٰؤلاءِ بِمَعْزِلٍ عَنِ الخَيْرِ بِالجُمْلَةِ.

وَمِنْهُم **تُجَّارٌ**؛ هِمَّتُهُمُ الاكْتِسَابُ، وَجَمْعُ الأَمْوَالِ، وَأَكْثَرُهُم لا يُؤَدِّي الزَّكَاةَ، ولا يَتَحَاشَىٰ مِنَ الرِّبا؛ فَهٰؤُلاءِ فِي صُوَرِ النَّاسِ[1].

---

(١) أي: لا يملكون من الإنسانية إلا الشكل.

وَمِنْهُم **أَرْبَابُ مَعَاشٍ**؛ يُطَفِّفُوْنَ المِكْيَالَ، ويُخْسِرُوْنَ المِيْزَانَ، وَيَبْخَسُوْنَ النَّاسَ، وَيَتَعَامَلُوْنَ بِالرِّبا، وَهُمْ فِي الأَسْوَاقِ طُوْلَ النَّهَارِ، لا هِمَّةَ لَهُمْ إِلَّا مَا هُمْ فِيْهِ؛ فَإِذَا جَاءَ اللَّيْلُ؛ وَقَعوا نِيَامًا كالسُّكَارَىٰ؛ فَهِمَّةُ أَحَدِهِم مَا يَأْكُلُ، وَيَلْتَذُّ بِهِ، وَلَيْسَ عِنْدَهُمْ مِنَ الصَّلَاةِ خَبَرٌ؛ فَإِنْ صَلَّىٰ أَحَدُهُم؛ نَقَرَها، أَوْ جَمَعَ بَيْنَهُمَا؛ فَهٰؤلاءِ فِي عِدَادِ البَهَائِمِ.

وَمِنَ النَّاس **ذوو رَذَالَةٍ** فِي جَمِيْعِ أَحْوَالِهِم؛ فهٰذَا كَنَّاسٌ، وهٰذَا زَبَّالٌ، وهٰذَا نَخَّالٌ، وهٰذَا يَكْسَحُ الحُشَّ[1]؛ فهٰؤلاءِ أَرْذَلُ القَوْمِ[2].

وَمِنْهُم مَنْ **يَطْلُبُ اللَّذَّاتِ، ولا يُسَاعِدُهُ المَعَاشُ**، فَيَخْرُجُ إِلىٰ **قَطْعِ الطَّرِيْقِ!** وهٰؤلاءِ أَحْمَقُ الجَمَاعَةِ؛ إِذْ لا عَيْشَ لَهُمْ؛ فَإِنِ الْتَذُّوْا لَحْظَةً بِأَكْلٍ أَوْ شُرْبٍ، فَحَرَّكَتِ الرِّيْحُ قَصَبَةً؛ هَرَبُوْا خَوْفًا مِنَ السُّلْطَانِ، وَمَا أَقَلَّ بَقَاءَهُمْ! ثُمَّ القَتْلُ والصَّلْبُ، مَعَ إِثْمِ الآخِرَةِ.

وَمِنْهُم **أَرْبَابُ قُرًى**، قَدْ **عَمَّهُمُ الجَهْلُ**، وَأَكْثَرُهُم لا يَتَحَاشَىٰ مِنْ نَجَاسةٍ؛ فَهُمْ فِي زُمْرَةِ البَقَرِ.

١١٦٠ - وَرَأَيْتُ النِّسَاءَ يَنْقَسِمْنَ أَيْضًا؛ فَمِنْهُنَّ **المُسْتَحْسَنَةُ** الَّتِي تَبْغِي[3]، وَمِنْهُنَّ **الخَائِنَةُ** لِزَوْجِهَا فِي مَالِهِ، وَمِنْهُنَّ **مَنْ لا تُصَلِّي**، وَلا تَعْرِفُ شَيْئًا مِنَ الدِّيْنِ؛ فَهٰؤُلاءِ حَشْوُ النَّارِ؛ فَإِذَا سَمِعْنَ مَوْعِظَةً؛ فَإِنَّهَا كَمَا مَرَّت عَلىٰ حَجَرٍ! وَإِذَا قُرِئَ عِنْدَهُنَّ القُرْآنُ؛ فَكَأَنَّهُنَّ يَسْمَعْنَ السَّمَرَ!!

١١٦١ - **وَأَمَّا العُلَمَاءُ**: **فَالمُبْتَدِئُوْنَ** مِنْهُم يَنْقَسِمُوْنَ إِلىٰ ذِي نِيَّةٍ خَبِيْثَةٍ؛ يَقْصِدُ بِالعِلْمِ المُبَاهَاةَ لا العَمَلَ، وَيَمِيْلُ إِلىٰ الفِسْقِ؛ ظَنًّا أَنَّ العِلْمَ يَدْفَعُ عَنْهُ، وَإِنَّمَا هُوَ حُجَّةٌ عَلَيْهِ. وَأَمَّا **المُتَوَسِّطُوْنَ والمَشْهُوْرُوْنَ**؛ فَأَكْثَرُهُم يَغْشَىٰ السَّلَاطِيْنَ، وَيَسْكُتُ عَنْ إِنْكَارِ المُنْكَرِ.

وَقَلِيْلٌ مِنَ العُلَمَاءِ مَنْ تَسْلَمُ لَهُ نِيَّتُهُ، ويَحْسُنُ قَصْدُهُ.

---

(١) **الحش**: المرحاض.

(٢) أي عمل مباح أشرف من الكسب الحرام.

(٣) **تبغي**: تفجر.

١١٦٢ - فَمَنْ أَرَادَ اللهُ بِهِ خَيْرًا؛ رَزَقَهُ حُسْنَ القَصْدِ فِي طَلَبِ العِلْمِ؛ فَهُوَ يُحَصِّلُهُ لِيَنْتَفِعَ بِهِ وَيَنْفَعَ، وَلا يُبَالِي بِعَمَلٍ، مِمّا يَدُلُّهُ عَلَيْهِ العِلْمُ؛ فَتَرَاهُ يَتَجَافَىٰ أَرْبَابَ الدُّنيا، وَيَحْذَرُ مُخَالَطَةَ العَوَامِّ، ويَقْنَعُ بِالقَلِيْلِ؛ خَوْفًا مِنَ المُخَاطَرَةِ فِي الدُّنيا فِيْ تَحْصِيْلِ الكَثِيْرِ، وَيُؤْثِرُ العُزْلَةَ؛ فَلَيْسَ مُذَكِّرًا لِلآخِرَةِ مِثْلُهَا.

١١٦٣ - وَلَيْسَ عَلىٰ العَالِمِ أَضَرُّ مِنَ الدُّخُوْلِ عَلىٰ السَّلاطِيْنِ؛ فَإِنَّهُ يُحَسِّنُ لِلعَالِمِ الدُّنْيَا، وَيُهَوِّنُ عَلَيْهِ المُنْكَرَ، وَرُبَّما أَرَادَ أَنْ يُنْكِرَ فَلا يَصِحُّ لَهُ! فَإِنْ عَدِمَ القَنَاعَةَ، وغَلَبَتْهُ نَفْسُهُ فِي طَلَبِ فُضُوْلِ الدُّنيا؛ سُلِّمَ عَلَيْهِ[1]؛ لأَنَّهُ يَتَعَرَّضُ بِأَرْبَابِهَا.

١١٦٤ - وَإِنَّ الإِنْسَانَ لَيَمْشِي فِي السُّوْقِ سَاعَةً، فَيَنْسَىٰ بِمَا يَرَىٰ مَا يَعْلَمُ؛ فَكَيْفَ إِذَا انْضَمَّ إِلىٰ ذٰلِكَ التَّرَدُّدُ إِلىٰ الأَغْنِيَاءِ، وَالطَّمَعُ فِي أَمْوَالِهِم؟!

فَأَمّا الوَحْدَةُ؛ فَإِنَّهَا سَبَبُ رُجُوْعِ القَلْبِ، وَجَمْعِ الهَمِّ، وَالنَّظَرِ فِي العَوَاقِبِ، وَالتَّهيُّؤِ لِلرَّحِيْلِ، وَتَحْصِيْلِ الزَّادِ؛ فَإِذَا انْضَمَّتْ إِلَيْهَا القَنَاعَةُ؛ جَلَبَتِ الأَحْوَالَ المُسْتَحْسَنَةَ.

١١٦٥ - وَلَا تَحْسُنُ اليَوْمَ المُجَالَسَةُ إِلَّا لِكِتَابٍ يُحَدِّثُكَ عَنْ أَسْرَارِ السَّلَفِ؛ فَأَمّا **مُجَالَسَةُ العُلَمَاءِ؛ فَمُخَاطَرَةٌ**؛ إِذْ لا يَجْتَمِعُوْنَ عَلىٰ ذِكْرِ الآخِرَةِ فِي الأَغْلَبِ، **وَمُجَالَسَةُ العَوَامِّ فِتْنَةٌ للدِّيْنِ**؛ إِلَّا أَنْ يَحْتَرِزَ فِي مَجَالِسِهم، وَيَمْنَعَهُم مِنَ القَوْلِ، فَيَقُوْلَ هُوَ، وَيكلِّفَهُمُ السَّمَاعَ، ثُمَّ يَسْتَوْفِزَ[2] لِلْبُعْدِ عَنْهُم.

١١٦٦ - وَلَا يُمْكِنُ الانْقِطَاعُ الكُلِّيُّ إِلَّا بِقَطْعِ الطَّمَعِ، وَلَا يَنْقَطِعُ الطَّمَعُ إِلَّا بِالقَنَاعَةِ بِاليَسِيْرِ، أَوْ يَتَّجِرُ بِتِجَارَةٍ، أَوْ أَنْ يَكُوْنَ لَهُ عَقَارٌ يَسْتَغِلُّه؛ فَإِنَّهُ مَتَىٰ احْتَاجَ تَشَتَّتَ الهَمُّ، وَمَتَىٰ انْقَطَعَ العَالِمُ عَنِ الخَلْقِ، وقَطَعَ طَمَعَهُ فِيْهِم، وتَوَفَّرَ عَلىٰ ذِكْرِ الآخِرَةِ؛ فَذَاكَ الَّذِي يَنْفَعُ ويُنْتَفَعُ بِهِ. وَاللهُ المُوَفِّقُ.

---

(١) سقط اعتباره، وهو تعبير ما زال مستعملًا عند أهل الشام.

(٢) أي: يتحفز ويستعد.

٢٥١ - فصل: السلف تشاغلوا بالقرآن والعلم

١١٦٧ ـ مَنْ تَأَمَّلَ بِعَيْنِ الفِكْرِ دَوَامَ البَقَاءِ فِي الجَنَّةِ؛ فِي صَفَاءٍ بِلَا كَدَرٍ، وَلَذَّاتٍ بِلَا انْقِطَاعٍ، وَبُلُوْغِ كُلِّ مَطْلُوْبٍ لِلنَّفْسِ، وَالزِّيَادَةِ مِمَّا لَا عَيْنَ رَأَتْ، وَلا أُذُنَ سَمِعَتْ، وَلَا خَطَرَ عَلىٰ قَلْبِ بَشَرٍ، مِنْ غَيْرِ تَغْيِيرٍ وَلا زَوَالٍ؛ إِذْ لا يُقَالُ: أَلْفُ أَلْفِ سَنَةٍ، وَلا مِئَةُ أَلْفِ أَلْفٍ، بَلْ وَلَوْ أَنَّ الإِنْسَانَ عَدَّ الأُلُوْفَ أُلُوْفَ السِّنِيْنَ لانْقَضَىٰ عَدَدُه، وكَانَ لَهُ نِهَايَةٌ، وَبَقَاءُ الآخِرَةِ لَا نَفَادَ لَهُ. إِلَّا أَنّه لَا يَحْصُلُ ذٰلِكَ إِلَّا بِنَقْدِ هٰذَا العُمُرِ.

١١٦٨ ـ وَمَا مِقْدَارُ عُمُرٍ غَايَتُهُ مِئَةُ سَنَةٍ، مِنْهَا خَمْسَةَ عَشَرَ صَبْوَةٌ وَجَهْلٌ، وَثَلَاثُوْنَ بَعْدَ السَّبْعِيْنَ ـ إِنْ حَصَلَتْ ـ ضَعْفٌ وَعَجْزٌ، والتَّوَسُّطُ نِصْفُهُ نَوْمٌ، وَبَعْضُهُ زَمَانُ أَكْلٍ وَشُرْبٍ وَكَسْبٍ، وَالمُنْتَخَلُ مِنْهُ لِلعِبَادَاتِ يَسِيْرٌ؟! أَفَلَا يُشْتَرَىٰ ذٰلِكَ الدَّائِمُ بِهٰذَا القَلِيْلِ؟!

١١٦٩ ـ إِنَّ الإِعْرَاضَ عَنِ الشُّرُوْعِ فِي هٰذَا البَيْعِ وَالشِّرَاءِ لَغَبْنٌ فَاحِشٌ فِي العَقْلِ، وَخَلَلٌ فِي الإِيْمَانِ بِالوَعْدِ. فَإِنَّ مَنْ يَدْرِي كَيْفَ يُعْقَدُ البَيْعُ بِالعِلْمِ؛ هُوَ الَّذِي يَدُلُّ عَلَىٰ الطَّرِيْقِ، وَيُعَرِّفُ مَا يَصْلُحُ لَهَا، وَيُحَذِّرُ مِنْ قُطَّاعِهَا[1].

١١٧٠ ـ وَلَقَدْ دَخَلَ إِبْلِيْسُ عَلىٰ طَائِفَةٍ مِنَ **المُتَزَهِّدِيْنَ** بِآفَاتٍ، أَعْظَمُهَا أَنَّهُ صَرَفَهُم عَنِ العِلْمِ، فَكَأَنَّهُ شَرَعَ فِي إِطْفَاءِ المِصْبَاحِ لِيَسْرِقَ فِي الظُّلْمَةِ، حَتَّىٰ إِنَّهُ أَخَذَ قومًا مِنْ كِبَارِ العُلَمَاءِ، فَسَلَكَ بِهِم مِنْ ذٰلِكَ مَا يَنْهَىٰ عَنْهُ العِلْمُ.

١١٧١ ـ فَرَأَيْتُ **أَبَا حَامِدٍ الطُّوْسِيَّ** يَحْكِي عَنْ نَفْسِهِ فِي بَعْضِ مُصَنَّفَاتِهِ؛ قَالَ: شَاوَرْتُ مَتْبُوْعًا مُقَدَّمًا مِنَ الصُّوْفِيَّةِ فِي المُوَاظَبَةِ عَلىٰ تِلَاوَةِ القُرْآنِ؟ فَمَنَعَنِي مِنْهُ! وَقَالَ: السَّبِيْلُ أَنْ تَقْطَعَ عَلَائِقَكَ مِنَ الدُّنْيَا بِالكُلِّيَّةِ؛ بِحَيْثُ لَا يَلْتَفِتُ قَلْبُكَ إِلىٰ أَهْلٍ وَوَلَدٍ وَمَالٍ وَعِلْمٍ، بَلْ تَصِيْرُ إِلىٰ حَالَةٍ يَسْتَوِي عِنْدَكَ وُجُوْدُ ذٰلِكَ وَعَدَمُهُ، ثُمَّ تَخْلُوْ بِنَفْسِكَ فِي زَاوِيَةٍ، فَتَقْتَصِرُ مِنَ العِبَادَةِ عَلىٰ الفَرَائِضِ والرَّوَاتِبِ، وتَجْلِسُ فَارِغَ القَلْبِ،

(١) في الأصل: فظاعتها، وهي تصحيف.

وَلَا تَزَالُ تَقُوْلُ: اللهُ، اللهُ. إِلَىٰ أَنْ تَنْتَهِيَ إِلىٰ حَالَةٍ؛ لَوْ تَرَكْتَ[1] تَحْرِيْكَ اللِّسَانِ؛ رَأَيْتَ كَأَنَّ الكَلِمَةَ جَارِيَةٌ عَلىٰ لِسَانِكَ، ثُمَّ تَنْظُرُ مَا يُفْتَحُ عَلَيْكَ مِمَّا فُتِحَ مِثْلُهُ عَلىٰ الأَنْبِيَاءِ وَالأَوْلِيَاءِ!!

قُلْتُ: وَهٰذَا أَمرٌ لا أَتَعَجَّبُ أَنَا فِيْهِ مِنَ المُوْصِي بِهِ، وَإِنَّمَا أَتَعَجَّبُ مِنَ الَّذِي قَبِلَهُ مَعَ مَعْرِفَتِهِ وَفَهْمِهِ!! وَهَلْ يُقْطَعُ الطَّرِيْقُ بِالإِعْرَاضِ عَنْ تِلَاوَةِ القُرْآنِ؟! وَهَلْ فُتِحَ لِلأَنْبِيَاءِ مَا فُتِحَ بِمُجَاهَدَتِهِم وَرِيَاضَتِهِم؟! وَهَلْ يُوْثَقُ بِمَا يَظْهَرُ مِنْ هٰذِهِ المَسَالِكِ؟! ثُمَّ مَا الَّذِي يُفْتَحُ؟! أَتَمَّ اطِّلَاعٌ عَلَىٰ عَلْمِ الغَيْبِ؟ أَمْ هُوَ وَحْيٌ؟!

فَهٰذَا كُلُّهُ مِنْ تَلَاعُبِ إِبْلِيْسَ بِالقَوْمِ، وَرُبَّمَا كَانَ مَا يَتَخَايَلُ لَهُمْ مِنْ أَثَرِ المَالِيْخُوْلِيا أَوْ مِنْ إِبْلِيسَ.

فَعَلَيْكَ بِالعِلْمِ، وَانْظُرْ فِي سِيَرِ السَّلَفِ؛ هَلْ فَعَلَ أَحدٌ مِنْهُم مِنْ هٰذا شَيْئًا أَوْ أَمَرَ بِهِ؟! وَإِنَّمَا تَشَاغَلُوْا بِالقُرْآنِ وَالعِلْمِ، فَدَلَّهُم عَلىٰ إِصْلَاحِ البَوَاطِنِ وَتَصْفِيَتِهَا. نَسْأَلُ اللهَ ﷻ عِلْمًا نَافِعًا، وَدَفْعًا لِلْعَدُوِّ مَانِعًا؛ إِنَّهُ قَادِرٌ.

٢٥٢ - فصل: الحزم في كتمان الحب والبغض

١١٧٢ ـ مَنْ أَرَادَ اصْطِفَاءَ مَحْبُوْبٍ؛ فَالمَحْبُوْبُ نَوْعَانِ: **امْرَأَةٌ** يُقْصَدُ مِنْهَا حُسْنُ الصُّوْرَةِ، **وَصَدِيْقٌ** يُقْصَدُ مِنْهُ حُسْنُ المَعْنَىٰ. فَإِذَا أَعْجَبَتْكَ صُوْرَةُ امْرَأَةٍ؛ فَتَأَمَّلْ خِلَالَهَا[2] البَاطِنَةَ مُدَيْدَةً[3] قَبْلَ أَنْ يَتَعَلَّقَ القَلْبُ بِهَا تَعَلُّقًا مُحْكَمًا؛ فَإِنْ رَأَيْتَهَا كَمَا تُحِبُّ ـ وَأَصْلُ ذٰلِكَ كُلِّهِ الدِّيْنُ؛ كَمَا قَالَ ﷺ: «**عَلَيْكَ بِذَاتِ الدِّيْنِ**»[4] ـ؛ فَمِلْ إِلَيْهَا، وَاسْتَوْلِدْهَا، وَكُنْ فِي مَيْلِكَ مُعْتَدِلًا[5]؛ فَإِنَّهُ مِنَ الغَلَطِ أَنْ تُظْهِرَ لِمَحْبُوْبِكَ المَحَبَّةَ؛ فَإِنَّهُ يَشْتَطُّ عَلَيْكَ، وَتَلْقَىٰ مِنْه الأَذَىٰ مِنَ التَّجَنِّي وَالهِجْرَانِ، وَالإِدْلَالِ وَطَلَبِ الإِنْفَاقِ الكَثِيْرِ ـ وَإِنْ كَانَتْ تُحِبُّكَ ـ؛ لأَنَّ هٰذَا إِنَّمَا يَجْتَلِبُهُ حُبُّ الإِدْلَالِ والتَّسَلُّطِ عَلىٰ المَقْهُوْرِ.

---

(١) في الأصل: ترك.

(٢) **خلالها**: صفاتها وخصالها.

(٣) **مديدة**: مدة قصيرة.

(٤) رواه البخاري (٤٤٣)، ومسلم (١٤٦٦)، عن جابر رضي الله عنه.

(٥) في الأصل: معتدل الميل.

١١٧٣ ـ وَثَمَّ **نُكْتَةٌ عَجِيْبَةٌ**، وَهُوَ أَنَّكَ رُبَّمَا عَمِلْتَ بِمُقْتَضَىٰ الحَالِ الحَاضِرَةِ، وَهِيَ تَحْكُمُ بِكَمَالِ الحُبِّ، ثُمَّ إِنَّ ذٰلِكَ لا يَثْبُتُ إِلَيْكَ، فَتَقَعُ، وَتَبْقَىٰ مَقْهُوْرًا، وَيَصْعُبُ عَلَيْكَ الخَلاصُ! وَرُبَّمَا تَمَكَّنَتْ مِنْكَ بِمَعْرِفَةِ سِرِّكَ، أَوْ بِأَخْذِ كَثِيْرٍ مِنْ مَالِكَ.

١١٧٤ ـ وَمِنْ أَحْسَنِ مَا بَلَغَنِي فِي هٰذَا أَنَّ جَارِيَةً لِبَعْضِ الخُلَفَاءِ كَانَتْ تُحِبُّهُ حُبًّا شَدِيْدًا، وَلا تُظْهِرُ لَهُ ذٰلِكَ، فَسُئِلَتْ عَنْ هٰذَا؟ **فَقَالَتْ**: لَوْ أَظْهَرْتُ مَا عِنْدِي، فَجَفَانِي؛ هَلَكْتُ. قَالَ الشَّاعِرُ:

لَا تُظْهِرَنَّ مَوَدَّةً لِحَبِيْبِ ... فَتَرَىٰ بِعَيْنِكَ مِنْهُ كُلَّ عَجِيْبِ
أَظْهَرْتُ يَوْمًا لِلْحَبِيْبِ مَوَدَّتِي ... فَأَخَذْتُ مِنْ هِجْرَانِهِ بِنَصِيْبِي

١١٧٥ ـ وَكَذَا يَنْبَغِي أَنْ تَكْتُمَ بَعْضَ حُبِّكَ **لِلْوَلَدِ**، لأَنَّهُ يَتَسَلَّطُ عَلَيْكَ، وَيُضَيِّعُ مَالَكَ، وَيُبَالِغُ فِي الإِدْلَالِ، وَيَمْتَنِعُ عَنِ التَّعَلُّمِ وَالتَّأَدُّبِ.

١١٧٦ ـ وَكَذٰلِكَ إِذَا اصْطَفَيْتَ **صَدِيْقًا** وَخَبِرْتَهُ؛ فَلا تُخْبِرْهُ بِكُلِّ مَا عِنْدَكَ، بَلْ تَعَاهَدْهُ بِالإِحْسَانِ، كَمَا تَتَعَاهَدُ الشَّجَرَةَ؛ فَإِنَّهَا إِذَا كَانَتْ جَيِّدَةَ الأَصْلِ؛ حَسُنَتْ ثَمَرَتُهَا بِالتَّعَاهُدِ، ثُمَّ كُنْ مِنْهُ عَلَىٰ حَذَرٍ؛ فَقَدْ تَتَغَيَّرُ الأَحْوَالُ، وَقَدْ قِيْلَ:

اُحْذَرْ عَدُوَّكَ مَرَّةً ... وَاُحْذَرْ صَدِيقَكَ أَلْفَ مَرَّهْ
فَلَرُبَّمَا انْقَلَبَ الصَّدِيْـ ... ـقُ فَكَانَ أَدْرَىٰ بِالمَضَرَّهْ

٢٥٣ - فصل: لا تظهر بغضك لمن تبغضه

١١٧٧ ـ وَأَمَّا إِذَا أَبْغَضْتَ شَخْصًا [لأَنَّهُ يَسُوْؤُكَ]؛ فَلا تُظْهِرَنَّ ذٰلِكَ؛ فَإِنَّكَ تُنَبِّهُهُ عَلَىٰ أَخْذِ الحَذَرِ مِنْكَ، وَتَدْعُوْهُ إِلَىٰ المُبَارَزَةِ، فَيُبَالِغُ فِي حَرْبِكَ وَالاحْتِيَالِ عَلَيْكَ، بَلْ يَنْبَغِي أَنْ تُظْهِرَ لَهُ الجَمِيْلَ إِنْ قَدَرْتَ، وَتَبَرَّهُ مَا اسْتَطَعْتَ، حَتَّىٰ تَنْكَسِرَ[1] مُعَادَاتُهُ بِالحَيَاءِ[2] مِنْ بُغْضِكَ؛ فَإِنْ لَمْ تُطِقْ؛ فَهَجْرٌ جَمِيْلٌ؛ لا تُبَيِّنُ فِيْهِ مَا يُؤْذِي، وَمَتَىٰ سَمِعْتَ عَنْهُ كَلِمَةً قَذِعَةً؛ فَاْجْعَلْ جَوَابَهَا كَلِمَةً جَمِيْلَةً؛ فَهِيَ أَقْوَىٰ فِي كَفِّ لِسَانِهِ.

---

(١) في الأصل: فانكسرت.
(٢) في الأصل: جبلة.

وَكَذٰلِكَ جَمِيْعُ مَا يُخَافُ إِظْهَارُهُ؛ فَلَا تَتَكَلَّمَنَّ بِهِ؛ فَرُبَّمَا وَقَعَتْ كَلِمَةٌ أَسْقَطَتْ بِهَا عِزَّ السُّلْطَانِ، فنُقِلَتْ إِلَيْهِ، فَكَانَتْ سَبَبَ هَلَاكِكَ. أَوْ عَنْ صَدِيْقٍ، فَكَانَتْ سَبَبَ عَدَاوَتِهِ، أَوْ صِرْتَ رَهِيْنًا لِمَنْ سَمِعَها؛ خَائِفًا أَنْ يُظْهِرَها. **فالحَزْمُ كِتْمَانُ الحُبِّ والبُغْضِ.**

١١٧٨ ـ وَكَذَا يَنْبَغِي أَنْ تَكْتُمَ **سِنَّكَ**؛ فَإِنْ كُنْتَ كَبِيْرًا؛ اسْتَهْرَمُوْكَ، وَإِنْ كُنْتَ صَغِيْرًا؛ اسْتَحْقَرُوْكَ. وَكَذٰلِكَ **مِقْدَارُ مَالِكَ**؛ فَإِنَّهُ إِنْ كَانَ كَثِيْرًا؛ نَسَبُوْكَ فِي نَفَقَتِكَ إِلَىٰ البُخْلِ، وَإِنْ كَانَ قَلِيْلًا؛ طَلَبُوْا الرَّاحَةَ مِنْكَ. وكذٰلِكَ **المَذْهَبُ**؛ فَإِنَّكَ إِنْ أَظْهَرْتَهُ؛ لَمْ تَأْمَنْ أَنْ يَسْمَعَهُ مُخَالِفٌ، فَيَقْطَعَ بِكُفْرِكَ. وَقَدْ أَنْشَدَنَا **مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ البَاقِي البَزّازُ**:

احْفَظْ لِسَانَكَ لَا تَبُحْ بِثَلَاثَةٍ ... سِنٍّ وَمَالٍ مَا اسْتَطَعْتَ وَمَذْهَبِ

فَعَلَىٰ الثَّلَاثَةِ تُبْتَلَىٰ بِثَلَاثَةٍ ... بِمُمَوِّهٍ وَمُمَخْرِقٍ ومُكَذِّبِ

٢٥٤ - فصل: خادم السلطان يُخشى على دينه ودنياه

١١٧٩ ـ طَالَ تَعَجُّبِي مِنْ مُؤْمِنٍ بِاللهِ ﷻ، مُؤْمِنٍ بِجَزَائِهِ، يُؤْثِرُ خِدْمَةَ السُّلْطَانِ، مَعَ مَا يَرَىٰ مِنْهُ مِنَ الجَوْرِ الظَّاهِرِ؛ فَوَا عَجَبًا! ما الَّذِي يُعْجِبُهُ؟! إِنْ كَانَ الَّذِي يُعْجِبُهُ دُنْيَوِيًّا؛ فَلَيْسَ ثَمَّ إِلَّا أَنْ يُصَاحَ بَيْنَ يَدَيْهِ بِسْمِ اللهِ، وَأَنْ يَتَصَدَّرَ فِي المَجَالِسِ، وَيَلْوِيَ عُنُقَهُ كِبْرًا عَلَىٰ النُّظَرَاءِ، وَيَأْخُذُ الأَسْحَاتَ[1]، وَهُوَ يَعْلَمُ مِنْ أَيْنَ حَصَلَ، وَرُبَّمَا انْبَسَطَ فِي البَرَاطِيْلِ[2].

ثُمَّ يَقَابِلُ هٰذَا أَنْ يُصَادَرَ، وَيُعْزَلَ، فَتَسْتَخْرِجَ مِنْهُ تِلْكَ المَرَارَةُ كُلَّ حَلَاوَةٍ كَانَتْ فِي الوِلَايَةِ. وَرُبَّمَا كَانَ قَرِيْبَ الحَالِ[3]، فَافْتَقَرَ بِالمُصَادَرَةِ جِدًّا، ثُمَّ تَنْطَلِقُ الأَلْسُنُ المَادِحَةُ بِالذَّمِّ. ثُمَّ لَوْ سَلِمَ مِنْ هٰذَا؛ فَإِنَّهُ لَا يَسْلَمُ مِنَ الرَّقِيْبِ لَهُ، والحَذِرِ مِنْهُ؛ فَهُوَ كَرَاكِبِ البَحْرِ، إِنْ سَلِمَ بَدَنُهُ مِنَ الغَرَقِ؛ لَمْ يَسْلَمْ قَلْبُهُ مِنَ الخَوْفِ.

وَإِنْ كَانَ **دِيْنًا**؛ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ أَنَّهُم لا يُمَكِّنُوْنَهُ فِي الغَالِبِ مِنَ العَمَلِ بِمُقْتَضَىٰ الدِّيْنِ؛

---

(١) **الأسحات**: جمع سحت وهو المال الحرام. (٢) **البرطيل**: الرشوة.
(٣) أي بين الفقر والغنى.

فَإِنَّهُم يَأْمُرُوْنَه بِتَرْكِ مَا يَجِبُ، وفِعْلِ مَا لا يَجُوْزُ، فَيَذْهَبُ دِيْنُهُ عَلىٰ البَارِدِ! وَلَعِقَابُ الآخِرَةِ أَشَقُّ.

٢٥٥ - فصل: من أنف الذل تجافى عن منن الأنذال

١١٨٠ ـ العَجَبُ مِنَ الّذِي أَنِفَ الذُّلَّ! كَيْفَ لا يَصْبِرُ عَلىٰ جَافِّ الخُبْزِ، وَلَا يَتَعَرَّضُ لِمِنَنِ الأَنْذَالِ؟!

أَتُرَاهُ مَا يَعْلَمُ أَنَّه مَا بَقِيَ صَاحِبُ مُرُوْءَةٍ؟! وَأَنَّه إِنْ سَأَلَ؛ سَأَلَ بَخِيْلًا لا يُعْطِي؛ فَإِنْ أَعْطَىٰ نَزْرًا؛ فَإِنَّهُ يَسْتَعْبِدُ المُعْطَىٰ بِذٰلِكَ العُمُرَ؟!

ثُمّ ذَاكَ القَدْرُ النَّزْرُ يَذْهَبُ عَاجِلًا، وَتَبْقَىٰ المِنَنُ والخَجَلُ وَرُؤْيَةُ النَّفْسِ بِعَيْنِ الاحْتِقَارِ؛ إِذْ صَارَتْ سَائِلَةً، وَرُؤْيَةُ المُعْطِي بِعَيْنِ التَّعْظِيْمِ أَبدًا. ثُمَّ يُوْجِبُ ذٰلِكَ السُّكُوْتَ عَنْ مَعَايِبِ المُعْطِي، وَالبِدَارَ إِلىٰ قَضَاءِ حُقُوْقِهِ، وَخِدْمَتِهِ فِيْمَا يَقِي[1].

١١٨١ ـ وَأَعْجَبُ مِنْ هٰذَا مَنْ يَقْدِرُ أَنْ يَسْتَعْبِدَ الأَحْرَارَ بِقَلِيْلِ العَطَاءِ الفَانِي وَلَا يَفْعَلُ؛ فَإِنَّ الحُرَّ لا يُشْتَرَىٰ إِلَّا بِالإِحْسَانِ. قَالَ الشَّاعِرُ:

تَفَضَّلْ عَلىٰ مَنْ شِئْتَ وَاْعْنَ بِأَمْرِهِ ... فَأَنْتَ، وَلَوْ كَانَ الأَمِيْرَ، أَمِيْرُهُ
وَكُنْ ذَا غِنًىٰ عَمَّنْ تَشَاءُ مِنَ الوَرَىٰ ... وَلَوْ كَانَ سُلْطَانًا فَأَنْتَ نَظِيْرُهُ
وَمَنْ كُنْتَ مُحْتَاجًا إِلَيْهِ وَوَاقِفًا ... عَلىٰ طَمَعٍ مِنْهُ فَأَنْتَ أَسِيْرُهُ

٢٥٦ - فصل: يتضمّن وصيةً للشباب*

١١٨٢ ـ يَنْبَغِي لِلصَّبِيِّ إِذَا بَلَغَ أَنْ يَحْذَرَ كَثْرَةَ الجِمَاعِ؛ لِيَبْقَىٰ جَوْهَرُهُ، فَيُفِيْدَهُ ذٰلِكَ فِي الكِبَرِ؛ لأَنَّهُ مِنَ الجَائِزِ كِبَرُهُ، وَالاسْتِعْدَادُ لِلْجَائِزِ حَزْمٌ؛ فَكَيْفَ لِلْغَالِبِ؟! كَمَا يَنْبَغِي أَنْ يَسْتَعِدَّ لِلشِّتَاءِ قَبْلَ هُجُوْمِهِ، **وَمَتَىٰ أَنْفَقَ الحَاصِلَ وَقْتَ القُدْرَةِ؛ تَأَذَّىٰ بِالفَقْرِ إِلَيْهِ وَقْتَ الفَاقَةِ.**

١١٨٣ ـ وَلْيَعْلَمْ ذُو الدِّيْنِ وَالفَهْمِ أَنَّ المُتْعَةَ إِنَّمَا تَكُوْنُ بِالْقُرْبِ مِنَ الحَبِيْبِ،

---

(١) بقي من العمر، انظر الفصل (٢٦٤).

وَالقُرْبُ يَحْصُلُ بِالتَّقْبِيْلِ والضَّمِّ، وَذلِكَ يُقَوِّي المَحَبَّةَ، وَالمَحَبَّةُ يَلَذُّ وُجُوْدُهَا، وَالوَطْءُ يُنْقِصُ المَحَبَّةَ، ويُعْدِمُ تِلْكَ اللَّذَّةَ!! وَقَدْ كَانَ العَرَبُ يَعْشَقُوْنَ، وَلَا يَرَوْنَ وَطْءَ المَعْشُوْقِ! قَالَ قَائِلُهُم[1]:

..... إِنْ نُكِحَ الحُبُّ فَسَدْ

فَأَمّا الالتِذَاذُ بِنَفْسِ الوَطءِ؛ فَشَأْنُ البَهَائِمِ[2].

١١٨٤ ـ وَلَقَدْ **تَأَمَّلْتُ** المُرَادَ مِنَ الوَطْءِ[3]، فَوَجَدْتُ فِيْهِ مَعْنًى عَجِيْبًا يَخْفَى عَلَى كَثِيْرٍ مِنَ النَّاسِ، وَهُوَ أَنَّ النَّفْسَ إِذَا عَشِقَتْ شَخْصًا؛ أَحَبَّتِ القُرْبَ مِنْهُ؛ فَهِيَ تُؤْثِرُ الضَمَّ والمُعَانَقَةَ؛ لأَنَّهُمَا غَايَةٌ فِي القُرْبِ. ثُمَّ تُرِيْدُ قُربًا يَزِيْدُ عَلَى هٰذا، فتُقَبِّلُ الخَدَّ. ثُمَّ تَطْلُبُ القُرْبَ مِنَ الرُّوْحِ، فَتَقبِّلُ الفَمَ؛ لأَنَّهُ مَنْفَذٌ إِلَى الرُّوْحِ. ثُمَّ تَطْلُبُ الزِّيَادَةَ، فَتَمُصُّ لِسَانَ المَحْبُوْبِ، وَقَدْ كَانَ **رَسُوْلُ اللهِ ﷺ يَتَوَشَّحُ عَائِشَةَ**[4]، **وَيُقَبِّلُها، وَيَمَصُّ لِسَانَهَا**. فَإِذَا طَلَبَتِ النَّفسُ زِيَادَةً فِي القُرْبِ إِلَى النَّفْسِ؛ اسْتَعْمَلتِ الوَطْءَ. فهٰذَا سِرُّهُ المَعْنَوِيُّ، وَيَحْصُلُ مِنْهُ الالْتِذَاذُ الحِسّيُّ.

٢٥٧ - فصل: ضرر علم الكلام على العوام

١١٨٥ ـ لَيْسَ عَلَى العَوَامِّ أَضَرُّ مِنْ سَمَاعِهِم عِلْمَ الكَلَامِ، وَإِنَّمَا يَنْبَغِي أَنْ يُحَذَّرَ العَوَامُّ مِنْ سَمَاعِهِ والخَوْضِ فِيْهِ، كَمَا يُحَذَّرُ الصَّبِيُّ مِنْ شَاطِئِ النَّهْرِ خَوْفَ الغَرَقِ. وَرُبَّمَا ظَنَّ العَامِيُّ أَنَّ لَهُ قُوَّةً يُدْرِكُ بِهَا هٰذَا، وَهُوَ فَاسِدٌ؛ فَإِنَّهُ قَدْ زَلَّ فِي هٰذَا خَلْقٌ مِنَ العُلَمَاءِ؛ فَكَيْفَ العَوَامُّ؟!

١١٨٦ ـ وَمَا رَأَيْتُ أَحْمَقَ مِنْ جُمْهُوْرِ قُصَّاصِ زَمَانِنَا؛ فَإِنَّه يَحْضُرُ عِنْدَهُم

---

(١) سبقت الأبيات في الفصل (٢٣٥).

(٢) قال المؤلف في الفصل (٢٨): ولما كانت صورة النكاح تأباها النفوس الشريفة من كشف عورة، وملاقاة ما لا يستحسِن لنفسه جُعلت **الشهوة** تحثّ عليه ليحصل المقصود.

(٣) قال المؤلف في الفصل (٢٨): تأملت في فوائد النكاح ومعانيه وموضوعه فرأيت الأصل الأكبر في وضعه وجود النسل.

(٤) **التوشح**: المعانقة والتقبيل، انظر: الحديث في نهاية ابن الأثير (وشح).

العَوَامُّ الغُشْمُ، فَلا يَنْهَوْنَهم عَنْ خَمْرٍ وَزِنا وَغِيبةٍ، وَلا يُعَلِّمُوْنَهُم أَرْكَانَ الصَّلاةِ، وَوَظَائِفَ التَّعَبُّدِ، بَلْ يَمْلَؤُوْنَ الزَّمَانَ بِذِكْرِ الاسْتِوَاءِ، وَتَأْوِيْلِ الصِّفَاتِ، وَأَنَّ الكَلَامَ قَائِمٌ بِالذَّاتِ، فَيَتَأَذَّىٰ بِذٰلِكَ مَنْ كَانَ قَلْبُهُ سَلِيْمًا.

١١٨٧ ـ وَإِنَّمَا عَلىٰ العَامِّيِّ أَنْ يُؤْمِنَ بِالأُصُوْلِ الخَمْسَةِ[١]؛ بِاللهِ، وَمَلَائِكَتِهِ، وَكُتُبِهِ، وَرُسُلِهِ، وَاليَوْمِ الآخِرِ، وَيَقْنَعَ بِمَا قَالَ السَّلَفُ: القُرْآنُ كَلَامُ اللهِ غَيْرُ مَخْلُوْقٍ، وَالاسْتِوَاءُ حَقٌّ، والكَيْفُ مَجْهُوْلٌ.

١١٨٨ ـ وَلْيُعْلَمْ أَنَّ رَسُوْلَ اللهِ ﷺ لَمْ يُكَلِّفِ الأَعْرَابَ سِوَىٰ مُجَرَّدِ الإِيْمَانِ، وَلَمْ تَتَكَلَّمِ الصَّحَابةُ فِي الجَوَاهِرِ والأَعْرَاضِ؛ فَمَنْ مَات عَلىٰ طَرِيْقِهِم؛ مَاتَ مُؤْمِنًا سَلِيْمًا مِنْ بِدْعَةٍ. وَمِنْ تَعَرَّضَ لِسَاحِلِ البَحْرِ، وَهُوَ لا يُحْسِنُ السِّبَاحَةَ؛ فالظَّاهِرُ غَرَقُهُ.

٢٥٨ - فصل: أشد الناس جهلًا منهوم باللذات

١١٨٩ ـ أَشَدُّ النَّاسِ جَهْلًا مَنْهُوْمٌ بِاللَّذَّاتِ. واللَّذَّاتُ عَلىٰ ضَرْبَيْنِ: مُبَاحَةٌ وَمَحْظُوْرَةٌ: **فَالمُبَاحَةُ** لا يَكَادُ يَحْصُلُ مِنْهَا شَيْءٌ إِلَّا بِضَيَاعِ مَا هُوَ مُهِمٌّ مِنَ الدِّيْنِ؛ فَإِذَا حَصَلَتْ مِنْهَا حَبَّةٌ؛ قَارَنَهَا قِنْطَارٌ مِنَ الهَمِّ.

ثُمَّ لا تَكَادُ تَصْفُوْ فِي نَفْسِهَا، بَلْ مُكَدِّرَاتُها أُلُوْفٌ، فَإِذَا صُوِّرَ عَدَمُها [بَعْدَ انْقِضَائِهَا، وَبَقَاءُ هذِهِ] الأُلُوْفِ [المُكَدِّرةِ]؛ صَارَ التَّصْوِيْرُ مُغْلِصِمًا[٢] لِلْهَوَىٰ، مُحْزِنًا[٣] لِلنَّفْسِ.

فَإِذَا أَنِفَتْ[٤]؛ أَنِفَتْ مِنَ الأَسَفِ عَلىٰ الدَّوَامِ مَا لا تَحْوِيْهِ صِفَةٌ؛ فَهِيَ تَغرُّ الغَمْرَ[٥]، وَتَهْدِمُ العُمُرَ، وَتُدِيْمُ الأَسَىٰ.

---

(١) بل أصول الإيمان ستة، ينضاف إليها الإيمان بالقدر خيره وشره كما جاء في حديث جبريل.

(٢) **مغلصمًا**: ذابحًا.

(٣) في الأصل مجرنًا: وهو تصحيف.

(٤) **أنفت**: عزفت.

(٥) **الغمر**: الساذج الذي لا علم له ولا تجربة.

وَمَعَ هٰذَا؛ فَالْمَنْهُوْمُ كُلَّمَا عَبَّ مِنْ لَذَّةٍ؛ طَلَبَ أُخْتَها، وَقَدْ عَرَفَ جِنَايَةَ الأُوْلَىٰ وَخِيَانَتَها ـ وَهٰذَا مَرَضُ العَقْلِ، وَدَاءُ الطَّبْعِ ـ فلا يَزَالُ هٰذَا كذٰلِكَ إِلىٰ أَنْ يُخْتَطَفَ بالمَوْتِ، فَيُلْقَىٰ عَلَىٰ بِسَاطِ نَدَمٍ لا يُسْتَدْرَكُ.

فَالعَجَبُ مِمَّنْ هِمَّتُهُ هٰكذَا مَعَ قِصَرِ العُمُرِ، ثُمَّ لا يَهْتَمُّ بِآخِرَتِهِ؛ الّتِي لَذَّتُهَا سَلِيْمَةٌ مِنْ شَائِبٍ[1]، مُنَزَّهَةٌ عِنْ معَايِبَ، دَائِمَةٌ إلى الأَمَدِ، بَاقِيَةٌ بِبَقَاءِ الأَبَدِ! وَإِنَمَا يَحْصُلُ تَقْرِيْبُ هذِهِ بِإِبْعَادِ تِلْكَ، وَعِمْرَانُ هذِهِ بِتَخْرِيْبِ تِلْكَ. فَوَا عَجَبًا لِعَاقِلٍ حَصِيْفٍ حَسَنِ التَّدْبِيْرِ؛ فَاتَهُ النَّظَرُ في هذِهِ الأَحْوَالِ، وغَفَلَ عَنِ التَّمْيِيْزِ بَيْنَ هٰذَيْنِ الأَمْرَيْنِ!

وَإِنْ كَانَتِ **اللَّذَّةُ مَعْصِيَةً**؛ انْضَمَّ إِلىٰ مَا ذَكَرْنَاهُ: عَارُ الدُّنْيَا، والفَضِيْحَةُ بَيْنَ الخَلْقِ، وَعُقُوْبَةُ الحُدُوْدِ، وَعِقَابُ الآخِرَةِ، وغَضَبُ الحَقِّ سُبْحَانَه.

بِاللهِ؛ إِنَّ المُبَاحَاتِ تَشْغَلُ عَنْ تَحْصِيْلِ الفَضَائِلِ؛ فَذُمَّ ذٰلِكَ لِبَيَانِ الحَزْمِ؛ فَكَيْفَ بِالمُحَرَّمَاتِ الّتِي هِيَ غَايَةُ الرَّذَائِلِ؟!

نَسْأَلُ اللهَ ﷻ يَقَظَةً تُحَرِّكُنا إِلىٰ مَنَافِعِنا، وتُزْعِجُنا عَنْ خَوَادِعِنا؛ إِنَّه قَرِيْبٌ.

٢٥٩ - فصل: الهوى والتسويف والاغترار بالرحمة

١١٩٠ ـ تَأَمَّلْتُ عَلىٰ الخَلْقِ، وَإِذَا هُمْ فِي حَالَةٍ عَجِيْبَةٍ، يَكَادُ يُقْطَعُ مَعَهَا بِفَسَادِ العَقْلِ! وَذٰلِكَ أَنَّ الإِنْسَانَ يَسْمَعُ المَوَاعِظَ، وَتُذْكَرُ لَهُ الآخِرَةُ، فَيَعْلَمُ صِدْقَ القَائِلِ، فَيَبْكِي وَيَنْزَعِجُ عَلىٰ تَفْرِيْطِهِ، وَيَعْزِمُ عَلىٰ الاسْتِدْرَاكِ، ثُمَّ يَتَرَاخَىٰ عَمَلُهُ بِمُقْتَضَىٰ مَا عَزَمَ عَلَيْهِ؛ **فَإِذَا قِيْلَ لَهُ**: أَتَشُكُّ فِيْمَا وُعِدْتَ بِهِ؟ قَالَ: لَا واللهِ. **فَيُقَالُ لَهُ**: فَاعْمَلْ! فَيَنْوِي ذٰلِكَ، ثُمَّ يَتَوَقَّفُ عَنِ العَمَلِ، وربَّما مَالَ إِلَىٰ لَذَّةٍ مُحَرَّمَةٍ، وَهُوَ يَعْلَمُ النَّهْيَ عَنْهَا!

١١٩١ ـ وَمِنْ هٰذَا الجِنْسِ تَأَخُّرُ **الثَّلَاثَةِ الَّذِيْنَ خُلِّفُوْا**[2]، وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ عُذْرٌ، وَهُمْ يَعْلَمُوْنَ قُبْحَ التَّأَخُّرِ، وَكذٰلِكَ كُلُّ عَاصٍ وَمُفَرِّطٍ.

---

(١) في الأصل: شامت وهو تصحيف.

(٢) هم: كعب بن مالك ومرارة بن الربيع وهلال بن أمية، انظر قصتهم في البخاري (٤٤١٨)، ومسلم (٢٧٣٩) عن كعب بن مالك ﷺ.

فَتَأَمَّلْتُ السَّبَبَ ـ مَعَ أَنَّ الاعْتِقَادَ صَحِيْحٌ، وَالفِعْلَ بَطِيْءٌ ـ فَإِذَا لَهُ ثَلَاثَةُ أَسْبَابٍ:

أحدُها: **رُؤْيَةُ الهَوَىٰ العَاجِلِ**؛ فَإِنَّ رُؤْيَتَهُ تَشْغَلُ عَنِ الفِكْرِ فِيْمَا يَجْنِيهِ.

والثاني: **التَّسْوِيْفُ بِالتَّوْبَةِ**؛ فَلَوْ حَضَرَ العَقْلُ؛ لَحَذَّرَ مِنْ آفَاتِ التَّأْخِيْرِ؛ **فَرُبَّما** هَجَمَ المَوْتُ وَلَمْ تَحْصُلِ التَّوْبَةُ! وَالعَجَبُ مِمَّنْ يُجَوِّزُ سَلْبَ رُوْحِهِ قَبْلَ مُضِيِّ سَاعَةٍ، وَلا يَعْمَلُ عَلَىٰ الحَزْمِ! غَيْرَ أَنَّ الهَوَىٰ يُطِيْلُ الأَمَدَ. وَقَدْ قَالَ صَاحِبُ الشَّرْعِ ﷺ: «**صَلِّ صَلَاةَ مُوَدِّعٍ**»[1]، وَهٰذَا نِهَايَةُ الدَّوَاءِ لِهٰذَا الدَّاءِ؛ فَإِنَّهُ مَنْ ظَنَّ أَنَّهُ لا يَبْقَىٰ إِلَىٰ صَلَاةٍ أُخْرَىٰ؛ جَدَّ واجْتَهَدَ.

والثالثُ: **رَجَاءُ الرَّحْمَةِ**، فَيُرَىٰ العَاصِي يَقُوْلُ: ربِّي رَحِيْمٌ! وَيَنْسَىٰ أَنَّهُ شَدِيْدُ العِقَابِ!! وَلَوْ عَلِمَ أَنَّ رَحْمَتَهُ لَيْسَتْ رِقَّةً ـ إِذْ لَوْ كَانَتْ كذٰلِكَ؛ لَمَا ذَبَحَ عُصْفُوْرًا ولا آلَمَ طِفلًا ـ وَعِقَابَهُ غَيْرُ مَأْمُوْنٍ ـ فَإِنَّهُ شَرَعَ قَطْعَ اليَدِ الشَّرِيْفَةِ[2] بِسَرِقَةِ خَمْسَةِ قَرَارِيْطَ[3] ـ؛ لَجَدَّ وَأَنَابَ. فَنَسْأَلُ اللهَ ﷻ أَنْ يَهبَ لَنَا حَزْمًا يَبُتُّ المَصَالِحَ جَزْمًا.

٢٦٠ - فصل: الإعراض عما يحرك الفخر والزهو والعجب

١١٩٢ ـ نَظَرْتُ فِيْ قَوْلِ **رَسُوْلِ اللهِ** ﷺ لَمَّا لَبِسَ الخَاتَمَ، ثُمَّ رَمَىٰ بِهِ، وَقَالَ: «**شَغَلَنِي وَنَظْرَةٌ إِلَيْكُمْ وَنَظْرَةٌ إِلَيْه**»[4]، **وَقَوْلُه**: «**هٰذَا رَجُلٌ يَتَبَخْتَرُ فِي حُلَّتِهِ، مُرَجِّلًا جُمَّتَهُ؛ خُسِفَ بِهِ الأَرْضُ؛ فَهُوَ يَتَجَلْجَلُ فِيْهَا إِلَىٰ يَوْمِ القِيَامَةِ**»[5]، فَرَأَيْتُ أَنَّهُ لا يَنْبَغِي لِلْمُؤْمِنِ أَنْ يَلْبَسَ ثَوْبًا مُعْجِبًا، ولا شَيْئًا مِنْ زِيْنَةٍ؛ لأَنَّ ذٰلِكَ يُوْجِبُ النَّظَرَ إِلَىٰ النَّفْسِ بِعَيْنِ الإِعْجَابِ، وَالنَّفْسُ يَنْبَغِي أَنْ تَكُوْنَ ذَلِيْلَةً للخَالِقِ.

---

(١) رواه ابن ماجه (٤١٧١)، وأحمد (٥/ ٤١٢)، والبخاري في التاريخ (٣/ ٢/ ٢١٦)، وأبو نعيم في (١/ ٣٦٢)، قال الهيثمي: إسناده ضعيف، وله شاهدان أحدهما صحيح رواه الحاكم (٤/ ٣٢٦) وصححه ووافقه الذهبي.

(٢) كانت اليد شريفةً قبل أن تسرق كما قال أحدهم: لما كانت أمينة كانت ثمينة، ولما خانت هانت.

(٣) القيراط = ٠,٢٢٣٢ غ.

(٤) رواه النسائي (٥٢٨٩)، وأحمد (١/ ٣٢٢) عن ابن عمر رضي الله عنهما.

(٥) رواه البخاري (٥٧٨٩)، ومسلم (٢٠٨٨) عن أبي هريرة رضي الله عنه.

١١٩٣ ـ وَقَدْ كَانَ قُدَمَاءُ الأَحْبَارِ فِي بَنِي إِسْرَائِيْلَ يَمْشُونَ عَلىٰ العِصِيِّ؛ لِئلَّا يَقَعَ مِنْهُم بَطَرٌ فِي المَشْي.

١١٩٤ ـ وَلَبِسَتْ **أُمُّ المُؤْمِنِيْنَ عَائِشَةُ** رضي الله عنها دِرْعًا لَهَا، فَأُعْجِبَتْ بِهِ، فَقَالَ لَهَا رَسُوْلُ اللهِ ﷺ: «**إِنَّ اللهَ لا يَنْظُرُ إِلَيْكِ فِي حَالَتِكِ هذِهِ**»[١].

١١٩٥ ـ وَلَمَّا لَبِسَ **رَسُوْلُ اللهِ** ﷺ خَمِيْصَةً لَهَا أَعْلَامٌ؛ قَالَ: «**أَلْهَتْنِي هذِهِ عَنْ صَلَاتِي**»[٢].

وَهٰذَا كُلُّهُ يُوْجِبُ الإِعْرَاضَ عَنِ الزِّيْنَةِ، وَمَا يُحَرِّكُ إِلىٰ الفَخْرِ والزُّهُو والعُجْبِ. **ولهٰذَا حُرِّمَ الحَرِيْرُ**.

١١٩٦ ـ وَأَقُوْلُ عَلىٰ أَسْبَابِ هَذَا: إِنَّ المُرَقَّعاتِ الَّتِي يَتَنَوَّقُ[٣] فِيْهَا المُتَصَوِّفةُ بِالسَّوَارِكِ والتَّلْمِيْعِ، رُبَّمَا أَوْجَبَتْ زُهُوَّ اللَّابِسِ: إِمّا لِحُسْنِها فِي ذَاتِهَا، أَوْ لِعِلْمِهِ أَنَّهَا تُنْبِئُ عَنْهُ بِالتَّصَوُّفِ والزُّهْدِ. وَكَذٰلِكَ الخاتمُ فِي اليَدِ، وَطُوْلُ الأَكْمَامِ، وَالنِّعَالُ الصَّرَّارةُ[٤]. وَلا أَقُوْلُ: إِنَّ هٰذِهِ الأَشْياء تَحْرُمُ، بَلْ رُبَّما جَلَبَتْ ما يَحْرُمُ مِنَ الزُّهُوِّ. فَيَنْبَغِي لِلعاقِلِ أَنْ يَتَنَبَّه بِما قُلْتُ فِي دَفْعِ كُلِّ مَا يَحْذَرُ مِنْ شَرِّهِ.

١١٩٧ ـ وَقَدْ رَكِبَ **ابْنُ عُمَرَ** نَجِيبًا[٥]، فَأَعْجَبَهُ مَشْيُهُ، فَنَزَلَ، وَقَالَ: يا **نَافِعُ!** أَخْلِهِ فِي البُدْنِ[٦].

٢٦١ - فصل: العزلة حمية

١١٩٨ ـ مَنْ أَرَادَ اجْتِمَاع هَمِّهِ وَإِصْلَاحَ قَلْبِهِ؛ فَلْيَحْذَرْ مِنْ مُخَالَطَةِ النَّاسِ فِي هٰذا الزَّمَانِ؛ فَإِنَّه قَدْ كَانَ يَقَعُ الاجْتِمَاعُ عَلَىٰ مَا يَنْفَعُ ذِكْرُهُ، فَصارَ الاجْتِمَاعُ عَلىٰ ما يَضُرُّ!

---

(١) رواه أبو نعيم (١/ ٣٧) وفي سنده إسحاق بن بشر: كذاب (لا أصل له).

(٢) رواه البخاري (٣٧٣)، ومسلم (٥٥٦) عن عائشة رضي الله عنها، و(**الخميصة**) كساء مربع له علمان.

(٣) **يتنوق**: يتأنق.

(٤) **النعال الصرارة**: التي لها صرير، وهو الصوت الذي يلفت انتباه الناس.

(٥) **النجيب**: السريع من الإبل.

(٦) **البدن**: النوق التي تهدى للبيت الحرام.

١١٩٩ - وَقدْ جَرّبْتُ عَلىٰ نَفْسِي مِرارًا أَنْ أَحْصُرَهَا فِي بَيْتِ العُزْلَةِ، فَتَجْتَمِعَ هِيَ، وَيُضَافَ إِلىٰ ذٰلِكَ النَّظَرُ فِي سِيَرِ السَّلَفِ، فَأَرَىٰ العُزْلَةَ حِمْيَةً، وَالنَّظَرَ فِي سِيَرِ القَوْمِ دَواءً، وَاسْتِعْمَالَ الدَّوَاءِ مَعَ الحِمْيَةِ عَنِ التَّخْلِيْطِ نَافِعٌ. فَإِذَا فَسَحْتُ لِنَفْسِي فِي مُجَالَسَةِ النَّاسِ وَلِقَائِهِم؛ تَشَتَّتَ القَلْبُ المُجْتَمِعُ، وَوَقَعَ الذُّهُوْلُ عَمّا كُنْتُ أُرَاعِيْهِ، وَانْتَقَشَ في القَلْبِ مَا قَدْ رَأَتْهُ العَيْنُ، وفي الضَّمِيْرِ مَا تَسْمَعُهُ الأُذُنُ، وَفِي النَّفْسِ مَا تَطْمَعُ فِي تَحْصِيْلِهِ مِنَ الدُّنْيَا، وَإِذا جُمْهُوْرُ المُخَالِطِيْنَ أَرْبَابُ غَفْلَةٍ، وَالطَّبْعُ بِمُجَالَسَتِهِم يَسْرِقُ مِنْ طِبَاعِهِم. فَإِذَا عُدْتُ أَطْلُبُ القَلْبَ؛ لَمْ أجِدْهُ، وَأَرُوْمُ ذاكَ الحُضُوْرَ فَأَفقِدُهُ، فَيَبْقَىٰ فُؤَادِي فِي غِمَارِ ذٰلِكَ اللِّقَاءِ للنَّاسِ أَيَّامًا، حَتَّى يَسْلُوَ الهَوَى.

١٢٠٠ - وَمَا فَائِدَةُ تَعْرِيْضِ البِنَاءِ لِلنَّقْصِ؟! فإِنَّ دَوَامَ العُزْلَةِ كالبِنَاءِ، وَالنَّظَرُ في سِيَرِ السَّلَفِ يَرْفَعُهُ؛ فَإِذَا وَقَعَتِ المُخالَطَةُ؛ انْتَقَضَ مَا بُنِي فِي مُدَّةٍ فِي لَحْظَةٍ، وصَعُبَ التَّلافِي، وَضَعُفَ القَلْبُ! وَمَنْ لَهُ فَهْمٌ يَعْرِفُ أَمْرَاضَ القَلْبِ، وَإِعْرَاضَهُ عَنْ صَاحِبِهِ، وَخُرُوْجَ طَائِرِهِ مِنْ قَفَصِهِ. ولا يُؤْمَنُ عَلىٰ هٰذَا المرِيْضِ أَنْ يَكُوْنَ مَرَضُهُ هٰذَا سَبَبَ التَّلَفِ، وَلَا عَلَىٰ هٰذا الطَّائِرِ المَحْصُوْرِ أَنْ يَقَعَ فِي الشَّبَكَةِ.

١٢٠١ - وَسَبَبُ مَرَضِ القَلْبِ أَنَّهُ كَانَ مَحْمِيًّا عَن التَّخْلِيْطِ، مُغَذًّيا بِالعِلْمِ وَسِيَرِ السَّلَفِ، فَخَلَّطَ، فَلَمْ يَحْتَمِلْ مِزاجُهُ، فَوَقَعَ المَرَضُ.

فالجِدَّ الجِدَّ؛ فَإِنَّمَا هِيَ أَيّامٌ. وَمَا نَرَىٰ مَنْ يُلْقَى، وَلا مَنْ يُؤْخَذُ مِنْهُ، ولا مَنْ تَنْفَعُ مُجَالَسَتُهُ؛ إِلَّا أَنْ يَكُوْنَ نَادِرًا مَا أَعْرِفُهُ.

مَا فِي الصِّحَابِ أَخُوْ وَجْدٍ نُطَارِحُهُ حَدِيْثَ نَجْدٍ وَلا صَبٌّ نُجَارِيْهِ

١٢٠٢ - فَٱلزَمْ خَلْوَتَكَ! وَرَاعِ مَا بقِيْتَ! وَإِذَا قَلِقَتِ النَّفْسُ مُشْتَاقَةً إِلىٰ لِقَاءِ الخَلْقِ؛ فَٱعْلَمْ أَنَّهَا بَعْدُ كَدِرةٌ؛ فَرُضْهَا، لَيَصِيْرَ لِقَاؤُهُمْ عِنْدَهَا مَكْرُوْهًا... وَلَوْ كَانَ عِنْدَهَا شُغْلٌ بِالخَالِقِ؛ لَمَا أَحَبَّتِ الزَّحْمَةَ؛ كَمَا أَنَّ الَّذِي يَخْلُوْ بِحَبِيْبِه لا يُؤْثِرُ حُضُوْرَ غَيْرِهِ. وَلَوْ أَنَّهَا عَشِقَتْ طَرِيْقَ اليَمَنِ؛ لَمْ تَلْتَفِتْ إِلىٰ **الشَّامِ**.

٢٦٢ - فصل: أسباب الهداية

١٢٠٣ - تَفَكَّرْتُ في سَبَبِ هِدَايةِ مَنْ يَهْتَدِي، وَانْتِبَاهِ مَنْ يَتَيَقَّظُ مِنْ رُقَادِ غَفْلَتِهِ، فَوَجَدْتُ السَّبَبَ الأَكْبرَ اخْتِيَارَ الحَقِّ ﷻ لذٰلِكَ الشَّخْصِ؛ **كَمَا قِيْلَ**: إِذَا أَرَادَكَ لِأَمْرٍ؛ هَيَّأَكَ لَهُ.

فَتَارَةً تَقَعُ اليَقَظَةُ بِمُجَرَّدِ فِكْرٍ يُوْجِبُهُ نَظَرُ العَقْلِ، فَيَتَلَمَّحُ الإِنْسَانُ وُجُوْدَ نَفْسِهِ، فَيَعْلَمُ أَنَّ لَهَا صانِعًا، وَقَدْ طَالَبَهُ بِحَقِّهِ، وَشُكْرِ نِعْمَتِهِ، وَخَوَّفَهُ عِقَابَ مُخَالَفَتِهِ، وَلا يَكُوْنُ ذٰلِكَ بِسَبَبٍ ظَاهِرٍ.

١٢٠٤ - وَمِنْ هٰذا ما جَرَىٰ لِأَهْلِ الكَهْفِ؛ ﴿إِذْ قَامُوْا فَقَالُوْا رَبُّنَا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الكهف: ١٤]. وَفِي التَّفْسِيْرِ: أَنَّ كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُم أَلْفَىٰ[1] فِي قَلْبِهِ يَقَظَةً، فَقَالَ: لَا بُدَّ لِهٰذَا الخَلْقِ مِنْ خَالِقٍ. فَاشْتَدَّ كَرْبُ بَوَاطِنِهم مِنْ وَقودِ نَارِ الحَذَرِ، فَخَرَجُوْا إِلى الصَّحْرَاءِ، فَٱجْتَمَعُوْا عَنْ غَيْرِ مَوْعِدٍ؛ فَكُلُّ وَاحِدٍ يَسْأَلُ الآخَرَ: مَا الَّذِي أَخْرَجَكَ فَتَصَادَقُوا.

١٢٠٥ - ومِنَ النّاسِ مَنْ يَجْعَلُ الخَالِقَ ﷻ - لذٰلِكَ السَّبَبِ الَّذِي هُوَ الفِكْرُ وَالنَّظَرُ - سَبَبًا ظاهِرًا، إِمّا مِنْ مَوْعِظَةٍ يَسْمَعُها، أَوْ يَرَاهَا، فَيُحَرِّكُ هٰذا السَّبَبُ الظَّاهِرُ فِكْرَةَ القَلْبِ البَاطِنَةَ.

١٢٠٦ - ثُمَّ يَنْقَسِمُ المُتَيَقِّظُوْنَ: **فمِنهُم**: مَنْ يَغْلِبُهُ هَوَاهُ، ويَقْتَضيهِ طَبْعُهُ مَا يَشْتَهِي مِمّا قَدِ اعْتَادَهُ، فَيَعُوْدُ القَهْقَرَى، وَلا يَنْفَعُهُ ما حَصَلَ لَهُ مِن الانْتِبَاهِ، فَٱنْتِبَاهُ مِثْلِ هٰذا زِيَادَةٌ فِي الحُجَّةِ عَلَيْهِ. **وَمِنْهُم**: مَنْ هُوَ وَاقِفٌ في مَقَامِ المُجَاهَدَةِ بيْنَ صَفَّيْنِ: العَقْلِ الآمِرِ بالتَّقْوى، والهَوَى المُتَقَاضِي بِالشَّهَواتِ. **فَمِنْهُم**: مَنْ يُغْلَبُ بَعْدَ المُجَاهَدَاتِ الطَّوِيْلَةِ، فَيَعُوْدُ إِلىٰ الشَّرِّ، ويُخْتَمُ لَهُ بِهِ. **وَمِنْهُمْ**: مَنْ يَغْلِبُ تَارَةً، ويُغْلَبُ أُخْرَى؛ فَجِرَاحَاتُهُ لا فِي مَقْتَلٍ. **وَمِنْهُمْ**: مَنْ يَقْهَرُ عَدُوَّه، فيَسْجُنُه في حَبْسٍ، فَلَا يَبْقَىٰ لِلعَدُوِّ مِنَ الحِيْلَةِ إِلَّا الوَسَاوِسُ. **وَمِنَ الصَّفْوَةِ أَقْوَامٌ**؛ مُذْ تَيَقَّظُوا مَا نَامُوْا[2]، ومُذْ سلَكُوا مَا

---

(١) **ألفى**: وجد.

(٢) في الأصل: ما قاموا. وهو تصحيف.

وَقفوا؛ فَهَمُّهُم صُعُوْدٌ وتَرَقٍّ، كُلَّما عَبَروا مَقَامًا إلىٰ مَقَامٍ؛ رَأَوْا نَقْصَ مَا كَانُوْا فِيْهِ، فاسْتَغْفَروا. **وَمِنْهُم**: مَنْ يَرْقى عَنِ الاحْتِيَاجِ إلىٰ مُجَاهَدَةٍ: إمّا لِخِسَّةِ مَا يَدْعُوْ إلَيْهِ الطَّبْعُ عِنْدَهُ، وَلا وَقْعَ لَهُ، وَإمَّا لِشَرَفِ مَطْلُوْبِهِ، فَلا يَلْتَفِتُ إلىٰ عَائِقٍ عَنْهُ.

١٢٠٧ ـ وَاعْلَمْ أَنَّ الطَّرِيْقَ المُوْصِلَةَ إلىٰ الحَقِّ سُبْحَانَهُ لَيْسَتْ مِمَّا يُقْطَعُ بِالأَقْدَامِ، وَإنَّمَا يُقْطَعُ بِالقُلُوْبِ، وَالشَّهَوَاتُ العَاجِلَةُ قُطَّاعُ الطَّرِيْقِ، وَالسَّبِيْلُ كَاللَّيْلِ المُدْلَهِمِّ؛ غَيْرَ أَنَّ عَيْنَ المُوَفَّقِ بَصَرُ فَرَسٍ؛ لِأَنَّهُ يَرَىٰ فِي الظُّلْمَةِ كما يَرَىٰ فِي الضَّوْءِ، والصِّدْقُ فِي الطَّلَبِ مَنَارٌ[1]؛ أَيْنَ وُجِدَ يَدُلُّ عَلىٰ الجَادَّةِ. وَإنَّما يَتَعَثَّرُ مَنْ لَمْ يُخْلِصْ، وَإنَّمَا يَمْتَنِعُ الإخلاصُ مِمَّنْ لا يُرادُ. فَلا حوْلَ وَلا قُوَّةَ إلَّا بِاللهِ.

٢٦٣ - فصل: عجبت لمن يُعْجَبُ بصورته وينسى مبدأ أمره

١٢٠٨ ـ عَجِبْتُ لِمَنْ يُعْجَبُ بِصُوْرَتِهِ، وَيَخْتَالُ فِي مَشْيَتِهِ، وَيَنْسَىٰ مبْدَأَ أَمْرِهِ! إنَّمَا **أَوَّلُهُ** لُقْمَةٌ ضُمَّتْ إلَيْهَا جُرْعَةُ مَاءٍ. فَإنْ شِئْتَ؛ فَقُلْ: كُسَيْرَةُ خُبْزٍ، مَعَهَا تَمْرَاتٌ، وَقِطْعَةٌ مِنْ لَحْمٍ، ومِذْقَةٌ[2] مِنْ لَبَنٍ، وَجُرْعَةٌ مِنْ ماءٍ وَنَحْوُ ذٰلِكَ، طَبَخَتْهُ الكَبِدُ، فَأَخْرَجَتْ مِنْهُ قَطَرَاتِ مَنِيٍّ، فَاسْتَقَرَّ فِي الأُنْثَيَيْنِ[3]، فَحَرَّكَتْهَا الشَّهْوَةُ، فَصُبَّتْ، فَبَقِيَتْ فِي بَطْنِ الأُمِّ مُدَّةً حَتَّىٰ تَكَامَلَتْ صُوْرَتُهَا، فَخَرَجَتْ طِفْلًا، يَتَقَلَّبُ فِي خِرَقِ البَوْلِ.

وَأَمَّا **آخِرُهُ**؛ فَإنَّه يُلْقَىٰ فِي التُّرَابِ، فيَأْكُلُهُ الدُّوْدُ، وَيَصِيْرُ رُفَاتًا تَسْفِيْهِ السَّوافِي[4]. وَكَمْ يَخْرُجُ تُرَابُ بَدَنِهِ مِنْ مَكَانٍ إلىٰ مَكَانٍ آخَرَ، ويُقَلَّبُ فِي أَحْوَالٍ، إلىٰ أَنْ يَعُوْدَ فيُجْمَعَ!

هٰذا **خَبَرُ البَدَنِ**. إنَّمَا **الرُّوْحُ** عَلَيْهَا العَمَلُ: فَإنْ تَجَوْهَرَتْ بِالأَدَبِ، وَتَقَوَّمَتْ بِالعِلْمِ، وَعَرفَتِ الصَّانِعَ، وَقَامَتْ بِحَقِّهِ؛ فَمَا يَضُرُّها نَقْضُ المَرْكَبِ. وَإنْ هِيَ بَقِيَتْ عَلىٰ صِفَتِهَا مِنَ الجَهَالَةِ؛ شَابَهَتِ الطِّيْنَ، بَل صَارَتْ إلى أَخَسِّ حَالَةٍ مِنْهُ.

---

(١) في الأصل: أينار.
(٢) جُرعة.
(٣) **الأُنثيين**: الخصيتين.
(٤) **السوافي**: الرياح التي تحمل الرمال وتنثرها.

٢٦٤ - فصل: نصائح لأهل العلم وطلابه

١٢٠٩ ـ هَيْهَاتَ أَنْ يَجْتَمِعَ الهَمُّ مَعَ التَّلَبُّسِ بِأُمُوْرِ الدُّنيا! خُصُوْصًا الشَّابَّ الفَقِيْرَ، الّذِي قَدْ أَلِفَ الفَقْرَ؛ فَإِنَّهُ إِذَا تزَوَّجَ، وَلَيْسَ لَهُ شَيْءٌ مِنَ الدُّنيا؛ اهْتَمَّ بِالكَسْبِ، أَوْ بِالطَّلَبِ مِنَ النَّاسِ، فَتَشَتَّتَتْ هِمَّتُهُ، وَجاءَهُ الأَوْلادُ، فَزَادَ الأَمْرُ عَلَيْهِ، وَلا يَزَالُ يُرَخِّصُ لِنَفْسِهِ فِيْمَا يُحَصِّلُ إِلىٰ أَنْ يَتَلَبَّسَ بِالحَرَامِ.

وَمَنْ يُفَكِّرُ؛ فَهِمَّتُهُ مَا يَأْكُلُ، وَمَا يَأْكُلُهُ أَهْلُهُ، وَمَا تَرْضىٰ بِهِ الزَّوْجَةُ مِنَ النَّفَقَةِ والكِسْوَةِ، وَلَيْسَ لَهُ ذٰلِكَ؛ فَأَيُّ قَلْبٍ يَحْضُرُ لَهُ؟! وَأَيُّ هَمٍّ يَجْتَمِعُ؟!

هَيْهَاتَ! واللهِ؛ لا يَجْتَمِعُ الهَمُّ؛ وَالعَيْنُ تَنْظُرُ إِلىٰ النَّاسِ، وَالسَّمْعُ يَسْمَعُ حَدِيْثَهُمْ، وَاللِّسَانُ يُخَاطِبُهُم، وَالقَلْبُ مُتَوَزِّعٌ فِي تَحْصِيْلِ مَا لَا بُدَّ مِنْهُ.

١٢١٠ ـ **فَإِنْ قَالَ قَائِلٌ**: فَكَيْفَ أَصْنَعُ؟! **قُلْتُ**: إِنْ وَجَدْتَ مَا يَكْفِيْكَ مِنَ الدُّنْيَا، أَوْ مَعِيْشَةً تَكُفُّكَ؛ فَاقْنَعْ بِهَا، وَانْفَرِدْ فِي خَلْوةٍ عَنِ الخَلْقِ مَهْمَا قَدَرْتَ. وَإِنْ تزوَّجْتَ؛ فَبِفَقِيْرةٍ تَقْنَعُ بِاليَسِيْرِ، وَتَصْبِرُ أَنْتَ عَلىٰ صُوْرَتِهَا وَفَقْرِهَا، وَلا تَتْرُكْ نَفْسَكَ تَطْمَحُ إِلىٰ مَنْ تَحْتَاجُ إِلىٰ فَضْلِ نَفَقَتِهِ؛ فَإِنْ رُزِقْتَ امْرَأَةً صَالِحَةً جَمَعَتْ هَمَّكَ؛ [فَذَاكَ]، وَإِنْ لَمْ تَقْدِرْ؛ فَمُعَالَجةُ الصَّبْرِ أَصْلَحُ لَكَ مِنَ المُخَاطَرَةِ. وَإِيَّاك والمُسْتَحْسَنَاتِ؛ فَإِنَّ صَاحِبَهُنَّ ـ إِذا سَلِمَ ـ كَعَابِدِ صَنَمٍ. وَإِذا حَصَلَ بِيَدِكَ شَيْءٌ؛ فَأَنْفِقْ بَعْضَهُ؛ فَبِحِفْظِ البَاقِي تَحْفَظُ شَتَاتَ قَلْبِكَ.

١٢١١ ـ وَاحْذَرْ كُلَّ الحَذَرِ مِنْ هٰذَا الزَّمَانِ وَأَهْلِهِ؛ فَمَا بَقِيَ مُوَاسٍ، وَلا مُؤْثِرٍ، ولا مَنْ يَهْتَمُّ لِسَدِّ خَلَّةٍ[1] ولا مَنْ لَوْ سُئِلَ أَعْطَىٰ؛ إِلَّا أَنْ يُعْطِيَ نَزْرًا بِتَضَجُّرٍ ومِنَّةٍ، يَسْتَعْبِدُ بِهَا المُعْطَىٰ بَقِيَّةَ العُمُرِ، وَيَسْتَثْقِلُهُ كُلَّمَا رَآهُ، أَوَ يَسْتَدْعِي بِهَا خِدْمَتَهُ لَهُ، والتَّرَدُّدَ إِلَيْهِ.

١٢١٢ ـ وَإِنَّمَا كَانَ فِي الزَّمَانِ المَاضِي مِثْلُ **أَبِي عَمْرِو بْنِ نُجَيْدٍ**[2]، سَمِعَ أبا

---

(١) **الخلة**: الحاجة.

(٢) إسماعيل بن نجيد بن أحمد السلمي النيسابوري: أحد العباد الزهاد ومسند خراسان (٢٧٢ ـ ٣٦٥هـ).

عثمانَ الحيريَّ[1] يَقُوْلُ يَوْمًا عَلىٰ المِنْبَرِ: عَليَّ أَلْفُ دِيْنَارٍ، وَقَدْ ضَاقَ صَدْرِي. فَمَضَىٰ أَبُوْ عَمْرٍو إِلَيْهِ فِي اللَّيْلِ بِأَلْفِ دِيْنَارٍ، وَقَالَ: اقْضِ دَيْنَكَ! فَلَمَّا عَادَ وَصَعِدَ المِنْبَرَ؛ قَالَ: نَشْكُرُ اللهَ لِأَبي عَمْرٍو؛ فَإِنَّهُ أَرَاحَ قَلْبِي، وقَضَىٰ دَيْني. فَقَامَ أَبُوْ عَمْرٍو **فَقَالَ**: أَيُّهَا الشَّيْخُ! ذٰلِكَ المَالُ كَان لِوالِدَتِي، وَقَدْ شَقَّ عَلَيْهَا مَا فَعَلْتُ؛ فَإِنْ رَأَيْتَ أَنْ تَتَقَدَّمَ بِردِّهِ؛ فَأَفْعَلْ. فَلَمَّا كَانَ فِي اللَّيْلِ عَادَ إِلَيْهِ، **وَقَالَ لَهُ**: لِمَاذا شَهَرْتَنِي بَيْنَ النَّاسِ؟! فَأَنَا مَا فَعَلْتُ ذٰلِكَ لِأَجْلِ الخَلْقِ؛ فَخُذْهُ ولا تَذْكُرْنِي!

مَاتُوْا وَغُيِّبَ فِي التُّرَابِ شُخُوْصُهُم وَالنَّشْرُ مِسْكٌ، والعِظَامُ رَمِيْمُ[2]

١٢١٣ ـ فَالبُعْدَ البُعْدَ عَمَّنْ هِمَّتُهُ الدُّنْيَا؛ فَإِنَّ زَادَهُمُ اليَوْمَ إِلىٰ أَنْ يَحْصُلَ أَقْرَبُ مِنْهُ إِلىٰ أَنْ يُؤْثَرَ. وَلا تَكَادُ تَرَىٰ إِلَّا عَدُوًّا فِي البَاطِنِ، صَدِيْقًا فِي الظَّاهِرِ، شَامِتًا علىٰ الضُّرِّ، حَسُوْدًا عَلىٰ النِّعْمَةِ.

فَاشْتَرِ العُزْلَةَ بِمَا بِيْعَتْ؛ فَإِنَّ مَنْ لَهُ قَلْبٌ إِذا مَشَىٰ فِي الأَسْوَاقِ، وَعَادَ إِلىٰ مَنْزِلِهِ؛ تَغَيَّرَ قَلْبُهُ؛ فَكَيْفَ إِنْ عَرْقَلَهُ بِالمَيْلِ إِلىٰ أَسْبَابِ الدُّنْيَا؟!

وَاجْتَهِدْ فِي جَمْعِ الهَمِّ بِالبُعْدِ عَنِ الخَلْقِ؛ لِيَخْلُوَ القَلْبُ بِالتَّفَكُّرِ في المَآبِ، وَتَتَلَمَّحَ عَيْنُ البَصِيْرَةِ خِيَمَ الرَّحِيْلِ!

٢٦٥ - فصل: زيارة المقابر ومفاوضة الكتب

١٢١٤ ـ كَانَ المُرِيْدُ فِي بِدَايَةِ الزَّمَانِ إِذَا أَظْلَمَ قَلْبُهُ أَوْ مَرِضَ لُبُّهُ؛ قَصَدَ زِيَارَةَ بَعْضِ الصَّالِحِيْنَ، فَانْجَلَىٰ مَا أَظْلَمَ. وَ[اليَوْمَ]؛ مَتَىٰ حَصَلَتْ ذَرَّةٌ مِنَ الصِّدْقِ لِمُرِيْدٍ، فَرَدَّتْهُ فِي بَيْتِ عُزْلَةٍ، وَوَجَدَ نَسِيْمًا مِنْ رَوْحِ العَافِيَةِ، وَنُوْرًا فِي بَاطِنِ قَلْبِهِ، وَكَادَ هَمُّهُ يَجْتَمِعُ وَشَتَاتُهُ يَنْتَظِمُ، فَخَرَجَ، فَلَقِيَ مَنْ يُومَأُ إِلَيْهِ بِعِلْمٍ أَوْ زُهْدٍ؛ رَأَىٰ عِنْدَهُ البَطَّالِيْنَ، يَجْرِي مَعَهُم فِي مَسْلَكِ الهَذَيَانِ، الَّذِي لا يَنْفَعُ، وَرَأَىٰ صُوْرَتَهُ صُوْرَةَ مُنَمِّسٍ[3]،

---

(١) سعيد بن إسماعيل الحيري النيسابوري الصوفي أبو عثمان (٢٣٠ ـ ٢٩٨هـ): كان مجمع العباد والزهاد، ولم يزل يسمع ويجل العلماء ويعظهم، وهو للخراسانيين كالجنيد للعراقيين، وقد وقع في الأصل: (المغربي) وهو تصحيف.

(٢) **النشر**: الرائحة الزكية.

(٣) **المنمّس**: المحتال المخادع.

وَأَهْوَنُ مَا عَلَيْهِ تَضْيِيْعُ الأَوْقَاتِ فِي الحَدِيْثِ الفَارِغِ؛ فَمَا يَرْجِعُ المُرِيْدُ عَنْ ذٰلِكَ الوَطَنِ؛ إِلَّا وَقَدِ اكْتَسَبَ ظُلْمَةً فِي القَلْبِ، وشَتاتًا فِي العَزْمِ، وغَفْلَةً عَنْ ذِكْرِ الآخِرَةِ، فَيَعُوْدُ مَرِيْضَ القَلْبِ، يُتْعَبُ فِي مُعَالَجَتِهِ أَيَّامًا كَثِيْرَةً، حَتَّى يَعُوْدَ إِلىٰ مَا كَانَ فِيْهِ، وَرُبَّما لَمْ يَعُدْ؛ لِأَنَّ المُرِيْدَ فِيْهِ ضَعْفٌ؛ فَإِذا رَأَىٰ شَيْخًا قَدْ جَرَّبَ وعَرَفَ، ثُمَّ يُؤْثِرُ البَطَالَةَ؛ لَمْ يَأْمَنْ أَنْ يَتْبَعَه الطَّبْعُ.

١٢١٥ ـ فَالأَوْلَى لِلْمُرِيْدِ اليَوْمَ أَلَّا يَزُوْرَ إِلَّا المَقَابِرَ، ولا يُفَاوِضَ إِلَّا الكُتُبَ، الَّتِي قَدْ حَوَتْ مَحَاسِنَ القَوْمِ، وَلْيَسْتَعِنْ بِاللهِ تَعَالىٰ عَلىٰ التَوْفِيْقِ لِمَراضِيْهِ؛ فَإِنَّهُ إِنْ أَرَادَهُ؛ هَيَّأَهُ لِمَا يُرْضِيْهِ.

٢٦٦ - فصل: صفات أولياء الله

١٢١٦ ـ **تَأَمَّلْتُ** الَّذِيْنَ يَخْتَارُهُمُ الحَقُّ ﷻ لِوِلايَتِهِ وَالقُرْبِ مِنْهُ ـ فَقَدْ سَمِعْنا أَوْصَافَهُم، وَمَنْ نَظُنُّهُ مِنْهُم مِمَّنْ رَأَيْناهُ ـ، فَوَجَدْتُه سُبْحَانَهُ لا يَخْتَارُ إِلَّا شَخْصًا كَامِلَ الصُّوْرَةِ؛ لا عَيْبَ فِي صُوْرَتِهِ، وَلا نَقْصَ فِي خِلْقَتِهِ، فَتَرَاهُ حَسَنَ الوَجْهِ، مُعْتَدِلَ القَامَةِ، سَلِيْمًا مِنْ آفَةٍ فِي بَدَنِهِ، ثُمَّ يَكُوْنُ كامِلًا فِي بَاطِنِهِ، سَخِيًّا، جَوَادًا، عَاقِلًا، غَيْرَ خِبٍّ[1]، وَلَا خَادِعٍ، وَلَا حَقُوْدٍ، وَلَا حَسُوْدٍ، وَلا فِيْهِ عَيْبٌ مِنْ عُيُوْبِ البَاطِنِ؛ فَذَاكَ الَّذِي يُرَبِّيهِ مِنْ صِغَرِهِ.

فَتَرَاهُ فِي الطُّفُوْلَةِ مُعْتَزِلًا عَنِ الصِّبْيَانِ، كَأَنَّهُ فِي الصِّبَا شَيْخٌ، يَنْبو[2] عَنِ الرَّذَائِلِ، وَيَفْزَعُ مِنَ النَّقَائِصِ. ثُمّ لا تَزَالُ شَجَرَةُ هِمَّتِهِ تَنْمُو، حَتّى يَرَىٰ ثَمَرَها مُتَهَدِّلًا عَلىٰ أَغْصَانِ الشَّبَابِ؛ فَهُوَ حَرِيْصٌ عَلىٰ العِلْمِ، مُنكَمِشٌ عَلىٰ العَمَلِ، مُحَافِظٌ للزَّمَانِ، مُرَاعٍ لِلأَوْقَاتِ، سَاعٍ فِي طَلَبِ الفَضَائِلِ، خَائِفٌ مِنَ النَّقَائِصِ.

وَلَوْ رَأَيْتَ التَّوْفِيْقَ وَالإِلْهَامَ الرَّبَّانِيَّ كَيْفَ يَأْخُذُ بِيَدِهِ إِنْ عَثَرَ، وَيَمْنَعُهُ مِنَ الخَطَإِ إِنْ هَمَّ، وَيَسْتَخْدِمُهُ فِي الفَضَائِلِ، وَيَسْتُرُ عَمَلَهُ عَنْهُ حَتَّىٰ لا يَرَاهُ مِنْهُ[3].

---

(١) **خِب**: مخادع.

(٢) **ينبو**: يتجافى.

(٣) يعني المؤلفُ نفسَه في هذه الخاطرة.

١٢١٧ - ثُمَّ يَنْقَسِمُ هٰؤلاءِ؛ **فَمِنْهُم** مَنْ تَفَقَّهَ عَلىٰ قَدَمِ الزُّهْدِ والتَّعَبُّدِ، **وَمِنْهُم** مَنْ تَفَقَّهَ عَلىٰ العِلْمِ وَاتِّبَاعِ السُّنَّةِ.

وَيَنْدُرُ مِنْهُم مَنْ يَجْمَعُ [اللهُ] لَهُ الكُلَّ، وَيُرَقِّيهِ إِلىٰ مُزَاحَمَةِ الكَامِلِيْنَ.

١٢١٨ - وَعَلَامَةُ إِثْبَاتِ الكَمَالِ فِي العِلْمِ والعَمَلِ الإِقْبَالُ بِالكُلِّيَّةِ عَلىٰ مُعَامَلَةِ الحَقِّ وَمَحَبَّتِهِ، وَاسْتِيْعَابُ الفَضَائِلِ كُلِّهَا، [وَسَناءُ الهِمَّةِ فِي نُشْدَانِ الكَمَالِ المُمْكِنِ]؛ فَلَوْ تُصُوِّرَتِ النُّبُوَّةُ أَنْ تُكْتَسَبَ؛ لَدَخَلَتْ فِي كَسْبِهِ.

وَمَرَاتِبُ هٰذَا لا يَحْتَمِلُهَا الوَصْفُ؛ لِكَوْنِهِ دُرَّةَ الوُجُوْدِ، الّتِي لا تَكَادُ تَنْعَقِدُ فِي الصَّدَفِ إِلَّا فِي كُلِّ ودودٍ. نَسْأَلُ اللهَ ﷻ تَوْفِيْقَنا لِمَرَاضِيْهِ وَقُرْبِه، وَنَعُوْذُ بِهِ مِنْ طَرْدِهِ وَإِبْعَادِهِ.

٢٦٧ - فصل: يبذلون العرض دون الغرض

١٢١٩ - أَكْثَرُ الخَلَائِقِ عَلىٰ طَبْعٍ رَدِيْءٍ، لا تُقَوِّمُهُ الرِّيَاضَةُ؛ لا يَدْرُوْن لِمَ خُلِقُوا؟! وَلا مَا المُرَادُ مِنْهُم؟! وَغَايَةُ هِمَّتِهِم حُصُوْلُ بُغْيَتِهِمْ مِنْ أَغْرَاضِهِم! وَلا يَسْأَلُوْنَ عَنْدَ نَيْلِها مَا اجْتَلَبَتْ لَهُمْ مِنْ ذَمٍّ! يَبْذُلُوْنَ العِرْضَ دُوْنَ الغَرَضِ، وَيُؤْثِرُوْنَ لَذَّةَ سَاعَةٍ؛ وَإِنِ اجْتَلَبَتْ زَمَانَ مَرَضٍ! يَلْبَسُوْنَ عِنْدَ **التِّجَارَاتِ** ثِيَابَ مُحْتَالٍ فِي شِعَارِ مُخْتَالٍ، وَيُلَبِّسُوْنَ فِي **المُعَامَلاتِ** وَيَسْتُرُوْنَ الحَالَ! إِنْ كَسَبُوْا؛ فَشُبْهَةٌ، وَإِنْ أَكَلُوْا؛ فَشَهْوَةٌ! يَنَامُوْنَ اللَّيْلَ، وَإِنْ كانُوْا نِيَامًا بِالنَّهَارِ فِي المَعْنَى، وَلا نَوْمَ بِهٰذِهِ الصُّوْرَةِ! فَإِذَا أَصْبَحُوا؛ سَعَوْا فِي تَحْصِيْلِ شَهَوَاتِهِم؛ بِحِرْصِ خِنْزِيْرٍ، وتَبَصْبُصِ[1] كَلْبٍ، وَافْتِرَاسِ أَسَدٍ، وغَارَةِ ذِئْبٍ، ورَوَغَانِ[2] ثَعْلَبٍ! وَيَتَأَسَّفُوْنَ عِنْدَ المَوْتِ عَلىٰ فَقْدِ الهَوَىٰ لا عَلىٰ عَدَمِ التَّقْوَىٰ! ﴿ذَٰلِكَ مَبْلَغُهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ﴾ [النجم: ٣٠]!!

كَيْفَ يُفْلِحُ مَنْ يُؤْثِرُ مَا يَرَاهُ بِعَيْنِهِ عَلىٰ مَا يُبْصِرُهُ بِعَقْلِهِ، وَمَا يُدْرِكُهُ بِبَصَرِهِ أَعَزُّ عِنْدَه مِمّا يَرَاهُ بِبَصِيْرَتِهِ؟!

تَاللهِ؛ لَوْ فَتَحُوْا أَسْمَاعَهُم؛ لَسَمِعُوْا هَاتِفَ الرَّحِيْلِ فِي زَمَانِ الإِقَامَةِ يَصِيْحُ فِي

---

(١) **بصبص الكلب**: هزّ ذنبه تملقًا.

(٢) احتياله وخداعه.

عَرَصَاتِ الدُّنْيَا: تَلَمَّحُوا تَقْوِيْضَ خِيَامِ الأَوَائِلِ! لٰكِنْ غَمَرَهُمْ سُكْرُ الجَهَالَةِ، فَلَمْ يُفِيقُوْا إِلَّا بِضَرْبِ الحَدِّ.

٢٦٨ - فصل: الإنفاق في بناء المساجد والأربطة

١٢٢٠ - رَأَيْتُ بَعْضَ المُتَقَدِّمِيْنَ سُئِلَ عَمَّنْ يَكْتَسِبُ حَلَالًا وحَرَامًا مِنَ السَّلاطِيْنِ والأُمَرَاءِ، ثُمَّ يَبْنِي المَسَاجِدَ والأَرْبِطَةَ: هلْ لَهُ فِيْهَا ثَوَابٌ؟

فَأَفْتَى بِمَا يُوْجِبُ طِيْبَ قَلْبِ المُنْفِقِ، وَأَنَّ لَهُ فِي إِنْفَاقِ مَا لَا يَمْلِكُهُ نَوْعَ سَمْسَرةٍ؛ لِأَنَّهُ لا يَعْرِفُ أَعْيَانَ المَغْصُوْبِيْنَ فَيَرُدُّهَا عَلَيْهِم! **فَقُلتُ**: وَا عَجبًا مِنَ المُتَصَدِّيْنَ لِلْفَتْوَىٰ الَّذِيْنَ لا يَعْرِفونَ أُصُوْلَ الشَّرِيْعَةِ!!

يَنْبَغِي أَنْ يُنْظَرَ فِي حَالِ هٰذَا المُنْفِقِ أَوْلًا: فإِنْ كَانَ **سُلْطَانًا**؛ فَمَا يَخْرُجُ مِنْ بَيْتِ المَالِ قَدْ عُرِفَتْ وُجُوْهُ مَصَارِفِهِ؛ فَكَيْفَ يَمْنَعُ مُسْتَحقَّهُ، ويُشْغِلُهُ بِمَا لا يُفِيْدُ مِنْ بِنَاءِ مَدْرَسَةٍ وَرِبَاطٍ؟!

وَإِنْ كَانَ المُنْفِقُ مِنَ **الأُمَرَاءِ وَنُوَّابِ السَّلاطِيْنِ**؛ فَإِنَّهُ يَجِبُ أَنْ يَرُدَّ مَا يَجِبُ رَدُّهُ إِلَىٰ بَيْتِ المَالِ، وَلَيْسَ لَهُ فِيْهِ إِلَّا مَا فُرِضَ مِنْ إِيْجَابٍ يَلِيْقُ بِهِ. فَإِنْ تَصَرَّفَ فِي غَيْرِ ذٰلِكَ؛ كَانَ مَصْرُوْفًا فِيْمَا لَيْسَ لَهُ، وَلَوْ أُذِنَ لَهُ مَا كَانَ الإِذنُ جَائِزًا، وإِنْ كانَ قَدْ أُقْطِعَ مَا لا يُقَاوِمُ عَمَلَهُ[1]؛ كَانَ مَا يَأْخُذُهُ فاضِلًا مِنْ أَمْوَالِ المُسْلِمِيْنَ، لا حَقَّ لَهُ فِيْهِ، وَعَلَىٰ مَنْ أَطْلَقَهُ فِي ذٰلِكَ إِثْمٌ أيضًا. هٰذَا إِذا سَلِمَ المَالُ، وكَانَ مِنْ حِلِّه.

فَأَمَّا إِذَا كَانَ حَرَامًا أَوْ غَصْبًا؛ فَكُلُّ تَصَرُّفٍ فِيْهِ حَرَامٌ، والوَاجِبُ رَدُّهُ عَلَىٰ مَنْ أُخِذ مِنْهُ، أَوْ عَلَىٰ وَرَثَتِهِم؛ فإِنْ لَمْ يُعْرَفْ طَرِيْقُ الرَّدِّ؛ كَانَ فِي بَيْتِ مَالِ المُسْلِمِيْنَ؛ **يُصْرَفُ فِي مَصَالِحِهِم، أَوْ يُصْرفُ فِي الصَّدَقَةِ**، ولَمْ يَحْظَ آخذُهُ بِغَيْرِ الإِثْمِ[2].

---

(١) ما لا يستطيع رده.

(٢) نقل النوويُّ (المجموع ٩/ ٣١٥) عن الغزاليِّ (الإحياء ٢/ ١١٥): «أنّ مَنْ كانَ مَعَهُ مالٌ حرام، وأرادَ التوبةَ والبراءةَ منه، فإنْ كانَ له (أي للمال) مالكٌ معيَّنٌ (أي معروف) وجبَ صرفُه إليه أو إلى وكيله، فإنْ كان ميتًا وجبَ دفعُه إلى وارثِهِ. وإنْ كان لمالكٍ لا يعرفُه، ويئسَ مِنْ معرفتِه، فينبغي أن يصرِفَه في مصالحِ المسلمينِ العامة، وإلا **فليتصدَّقْ به على الفقراء**». =

١٢٢١ ـ أَنْبَأَنَا أَحْمَدُ بْنُ الحَسَنِ بْنِ البَنَّا؛ قَالَ: أَخْبَرَنا مُحَمَّدُ بْنُ عَلِيٍّ الزَّجَّاجِيُّ؛ قَالَ: أَخْبَرَنَا عَبْدُ اللهِ بْنُ مُحَمَّدٍ الأَسدِيُّ؛ قَالَ: أَخْبَرَنَا عَلِيُّ بْنُ الحسَنِ؛ قَالَ: حَدَّثَنا أَبُوْ دَاودَ[١]؛ قَالَ: حَدَّثنا مُحَمَّدُ بْنُ عَوْفٍ[٢] الطَّائِيُّ؛ قَالَ: حَدَّثَنا أَبُوْ المُغِيْرةِ؛ قَالَ: حَدَّثَنا الأَوْزَاعِيُّ[٣]؛ قَالَ: حَدَّثَنِي مُوْسَى بْنُ سُلَيْمَانَ؛ قَالَ: سَمِعْتُ القَاسِمَ بْنَ مُخَيْمِرَةَ يَقُوْلُ: قَالَ رَسُوْلُ اللهِ ﷺ: «مَنِ اكْتَسَبَ مَالًا مِنْ مَأثَمٍ، فَوَصَلَ [به] رَحِمًا، **أَوْ تَصَدَّقَ بِهِ، أَوْ أَنْفَقَهُ فِي سَبِيْلِ اللهِ؛ جُمِعَ ذٰلِك جَمْعًا، فَقُذِفَ بِهِ فِي جَهَنَّمَ**».

١٢٢٢ ـ فَأَمَّا إِذا كَانَ البَانِي تَاجِرًا مُكْتَسِبًا لِلْحَلَالِ، فَبَنَىٰ مَسْجِدًا، أَوْ وَقَفَ وَقْفًا لِلْمُتَفَقِّهَةِ؛ فَهٰذَا مِمَّا يُثَابُ عَلَيْهِ. وَيَبْعُدُ مَنْ يَكْتَسِبُ الحَلَالَ حتَّى يَفْضُلَ عَنْهُ هٰذَا المِقْدَارُ، أَوْ يُخْرِجُ الزَّكاةَ مُسْتَقْصَاةً، ثمَّ يَطِيْبُ قَلْبُهُ بِمِثْلِ هٰذا البِنَاءِ والنَّفَقَةِ؛ **إِذْ مِثْلُ هٰذَا البُنْيانِ لا يَجُوْزُ أَنْ يَكُوْنَ مِن زكاةٍ**. وَأَيْن سَلَامةُ النيَّةِ، وخُلُوْصُ المَقْصِدِ؟!

١٢٢٣ ـ ثُم إِنَّ بِنَاءَ **المَدَارِسِ** اليَوْمَ مُخَاطَرَةٌ[٤]؛ إِذْ قَدِ انْعَكَفَ أَكْثَرُ المُتَفَقِّهَةِ

= ثم قال (أي النوويّ): «وهذا الذي ذكره الغزاليُّ ذكره آخرون من الأصحاب، وهو كما قالوه، وهذا الرأيُ في ردِّ المالِ الحرامِ والتخلُّصِ منه هو مذهبُ أبي حنيفة ومالك وأحمد وغيرِهم من السّلف والخلفِ».

وقال الغزاليُّ في (الإحياء) (٢/١١٨): «ويدخلُ في المالِ الحرامِ المَحْضِ: كلُّ ما اكتسبَه الإنسانُ بسببٍ محظورٍ شرعًا: كالسرقةِ، والغصبِ، والاختلاسِ، والرِّشوةِ، والرِّبا، والعقودِ الفاسدةِ».

وقال الغزالي أيضًا (الإحياء ٢/١١٨):

«مَنْ في يدِهِ مالٌ حرامٌ مَحْضٌ يجبُ عليه إخراجُ الكلِّ، إمَّا ردًّا على المالكِ إنْ عرفَه، أو صرفًا إلى الفقراءِ إن لم يُعْرَفِ المالكُ».

(١) رواه أبو داود في المراسيل (١٣١) وله شاهد عند أحمد (١/٣٨٧) وآخر عند ابن حبان. والزيادة من كتاب المراسيل.

(٢) في الأصل (عون) والتصويب من مراسيل أبي داود.

(٣) عبد الرحمٰن بن عمرو بن يحمد الأوزاعي، أبو عمرو (٨٨ ـ ١٥٧هـ) إمام أهل الشام في زمانه علمًا وفقهًا وزهدًا وورعًا.

(٤) كان هذا في عصر المؤلف، أما في عصرنا فهو من أعظم المبرّات بعد أن خلت المساجد من حلقات العلم.

إلىٰ عِلْمِ الجَدَلِ[1]، وَأَعْرَضُوْا عَنْ عُلُوْمِ الشَّرِيْعَةِ، وَتَرَكُوْا التَرَدُّدَ إلىٰ المَسَاجِدِ، وقنِعُوْا بِالمَدَارِسِ وَالأَلْقَابِ.

١٢٢٤ - وَأمّا **بِناءُ الأَرْبِطَةِ**؛ فَلَيْسَ بِشَيْءٍ أَصْلًا؛ لِأَنَّ جُمْهُوْرَ **المُتصَوِّفةِ** جُلُوْسٌ عَلىٰ بِسَاطِ الجَهْلِ وَالكَسَلِ، ثُمَّ يَدَّعِي مُدَّعِيْهِم المَحَبَّةَ وَالقُرْبَ، وَيَكْرَهُ التَّشَاغُلَ بِالعِلْمِ، وَقَدْ تَرَكُوْا سِيْرَةَ سَرِيٍّ، وعَادَاتِ الجُنَيْدِ، وَاْقْتَنَعُوْا بِأَدَاءِ الفَرَائِضِ، وَرَضُوْا بِالمُرَقَّعَاتِ؛ فَلَا تَحْسُنُ إِعَانَتُهُم عَلىٰ بَطَالَتِهِم وَرَاحَتِهِم، وَلا ثَوَاب فِي ذٰلِكَ.

٢٦٩ - فصل: الرياء يضيع العمل

١٢٢٥ - عَجِبْتُ لِمَنْ يَتَصَنَّعُ لِلنَّاسِ بِالزُّهْدِ، يَرْجُوْ بِذٰلِكَ قُرْبَهُ مِنْ قُلُوبِهِم، وَيَنْسَىٰ أَنَّ قُلُوْبَهُم بِيَدِ مَنْ يَعْمَلُ لَهُ؛ فَإِنْ رَضِيَ عَمَلَهُ، وَرَآهُ خَالِصًا؛ لَفَتَ القُلُوْبَ إِلَيْهِ، وَإِنْ لَمْ يَرَهُ خَالِصًا؛ أَعْرَضَ بِهَا عَنْهُ.

وَمَتى نَظَرَ العامِلُ إِلىٰ ٱلتِفَاتِ القُلُوْبِ إِلَيْهِ؛ فَقَدْ زَاحَم الشِّرْكَ[2]؛ لِأَنَّهُ يَنْبَغِي أَنْ يَقْنَعَ بِنَظَرِ مَنْ يَعْمَلُ لَهُ.

وَمِنْ **ضَرُوْرَةِ الإِخْلَاصِ** [أَلّا يَقْصِدَ] الْتِفَاتَ القُلُوْبِ إِلَيْهِ؛ فَذَاكَ يَحْصُلُ لا بِقَصْدِهِ، بَلْ بِكَرَاهَتِهِ لِذٰلِكَ.

١٢٢٦ - وَلْيَعْلَمِ الإِنْسَانُ أَنَّ أَعْمَالَهُ كُلَّهَا يَعْلَمُهَا الخَلْقُ جُمْلةً، وَإِنْ لَمْ يَطَّلِعُوا عَلَيْهَا؛ فَالقُلُوْبُ تَشْهَدُ للصَّالِحِ بِالصَّلَاحِ، وَإِنْ لَمْ يُشَاهَدْ مِنْهُ ذٰلِكَ.

١٢٢٧ - فَأَمّا مَنْ يَقْصِدُ رُؤْيَةَ الخَلْقِ بِعَمَلِهِ؛ فَقَدْ مَضىٰ العَمَلُ ضَائِعًا؛ لِأَنَّهُ غَيْرُ مَقْبُوْلٍ عَنْدَ الخَالِقِ، وَلا عَنْدَ الخَلْقِ؛ لِأَنَّ قُلُوْبَهُم قَدْ التَفَتَتْ عَنْهُ؛ فَقَدْ ضَاعَ العِلْمُ، وَذَهَبَ العُمُرُ!

١٢٢٨ - وَلَقَدْ أَخْبَرَنا ابْنُ الحُصَيْنِ؛ قَالَ: أَخْبَرَنا ابْنُ المذهب؛ قَالَ: أَخْبَرَنَا أَحْمَدُ بْنُ جَعْفَرٍ؛ قَالَ: حَدَّثَنا عَبْدُ اللهِ بْنُ أَحْمَدَ؛ قَالَ: حَدَّثَنِي أَبِي؛ قَالَ: حَدَّثَنا

---

(١) **علم الجدل**: هو علم المناظرة الفقهية والأصولية.

(٢) **زاحم الشرك**: قاربه، وكاد يقع فيه.

حَسَنُ بْنُ مُوْسَىٰ؛ قَالَ: حَدَّثَنَا ابْنُ لَهِيْعَة[1]؛ قَالَ: حَدَّثَنا دَرَّاجٌ، عَنْ أَبِي الهَيْثَم، عَنْ أَبِي سَعِيْدٍ الخُدْرِيِّ، عَنْ رَسُوْلِ اللهِ ﷺ: أَنَّهُ قَالَ: «**لَوْ أَنَّ أَحَدَكُم يَعْمَلُ فِي صَخْرَةٍ صَمَّاءَ، لَيْسَ لَهَا بَابٌ وَلا كُوَّةٌ؛ لَخَرَجَ عَمَلُهُ لِلنَّاسِ، كائِنًا مَا كَانَ**»[2].

فَلْيَتَّقِ اللهَ العَبْدُ، وَيَقْصِدْ مَنْ يَنْفَعُهُ قَصْدُهُ، وَلَا يَتَشَاغَلْ بِمَدْحِ من عَنْ قَلِيْلٍ يَبْلَىٰ هُوَ وَهُمْ.

٢٧٠ - فصل: متى وقع الترخص حمل إلى غيره

١٢٢٩ ـ قَدِمَ عَلَيْنَا بَعْضُ فُقَهَاءَ مِنْ بِلادِ الأَعَاجِم، وَكَانَ قَاضِيًا بِبَلَدِهِ، فَرَأَيْتُ عَلَىٰ دَابَّتِهِ الذَّهَبَ، وَمَعَهُ أَتْوارُ[3] الفِضَّةِ، وَأَشْيَاءُ كَثِيْرَةٌ مِنَ المُحَرَّمَاتِ، **فَقُلْتُ**: أَيَّ شَيْءٍ أَفَادَ هٰذا العِلْمُ؟! بَلَىٰ وَاللهِ؛ قَدْ كَثُرَتْ عَلَيْهِ الحُجَجُ.

وَأَكْبَرُ الأَسْبَابِ قِلَّةُ عِلْمِ هٰؤلاءِ بِسِيْرَةِ السَّلَفِ، وَمَا كَانَ عَلَيْهِ رَسُوْلُ اللهِ ﷺ! لا أَنَّهُم يَجْهَلُوْنَ الجُمْلَةَ، وَلكنّهم يَتَشَاغَلُوْنَ بِعِلْمِ الخِلَافِ، وَيَقْصِدُوْنَ التَّقَدُّمَ [بِقُشُورِ المَعْرِفَةِ]، وَلَيْسَ[4] يَعْنيهِم[5] سَمَاعُ حَدِيْثٍ، وَلا نظَرٌ فِي سِيَرِ السَّلَفِ. وَيُخَالِطُوْنَ السَّلاطِيْنَ، فَيَحْتَاجُوْنَ إِلَىٰ التَّزَيِّي بِزِيِّهِم، وَرُبَّمَا خَطَرَ لَهُمْ أَنَّ هٰذا قَرِيْبٌ، وَإِنْ لَمْ يَخْطُرْ لَهُم؛ فَالْهَوَى غَالِبٌ بلا صَادٍّ. وَرُبَّمَا خَطَرَ لَهُمْ أَنْ [يَقُوْلُوْا]: هٰذَا يُحْتَمَلُ ويُغْفَرُ فِي جَانِبِ تَشَاغُلِنَا بِالعِلْمِ، ثُمَّ يَرَوْنَ العُلَمَاءَ يُكْرِمُوْنَهُم لِنَيْلِ شَيْءٍ مِنْ دُنْيَاهُمْ، وَلا يُنْكِرُوْنَ عَلَيْهِم.

١٢٣٠ ـ وَلَقَدْ رَأَيْتُ مِنَ الَّذِيْنَ يَنْتَسِبُوْنَ إِلَىٰ العِلْمِ مَنْ يَسْتَصْحِبُ المُرْدَانَ، وَيَشْتَرِي المَمَالِيْكَ، وَمَا كَانَ يَفْعَلُ هٰذَا إِلَّا مَنْ قَدْ يَئِسَ مِنَ الآخِرَةِ. وَرَأَيْتُ مَنْ قَدْ

---

(١) عبد الله بن لهيعة الحضرمي الأعدولي عالم الديار المصرية (٩٦ ـ ١٧٤هـ)، أحد بحور العلم على لين في حديثه، ورواية العبادلة عنه صحيحة.

(٢) رواه أحمد (٣/ ٢٨)، وابن حبان (٥٦٦٨)، والحاكم (٤/ ٣١٤) عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه من رواية دراج عن أبي الهيثم وهي ضعيفة. **والزيادة من المسند.**

(٣) **جمع تور**: وهو إناء للشرب.

(٤) في الأصل: ولا.

(٥) في الأصل: قصدهم.

بَلَغَ الثَّمَانِيْنَ مِنَ العُلَمَاءِ وهُوَ عَلىٰ هٰذِهِ الحَالَةِ. فَاللهَ اللهَ يا مَنْ يُرِيْدُ حِفْظَ دِيْنِهِ، ويُوْقِنُ بالآخِرَةِ!

١٢٣١ ـ إِيّاكَ والتَّأْوِيْلاتِ الفاسِدَةَ، وَالأَهْوَاءَ الغَالِبَةَ؛ فَإِنَّكَ إِنْ تَرَخَّصْتَ بِالدُّخُوْلِ فِي بَعْضِهَا؛ جَرَّكَ الأَمْرُ إِلىٰ البَاقِي، وَلَمْ تَقْدِرْ عَلىٰ الخُرُوْجِ لِمَوْضِعِ إِلْفِ الهَوَى فَاقْبَلْ نُصْحِي، وَاقْنَعْ بِالكِسْرَةِ، وَابعُدْ عَنْ أَرْبَابِ الدُّنْيا؛ فَإِذَا ضَجَّ الهَوَىٰ؛ فَدَعْهُ لِهٰذَا. **وَرُبَّمَا قَالَ لَكَ**: فَالأَمْرُ الفُلَانِيُّ قَرِيْبٌ! فَلَا تَفْعَلْ؛ فَإِنَّهُ ـ ولوْ كَانَ قرِيْبًا ـ يَدْعُوْ إِلىٰ غَيْرِهِ، ويَصْعُبُ التَّلافِي.

فَالصَّبْرَ الصَّبْرَ عَلىٰ شَظَفِ العَيْشِ! والبُعْدَ [البعدَ] عَنْ أَرْبَابِ الهَوَىٰ! فَمَا يَتِمُّ دِيْنٌ إِلَّا بِذٰلِكَ، وَمَتَىٰ وَقَعَ التَّرخُّصُ؛ حَمَلَ إِلىٰ غَيْرِه؛ كالشَّاطِئِ إِلىٰ اللُّجَّة[1]. وَإِنَّما هُوَ طَعَامٌ دُوْنَ طَعَامٍ، وَلِبَاسٌ دُوْنَ لِبَاسٍ، وَوجْهٌ أَصْبَحُ مِنْ وَجْهٍ. وَإِنّما هِيَ أَيَّامٌ يَسِيْرَةٌ.

٢٧١ - فصل: حكمة الخالق وراء العقول

١٢٣٢ ـ مَنْ تَفَكَّر فِي عَظَمَةِ اللهِ ﷻ؛ طَاشَ عَقْلُهُ؛ لِأَنَّهُ يَحْتَاجُ أَنْ يُثْبِتَ مَوْجُوْدًا لَا أَوَّلَ لِوُجُوْدِهِ، وَهذَا شَيْءٌ لا يَعْرِفُهُ الحِسُّ، وَإِنَّمَا يُقِرُّ بِهِ العَقْلُ ضَرُوْرَةً؛ وَهُوَ مُتَحَيِّرٌ بَعْدَ هٰذَا الإِقْرَارِ. ثُمَّ يَرَىٰ مِنْ أَفْعَالِهِ مَا يَدُلُّ عَلىٰ وُجُوْدِهِ؛ فَلا يَخْفَىٰ وُجُوْدُهُ.

١٢٣٣ ـ ثُمَّ تجْرِي فِي أَقْدَارِهِ أُمُوْرٌ؛ لَوْلَا ثُبُوْتُ الدَّلِيْلِ عَلىٰ وُجُوْدِهِ؛ لَأَوْجَبَتِ الجَحْدَ، فَإِنَّهُ يَفْرُقُ البَحْرَ **لِبَنِي إِسْرَائِيْلَ** ـ وَذٰلِكَ شَيْءٌ لا يَقْدِرُ عَلَيْهِ سِوَى الخَالِقِ ـ ويُصَيِّرُ العَصَا حَيَّةً، ثم يُعِيْدُهَا عَصًا، تَلْقَفُ مَا صَنَعوا، ولا يَزِيْدُ فِيْهَا شَيْءٌ؛ فَهَلْ بَعْدَ هٰذَا بَيَانٌ؟! فَإِذَا آمَنَتِ السَّحَرَةُ؛ تَرَكَهُم مَعَ فِرْعَوْنَ يَصْلِبُهُم، وَلا يَمْنَعُ، وَالأَنْبِيَاءُ يُبْتَلَوْن بِالجُوْعِ وَالقَتْلِ، وَزَكَرِيّا يُنْشَرُ، وَيَحْيَىٰ تَقْتُلُه زَانِيَةٌ[2]، وَنَبِيُّنَا ﷺ يَقُوْلُ كُلَّ عَامٍ:

---

(١) **اللجة**: الماء الكثير.

(٢) بأن حرّضت الحاكم على قتله واسمها سالومي.

«**مَنْ يُؤْوِينِي؟ مَنْ يَنْصُرُنِي**»؛ فَيَكَادُ الجَاهِلُ بُوجُوْدِ الخالِقِ يَقُوْلُ: لَوْ كَانَ مَوْجُوْدًا؛ لَنَصَرَ أَوْلِيَاءَهُ!

فَيَنْبَغِي لِلْعَاقِلِ الَّذِي قَدْ ثَبَتَ عِنْدَهُ وُجُوْدُهُ بِالأَدِلَّةِ الظَّاهِرَةِ الجَلِيَّةِ: أَلَّا يُمَكِّنَ عَقْلَهُ مِنَ الاعْتِرَاضِ عَلَيْهِ[1] فِي أَفْعَالِهِ، وَلا يَطْلُبَ لَهَا[2] عِلَّةً؛ إِذْ قَدْ ثَبَتَ أَنَّهُ مَالِكٌ وحَكِيْمٌ؛ فَإِذَا خَفِيَ عَلَيْنَا وَجْهُ الحِكْمَةِ فِي فِعْلِهِ؛ نَسَبْنا ذٰلِكَ العَجْزَ إِلىٰ فُهُومِنا.

وَكَيْفَ لا؛ وَقَدْ عَجَزَ مُوْسَىٰ عليه السلام أَنْ يَعْرِفَ حِكْمَةَ خَرْقِ السَّفِيْنَةِ، وَقَتْلِ الغُلَامِ، فَلَمَّا بانَ لَهُ حِكْمَةُ ذٰلِكَ الفَسَادِ فِي الظَّاهِرِ؛ أَقَرَّ؟! فَلَوْ قَدْ بَانَتِ الحِكْمَةُ فِي أَفْعَالِ الخالِقِ؛ [مَا] جَحَدَ العَقْلُ جَحْد مُوْسى يَوْمَ الخَضِرِ.

فَمَتَىٰ رأَيْتَ العَقْلَ **يَقُوْلُ**: لِمَ؟ فَأَخْرِسْهُ بِأَنْ **تَقُوْلَ لَهُ**: يا عَاجِزُ! أَنْتَ لا تَعْرِفُ حَقِيْقَةَ نَفْسِكَ؛ فَمَا لكَ والاعْتِرَاضَ عَلىٰ المَالِكِ؟!

وَرُبَّمَا قَالَ العَقْلُ: أَيُّ فَائِدَةٍ فِي الابْتِلَاءِ؛ وَهُوَ قَادِرٌ أَنْ يُثِيبَ، وَلا بَلَاءَ؟! وَأَيُّ غَرَضٍ فِي تَعْذِيْبِ أَهْلِ النَّارِ؛ وَلَيْسَ ثَمَّ تَشَفٍّ؟! **فَقُلْ لَهُ**: حِكْمَتُهُ فَوْقَ مَرْتَبَتِكَ؛ فَسَلِّمْ لِمَا لا تَعْلَمُ؛ فَإِنَّ أَوَّلَ مَنِ اعْتَرَضَ بِعَقْلِهِ إِبْلِيْسُ؛ رَأَىٰ فَضْلَ النَّارِ عَلىٰ الطِّيْنِ، فَأَعْرَضَ [عَنِ السُّجُوْدِ].

وَقَدْ رَأَيْنَا خَلْقًا كَثِيْرًا، وَسَمِعْنا عَنْهُم أَنَّهُم يَقْدَحُوْنَ فِي الحِكْمَةِ؛ لِأَنَّهُم يُحَكِّمُوْنَ العُقُوْلَ عَلىٰ مُقْتَضَاهَا، وَيَنْسَوْنَ أَنَّ حِكْمَةَ الخَالِقِ وَرَاءَ العُقُوْلِ.

فَإِيَّاكَ أَنْ تَفْسَحَ لِعَقْلِكَ فِي تَعْلِيْلٍ، أَوْ أَنْ تَطْلُبَ لَهُ جَوَابَ اعْتِرَاضٍ، وَقُلْ لَهُ: **سَلِّمْ تَسْلَمْ؛ فَإِنَّكَ لا تَدْرِي غَوْرَ البَحْرِ، إِلَّا وَقَدْ أَدْرَكَكَ الغَرَقُ قَبْلَ ذٰلِكَ**. هٰذَا أَصْلٌ عَظِيْمٌ؛ مَتَىٰ فَاتَ الآدَمِيَّ؛ أَخْرَجَهُ الاعْتِرَاضُ إِلىٰ الكُفْرِ.

٢٧٢ - فصل: من أوغل في السن فليعتبر بما فقد

١٢٣٤ -العَجَبُ مِمَّنْ يَقُوْلُ: أَخْرُجُ إِلىٰ المَقَابِرِ فَأَعْتَبِرُ بِأَهْلِ البِلَىٰ[3]!! وَلَوْ فَطِنَ؛

---

(١) أي: على الخالق ﷻ.
(٢) في الأصل: بها.
(٣) **البلى**: الفناء.

عَلِمَ أَنَّهُ مَقْبَرةٌ؛ يُغْنِيهِ الاعْتِبارُ بِمَا فِيْهَا عَنْ غَيْرِهَا! خُصُوْصًا مَنْ قَدْ أَوْغَلَ فِي السِّنِّ؛ فَإِنَّ شَهْوَتَهُ ضَعُفَتْ، وَقُوَاهُ قَلَّتْ، والحَوَاسُّ كَلَّتْ، والنَّشَاطُ فَتَرَ، والشَّعْرُ ابْيَضَّ. فَلْيَعْتَبِرْ بِمَا فَقَدَ، وَلْيَسْتَغْنِ عَنْ ذِكْرِ مَنْ فَقَدَ؛ فَقَدِ اسْتَغْنَى بِمَا عِنْدَه عَنِ التَّطَلُّعِ إِلىٰ غَيْرِهِ.

٢٧٣ - فصل: متى تكامل العقل فُقِدت لذة الدنيا

١٢٣٥ - مَتَىٰ تَكَامَلَ العَقْلُ؛ فُقِدَتْ لَذَّةُ الدُّنيا، فَتَضَاءَلَ الجِسْمُ، وَقَوِيَ السُّقْمُ، واشْتَدَّ الحُزْنُ. لِأَنَّ العَقْلَ كُلَّمَا تَلَمَّحَ العَوَاقِبَ؛ أَعْرَضَ عَنِ الدُّنيا، وَالْتَفَتَ إِلىٰ مَا تَلَمَّحَ، وَلَا لَذَّةَ عَنْدَهُ بِشَيْءٍ مِنَ العَاجِلِ، وَإِنَّمَا يَلْتَذُّ أَهْلُ الغَفْلَةِ عَنِ الآخِرةِ، وَلا غَفْلَةَ لِكَامِلِ العَقْلِ، وَلهذَا لا يَقْدِرُ علىٰ مُخَالَطةِ الخَلْقِ؛ لِأَنَّهُم كَأَنَّهم مِنْ غَيْرِ جِنْسِهِ؛ كَمَا قَالَ الشَّاعِرُ:

مَا فِي الدِّيارِ أَخُوْ وَجْدٍ نُطارِحُهُ ... حَدِيْثَ نَجْدٍ وَلا خِلٌّ نُجَارِيْهِ[1]

٢٧٤ - فصل: من قدح في البعث قدح في الحكمة

١٢٣٦ - ادَّعَىٰ الطَّبَائِعِيُّون[2] أنَّ مَادّةَ المَوْجُوْدَاتِ المَاءُ وَالتُّرَابُ وَالنَّارُ والهَوَاءُ؛ فَإِذَا كَانَ فِي القِيامَةِ؛ أَذْهَبَ الأُصُوْلَ، ثُمَّ أَعَادَ الحَيَوَان[3]؛ لِيُعْلَمَ أَنَّهَا كانَتْ بِالقُدْرةِ، لا عَنْ تَأْثِيْرِ الكُلِّيَّاتِ! [أَقُوْلُ]: ومَنْ قَدَحَ فِي البَعْثِ؛ فَقَدْ[4] بَالَغَ فِي القدْحِ في الحِكْمَةِ.

١٢٣٧ - وَمَنْ قَالَ: الرُّوحُ عَرَضٌ؟ فَقَدْ جَحَدَ البَعْثَ؛ لِأَنَّ العَرَضَ لا يَبْقَىٰ، والأَجْسَادَ تَصِيْرُ تُرَابًا؛ فَإِنْ وُجِدَ شَيْءٌ؛ فَهُوَ ابْتِدَاءُ خلْقٍ.

كَلَّا واللهِ؛ [بلْ] يُعِيْدُ النَّفْسَ بِعَيْنِهَا [رُوْحًا وَجَسَدًا]؛ بِدَلِيْلِ إِعَادَةِ مَذْكُوْرَاتِهَا: ﴿قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ﴾ [الصافات: ٥١].

---

(١) سبق في الفصل (١٦٢) وفيه: (ما في الصحاب) بدل قوله: (ما في الديار) وهو قريب.

(٢) الفلاسفة.

(٣) **الحيوان**: الحياة.

(٤) في الأصل: قد.

١٢٣٨ ـ وَعِزَّتِهِ؛ إِنَّ لُطْفَهُ في البِدَايَةِ لَدَلِيْلٌ عَلىٰ النِّهَايةِ. حَنَّن الوَالِدَيْنِ، وَأَجْرَىٰ اللَّبَنَ في الثَّدْي، وَأَنْشأ الأَطْعِمَةَ، وَأَطْلَعَ العَقْلَ عَلىٰ العَوَاقِبِ. أَفَيَحْسُنُ أَنْ يُقَالَ بَعْد هٰذا التَّدْبِيْرِ: إنَّه يُهْمِلُ بَعْدَ المَوْتِ؛ فَلَا يَبْعَثُ؟! أَتُرَىٰ مَنْ أَحَبَّ أَنْ يُعْرَفَ، فَأَنْشأَ الخَلْق، وَقَالَ: «**كُنْتُ كَنْزًا لا أُعْرَفُ، فَأَحْبَبْتُ أَنْ أُعْرَفَ**»؛ يُؤْثِرُ أَنْ يَعْدِمَهم، فيُجْهَلَ قَدْرُهُ؟! سُبْحَانَ مَنْ أَعْمَىٰ أَكْثَرَ القُلُوْبِ عَنْ مَعْرِفَتِهِ.

٢٧٥ - فصل: تجلي الخالق سبحانه

١٢٣٩ ـ سُبْحَانَ مَنْ ظَهَر لِخَلْقِهِ حَتَّىٰ لَمْ يَبْقَ خَفَاءٌ، ثُمَّ خَفِيَ حَتَّىٰ كَأَنَّهُ لا ظُهُوْرَ.

أَيُّ ظُهُوْرٍ أَجْلَىٰ مِن هٰذِهِ المَصْنُوْعَاتِ الّتِي تَنْطِقُ كُلُّها بِأَنَّ لِي صَانِعًا صَنَعَني، وَرَتَّبَني عَلىٰ قَانُوْنِ الحِكْمَةِ؟! خُصُوْصًا هٰذَا الآدَمِيَّ الّذِي أَنْشَأَهُ مِنْ قَطْرَةٍ، وَبَنَاهُ عَلىٰ أَعْجَبِ فِطْرَةٍ، ورَزَقَهُ الفَهْمَ وَالذِّهْن، وَاليَقْظَةَ والعِلْمَ، وبَسَطَ لَهُ المِهَادَ، وَأَجْرَىٰ لَهُ المَاءَ والرِّيْحَ، وَأَنْبَتَ له الزَّرْعَ، وَرَفَعَ لَهُ مِنْ فَوْقِهِ السَّمَاءَ، فَأَوْقَدَ لهُ مِصْبَاحَ الشَّمْسِ بِالنَّهَارِ، وَجَاءَ بالظُّلْمَةِ لِيَسْكُنَ. إلىٰ غَيْرِ ذٰلِكَ، مِمّا لا يَخْفَى. وَكُلُّه يَنْطِقُ بِصَوْتٍ فَصِيْحٍ يَدُلُّ عَلىٰ خَالقِهِ، وَقَدْ تَجَلَّى الخَالِقُ سُبْحَانَه بهٰذِهِ الأَفْعَالِ؛ **فَلَا خَفَاءَ**.

١٢٤٠ ـ ثُمَّ بَعَثَ الرُّسُلَ فُقَرَاءَ مِنَ الدُّنيا، ضِعَافَ الأَبْدَانِ، فَقَهَرَ بِهِمُ الجَبَابِرَةَ، وَأَظْهَرَ عَلىٰ أَيْدِيْهِم مِنَ المُعْجِزَاتِ مَا لا يَدْخُلُ تَحْتَ مَقْدُوْرِ بَشَرٍ. وَكُلُّ ذٰلِكَ يَنْطِقُ بِالحَقِّ. وَقَدْ **تَجَلَّى سُبْحَانَهُ بذٰلِكَ لِعِبَادِهِ**.

١٢٤١ ـ ثُمَّ يَأْتِي **مُوْسَىٰ** عليه السلام إلىٰ البَحْرِ، فَيَنْفَرِقُ، فَلَا يَبْقَىٰ شَكٌّ فِي أَنَّ الخالِقَ فَعَلَ هٰذَا، وَيُكلِّمُ **عِيْسىٰ** عليه السلام المَيِّت، فَيَقُوْمُ، وَيَبْعَثُ طَيْرًا أَبَابِيْلَ، تَحْفَظُ بَيْتَهُ، فيُهْلِكُ قَاصِدِيْهِ. وَهٰذَا أَمْرٌ يَطُوْلُ ذِكرُهُ كُلِّه، يَدُلُّ علىٰ **تجَلِّي الخَالِقِ سُبْحَانَه بِغَيْرِ خَفَاءٍ**.

١٢٤٢ ـ فَإِذَا ثَبَتَ عَنْدَ العُقَلاءِ ذٰلِكَ مِنْ غَيْرِ ارْتِيَابٍ وَلا شَكٍّ، [ثُمَّ] جَاءَتْ أَشْيَاءُ كَأَنَّها تَسْتُرُ الظَّاهِرَ؛ مِثْلُ مَا سَبَقَ مِنْ تَسْلِيْطِ الأَعْدَاءِ عَلىٰ الأَوْلِيَاءِ. وإِذَا ثَبَتَ التَّجَلِّي بِأَدِلّةٍ لا تَحْتَمِلُ التَّأْوِيْلَ؛ عَلِمْتَ أَنَّ لِهٰذَا الخَفَاءِ سِرًّا لا نَعْلَمُهُ، يُفْتَرَضُ عَلىٰ العَقْلِ فِيْهِ التَّسْلِيمُ لِلْحَكِيْمِ. فَمَنْ سَلَّمَ سَلِمَ، وَمَنِ اعْتَرَضَ هَلَكَ.

٢٧٦ - فصل: عالم معاند وجاهل مهمل

١٢٤٣ ـ قَدْ يَدَّعِي أَهْلُ كُلِّ مَذْهَبٍ الاَجْتِهَادَ فِي طَلَبِ الصَّوَابِ، وَأَكْثَرُهُم لا يَقْصِدُ إِلَّا الحَقَّ؛ فَتَرَىٰ االرَّاهِبَ يَتَعَبَّدُ، وَيَتَجَوَّعُ، **واليَهُوْدِيَّ** يَذِلُّ، وَيُؤَدِّي الجِزْيَةَ، وَصَاحِبَ كُلِّ مَذْهَبٍ يُبَالِغُ فِيْهِ، ويَحْتَمِلُ الضَّيْمَ والأَذَىٰ طَلَبًا للهُدَىٰ، وتَحْصِيْلِ الأَجْرِ فِي اعْتِقَادِهِ، وَمَعَ هٰذَا؛ فيَقْطَعُ العَقْلُ بِضَلَالِ الأَكْثَرِيْنَ.

وهٰذَا قدْ يُشْكِلُ. وَإِنَّما كَشْفُهُ أنَّه يَنْبَغِي أَنْ يُطْلَبَ الهُدَىٰ بِأَسْبَابِهِ، وَيُسْتعْمَلَ الاَجْتِهَادُ بِالإِبَانَةِ، فَأَمَّا مَنْ فاتَتْهُ الأَسْبَابُ، أَوْ فَقَدَ بَعْضَ الآلاتِ؛ فَلَا يُقَالُ لَهُ مُجْتَهِدٌ.

١٢٤٤ ـ **فَاليَهُوْدُ والنَّصَارَىٰ** بَيْنَ **عَالِمٍ** قَدْ عَرَفَ صِدْقَ نبيِّنا ﷺ لٰكِنَّهُ يَجْحَدُ [إِبْقاءً] لِرِئَاسَتِهِ؛ فَهٰذَا **مُعَانِدٌ**. وَبَيْنَ **مقلِّدٍ** لا يَنْظُرُ بِعَقْلِهِ؛ فَهٰذَا **مُهْمِلٌ**؛ فَهُوَ يَتَعَبَّدُ مَعَ إِهْمَالِ الأَصْلِ، وذاكَ[1] لا يَنْفَعُ. وبَيْنَ **ناظِرٍ** مِنْهُمْ لا يَنْظُرُ حَقَّ النَّظَرِ، فَيَقُوْلُ: فِي (التَوْرَاةِ) إِنَّ دِيْنَنا لا يُنْسَخُ! [وَنَسْخُ الشَّرَائِعِ لِاخْتِلَافِ الأَزْمِنَةِ حَقٌّ، وَلٰكِنَّهُ][2] يَقُوْلُ: النَّسْخُ بَدَاءٌ[3]! ولا يَنْظُرُ فِي الفَرْقِ [بَيْنَهُمَا]؛ فَيَنْبَغِي أَنْ يَنْظُرَ حَقَّ النَّظَرِ.

١٢٤٥ ـ وَمِنْ هٰذَا الجِنْسِ تَعَبُّدُ **الخَوَارِجِ**[4]، مَعَ اقْتِنَاعِهِم بِعِلْمِهِم القَاصِرِ، وَهُو قَوْلُهُم: لا حُكْمَ إِلَّا للهِ. وَلَمْ يَفْهَمُوا أَنَّ التَّحْكِيْمَ مِنْ حُكْمِ اللهِ، فَجَعَلُوْا قِتَالَ عَلِيٍّ رضي الله عنه وَقَتْلَهُ مَبْنِيًّا عَلَىٰ ظَنِّهِمُ الفَاسِدِ.

١٢٤٦ ـ وَلَمّا نَهَبَ مُسْلِمُ بْنُ عُقْبَةَ[5] المَدِيْنَةَ، وَقَتَلَ الخَلْقَ؛ قَالَ: إِنْ دَخَلْتُ

---

(١) في الأصل: هذا.

(٢) في الأصل: (وهُوَ عَلى غَيْرِ ثِقَةٍ أَنَّه غَيْرُ مُعْمُوْلٍ، وَلا مَدْخَلَ فِيْه).

(٣) انظر الفرق بين النسخ والبداء في كتاب (ناسخ القرآن ومنسوخه) للمؤلف ص(١٠٧ ـ ١٠٨).

(٤) هم الذين خرجوا على علي بن أبي طالب رضي الله عنه بعد التحكيم، وطلبوا منه أن يعترف بالكفر إذ قبل بالتحكيم ثم يتوب، وكانوا هم الذين حملوه على القبول به في صفين، فقاتلهم في النهروان، لكنهم تآمروا على قتله فقتله المجرم عبد الرحمٰن بن ملجم المرادي. من مقالاتهم الرديئة تكفير فاعل الكبيرة، ومن هنا كفّروا مخالفيهم واستحلوا دماءهم.

(٥) مسلم بن عقبة المري من قواد الأمويين الجفاة القساة من نمط الحجاج عليهما من الله ما يستحقان، وكانت على يده وقعة الحرَّة التي استباح فيها الحرمات في مدينة الرسول ﷺ.

النَّارَ بَعْدَ هٰذَا إِنَّنِي لشَقِيٌّ. فَظَنَّ بِجَهْلِهِ أَنَّهُم لَمَّا خَالَفُوا بَيْعَةَ يَزِيْد؛ يَجُوْزُ اسْتِبَاحَتُهُم وَقَتْلُهُم.

١٢٤٧ ـ فَالْوَيْلُ لِعَامِّي قَلِيْلِ العِلْمِ؛ لا يَتَّهِمُ نَفْسَهُ فِي وَاقِعَةٍ، وَلا يُذَاكِرُ مَنْ هُوَ أَعْلَمُ مِنْهُ، بَلْ يَقْطَعُ بِظَنِّهِ ويُقْدِمُ. وَهٰذَا أَصْلٌ يَنْبَغِي تَأَمُّلُه؛ فَقَدْ هَلَكَ فِي إِهْمَالِهِ خَلْقٌ لا تُحْصَىٰ، وَقَدْ رَأَيْنَا خَلْقًا مِنَ العَوَامِّ إِذَا وَقَعَت لَهُمْ وَاقِعَةٌ؛ لَمْ يَقْبَلُوْا فَتْوَىٰ. ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَٰشِعَةٌ ۝٢ عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ ۝٣ تَصْلَىٰ نَارًا حَامِيَةً ۝٤﴾ [الغاشية].

٢٧٧ - فصل: للنفس ذخائر في البدن

١٢٤٨ ـ لِلنَّفْسِ ذَخَائِرُ فِي البَدَنِ، مِنْهَا الدَّمُ والمَنِيُّ، وَأَشْيَاءُ تَتَقَوَّى بِهَا؛ فَإِذَا فُقِدَتِ الذَّخَائِرُ، وَلَمْ يَبْقَ مِنْهَا شَيْءٌ؛ ذَهَبَتْ.

١٢٤٩ ـ وَمِنْ ذَخَائِرِهَا التَّقَوِّي بِالمَالِ وَالجَاهِ، وَمَا يُوْجِبُ الفَرَحَ؛ فَإِذَا فَقَدَتْ ذٰلِك، وَكَانَتْ عَزِيْزَةً ذَاتَ أَنَفَةٍ؛ حَرِجَتْ. وَقَدْ يَهْجُمُ عَلَيْهَا الخَوْفُ؛ فَلَا تَجِدُ ذَخِيْرَةً مِن الرَّجَاءِ يُقَاوِمُهُ، فَتَذْهَبَ. وَيَغْلِبُ عَلَيْهَا الفَرَحُ؛ فَلَا تَجِدُ مِنَ الحُزْنِ مَا يُقَاوِمُهُ، فَتَذْهَبَ.

١٢٥٠ ـ فَاجْتَهِدْ فِي حِفْظِ ذَخَائِرِهَا، وَخُصُوْصًا الشَّيْخَ؛ فَإِنَّه يَنْبَغِي لَهُ أَلّا يَفْرَحَ بِإِخْرَاجِ الدَّمِ، وَلا بِإِخْرَاجِ المَنِيِّ، وَإِنْ وَجَدَ شَبَقًا؛ إِلَّا أَنْ يَكُوْنَ الشَّبَقُ[1] زَائِدًا فِي الحدِّ، فَيُخْرِجُ المُؤْذِيَ فِيْ كُلِّ حِيْنٍ. وَعلَامَةُ أَنْ يَكُوْنَ مُؤْذِيًا: وُجُوْدُ الرَّاحَةِ عَنْدَ خُرُوْجِهِ؛ فَمَتَىٰ وَجَدَ ضَعْفًا؛ فَقَد آذى خُرُوْجُهُ.

١٢٥١ ـ وَلْيَحْفَظْ ذُوْ الأَنَفَةِ عَلىٰ نَفْسِهِ حِشْمَتَهُ؛ بألّا يَقِفَ فِي موْقِفٍ يُعَابُ بِهِ؛ فَإِنَّه يَتَمَتَّعُ بِذَخِيْرَةِ العِزِّ وَالأَنَفَةِ، وَيُضَادُّ النَّفْسَ وُجُوْدُ ضِدِّ ذٰلِكَ.

١٢٥٢ ـ وَكَذٰلِكَ يَنْبَغِي أَنْ يَسْتَعِدَّ لِآخِرِ عُمُرِهِ بِالمَالِ؛ مَخَافَةَ أَنْ يَحْتَاجَ فَيَذِلَّ أَوْ يَسْعَىٰ، وَقَدْ كَلَّتِ[2] الآلَةُ. وَلأَنْ يُخَلِّفَ لِعَدُوِّه أَوْلَىٰ مِنْ أَنْ يَحْتَاجَ إِلىٰ صَدِيْقِهِ. وَلا يَلْتَفِتُ إِلىٰ مَنْ يَذُمُّ المَالَ؛ فَإِنَّهُمُ الحَمْقَىٰ الجُهَّالُ الَّذِيْنَ اتَّكَلُوْا عَلىٰ خُبْزِ الرَّاحَةِ،

(١) **الشبق**: شدة الرغبة في النكاح. (٢) **كلّت**: تعبت.

فَاسْتَطَابُوْا الكَسَلَ وَالدَّعَةَ، وَلَمْ يَأْنَفُوْا مِنْ تَنَاوُلِ الصَّدَقَةِ، ولا التَّعَرُّضِ للسُّؤَالِ؛ وَقَدْ كَانَ لِكُلِّ نَبِيٍّ مَعَاشٌ، وَلِجَمِيْعِ الصَّحَابةِ، وخَلَّفُوا أَمْوَالًا كَثِيْرةً. فَافْهَم هٰذا الأَصْل، وَلا تَلْتَفِتْ إِلىٰ كَلَام الجُهَّالِ.

٢٧٨ - فصل: زهاد زماننا أهل رياء ونفاق

١٢٥٣ ـ رَأَيْتُ فِي زُهَّادِ زَمَانِنَا مِنَ الكِبْر، وَحفْظِ النَّامُوْسِ، وَرُتْبَةِ الجَاهِ فِي قُلُوْبِ العَامَّةِ مَا كِدْتُ أَقْطَعُ بِهِ عَلىٰ أَنَّهُمْ أَهْلُ رِيَاءٍ وَنِفَاقٍ! فَتَرَىٰ أَحَدَهُم يَلْبسُ الثَّوْبَ الّذِي يُرَىٰ بِعَيْنِ الزُّهْدِ، وَيَأْكُلُ أَطَايِبَ الطَّعَامِ، وَيَتَكَبَّرُ عَلىٰ أَبْنَاءِ الجِنْسِ، ويُصَادِقُ الأَغْنِيَاءَ، ويُبَاعِدُ الفُقَرَاءَ، وَيُحِبُّ الخِطابَ بمولانا، والمشْيَ بِجَانِبِهِ؛ وَيُضَيِّعُ الزَّمَانَ فِي الهَذَيَانِ، وَيَتَقَوَّتُ بِخِدْمَةِ النَّاسِ لَهُ وَالتَّسْلِيْمِ عَلَيْهِ.

وَلَوْ أَنَّهُ لَبِسَ ثوْبًا يَخْلِطُهُ بِالفُقَهَاءِ؛ لَذَهَبَ الجَاهُ، وَلَمْ يَبْقَ لَهُ مُتَعَلَّقٌ! وَلَوْ **أَنَّ أَفْعَالَه نَاسَبَتْ ثِيَابَهُ لَهَانَ الأَمْرُ**، لٰكِنَّهُم بَهْرَجُوا عَلىٰ مَنْ لا يَخْفَىٰ أَمْرُهُمْ عَلَيْهِ مِنَ الخَلْقِ؛ فَكَيْف الخَالِقُ ﷻ؟!

٢٧٩ - فصل: على المؤمن أن يصون نفسه

١٢٥٤ ـ كَثِيرًا مَا أُعِيْدُ هٰذا المَعْنَى الّذِي أَنَا ذَاكِرُهُ فِي هٰذَا الكِتَابِ بِعِبَارَاتٍ شَتَّى: يَنْبَغِي لِلْمُؤْمِنِ أَنْ يَتَشَاغَلَ بِمَعَاشِهِ، وَيَرْفُقَ فِي نَفَقَتِهِ؛ فَإِنَّهُ قَدْ كَانَ لِلْعُلَمَاءِ شَيْءٌ مِنْ بَيْتِ المَالِ، وَرِفْقٌ مِنَ الإِخْوَانِ، وَمَعُوْنَةٌ مِنَ العَوَامِّ، فَانْقَطَعَ الكُلُّ، وبَقِي المُتَشَاغِلُ بِالعِلْمِ أَوِ التَّعَبُّدِ مِسْكِيْنًا، خُصُوْصًا ذُو[1] العَائِلَةِ.

١٢٥٥ ـ وَمَا رَأَيْنَا مِثْلَ هٰذَا الزَّمَانِ القَبِيْحِ؛ فَمَا بَقِيَ مَنْ يُوْمَأُ إِلَيْهِ بِمَعُوْنَةٍ، وَلَا بِاسْتِقْرَاضٍ، فَيَحْتَاجُ الإِنْسَانُ المُؤْمِنُ أَنْ يَدْخُلَ فِي مدَاخِلَ لا تَلِيْقُ بِهِ، وَأَنْ يتَعَرَّضَ بِمَا لا يَصْلُحُ.

فَيَنْبَغِي تَقْلِيْلُ العَائِلَةِ، وَتَقْوِيْتُ القُوتِ[2]، وَتَرْقِيعُ الخَلَقِ. وَإِنْ أَمْكَنَ مَعَاشٌ؛

---

(١) كذا في الأصل، والصواب (ذا).

(٢) **تقويت القوت**: حفظه، وعدم تضييعه.

فَهُوَ أَوْلَىٰ مِنَ التَّشَاغُلِ بِالتَّعَبُّدِ، والتَّعَلُّمِ لِفُضُوْلِ العِلْمِ، وَإِلَّا ضَاعَ الدِّيْنُ فِي مَدَاخِلَ لا تَصْلُحُ، أَوِ التَّعرُّضِ لِبَذْلِ نَذْلٍ.

٢٨٠ - فصل: على المؤمن أن يحترز مما يمكن وقوعه

١٢٥٦ - يَنْبَغِي لِلْعَاقِلِ أَنْ يَحْتَرِزَ غَايَةَ مَا يُمْكِنُهُ؛ فإِذَا جَرَىٰ القَدَرُ مَعَ احْتِرَازِهِ؛ لَمْ يُلمْ. وَالاحْتِرَازُ يَنْبَغِي مِنْ كُلِّ شَيْءٍ يُمْكِنُ وُقُوْعُهُ، وَأَخْذُ العُدَّةِ لذٰلِكَ [وَاجِبٌ]، وهٰذَا يَكُوْنُ فِي كُلِّ حالٍ.

فَقَدْ قَصَّ رَجُلٌ ظُفْرَهُ، فَجَارَ عَلَيْهِ، فَخَبُثَتْ يَدُهُ فمَاتَ. وَمَرَّ شَيْخُنَا أَحْمَدُ الحَرْبِيُّ[1]، وَهُوَ رَاكِبٌ بِمَكَانٍ ضَيِّقٍ، فَتَطَأْطَأَ عَلَىٰ السَّرْجِ، فَانْعَصَرَ فُؤَادُه، فَمَرِضَ، فَمَاتَ. وَكَانَ يَحْيَىٰ بْنُ **نزار** شَيْخًا يَحْضُرُ مَجْلِسِي، قَدْ طَرَقَ عَلَيْهِ ثِقَلُ الأُذُنِ، فَاسْتَدْعَى طُرُقِيًّا[2]، فَمَصَّ أُذُنَهُ، فَجَرَىٰ شَيْءٌ مِنْ مُخِّهِ؛ فَمَاتَ.

وَانْظُرْ إِلَىٰ احْتِرَازِ **رَسُوْلِ اللهِ** ﷺ حِيْنَ مَرَّ علىٰ حَائِطٍ مَائِلٍ فَأَسْرَعَ[3].

١٢٥٧ - وَيَنْبَغِي أَنْ يَحْتَرِزَ بِالكَسْبِ فِي زَمَنِ شَبَابِهِ؛ ادِّخَارًا لِزَمَنِ شَيْبِهِ، وَلَا يَنْبَغِي أَنْ يَثِقَ بِمُعَامَلٍ إِلَّا بِوَثِيْقَةٍ، وَيُبَادِرَ بِالوَصِيَّةِ؛ مَخَافَةَ أَنْ يَطْرُقَهُ المَوْتُ، وَيَحْتَرِزَ مِنْ صَدِيْقِهِ فَضْلًا عَنْ عَدُوِّهِ، وَلا يَثِقَ بِمَوَدَّةِ مَنْ قدْ آذَاهُ هُوَ؛ فإِنَّ الحِقْدَ فِي القُلُوْبِ قَلَّما يَزُوْلُ، وَلْيَحْتَرِزْ مِنْ زَوْجَتِهِ؛ فَرُبَّما أَطْلَعَها عَلَىٰ سِرِّهِ، ثُمَّ طَلَّقَهَا، فَيَتَأَذَّىٰ بِمَا تَفْعَلُ بِهِ.

وَقَدْ كَانَ ابْنُ أَفْلَحَ[4] الشَّاعِرُ يُكَاتِبُ رَئِيْسًا فِي زَمَنِ المُسْتَرْشِدِ، فعَلِمَ بذٰلِكَ بَوَّابُهُ، وَاتَّفَقَ أَنَّهُ صَرَفَ بَوَّابَهُ، فَنَمَّ عَلَيْهِ، وَنُقِضَتْ دَارُهُ[5].

فَهٰذِهِ المَذْكُوْرَاتُ[6] أَمْثِلَةٌ تُنَبِّهُ علىٰ مَا لَمْ يُذْكَرْ. وَأَهَمُّ الكُلِّ أَنْ يحْتَرِز بِأَخْذِ

---

(١) لم أجده.
(٢) مشعوذًا.
(٣) رواه أحمد (٢/ ٣٥٦)، قال الهيثمي في المجمع (٢/ ٣٢١): إسناده ضعيف.
(٤) هو علي بن أفلح العبسي، أبو القاسم، شاعر من الكتاب، علت شهرته، مدح الخلفاء وأرباب المراتب، له ديوان شعر، توفي سنة (٥٣٥هـ).
(٥) المنتظم (١٠/ ٨٠).
(٦) في الأصل: المذكرات، وهو تصحيف

العُدَّةِ، وَتَحْقِيْقِ التَّوْبَةِ، قَبْلَ أَنْ يَهْجُمَ عَلَيْهِ ما لَا يُؤْمَنُ هُجُوْمُهُ، ولْيَحْذَرْ مِنْ لِصِّ الكَسَلِ؛ فَإِنَّهُ مُحْتَالٌ عَلىٰ سَرِقَةِ الزَّمانِ.

٢٨١ - فصل: السعيد من اهتم لحفظ دينه وقنع من الدنيا باليسير

١٢٥٨ - **تَأَمَّلْتُ** خُصُوْمَاتِ المُلُوْكِ؛ وَحِرْصَ التُّجَّارِ؛ وَنِفَاقَ المُتَزَهِّدِيْنَ: فَوَجَدْتُ جُمْهُوْرَ ذٰلِكَ على لَذَّاتِ الحِسِّ. وَإِذَا تَفَكَّرَ العَاقِلُ فِي ذٰلِكَ؛ عَلِمَ أَنَّ أَمْرَ الحِسِّيَّاتِ قَرِيْبٌ، يَنْدَفِعُ بِأَقَلِّ شَيْءٍ، وَأَنَّ الغَايَةَ مِنْهُ لا يُمْكِنُ نَيْلُها، وَإِنْ بَالَغَ عَادَ بِالأَذَىٰ عَلىٰ نَفْسِهِ أَضْعَافَ ما نَالَه مِنَ اللَّذَّةِ؛ كمنْ يَأْكُلُ كَثِيْرًا أَوْ يَنْكِحُ كَثِيْرًا. فَالسَّعِيْدُ مَنِ اهْتَمَّ لِحِفْظِ دِيْنِهِ، وَأَخَذَ مِنْ ذٰلِك بِمِقْدَارِ الحَاجَةِ.

١٢٥٩ - وَا عَجَبًا! هٰذَا **المَلْبُوْسُ**: إِذَا كَانَ وَسَطًا؛ خَدَمَ، وَإِذَا كَانَ مُرْتَفِعًا؛ خُدِمَ، فَإِنْ نَظَرَ اللَّابِسُ إِلَيْهِ مُعْجَبًا بِهِ؛ فَإِنَّ اللهَ لا يَنْظُرُ إِلَيْهِ حِيْنَئِذٍ، وَفِي (الصَّحِيْحِ): «**بَيْنَمَا رَجُلٌ يَتَبَخْتَرُ فِي بُرْدَتِهِ؛ خُسِفَ بِهِ**».

١٢٦٠ - **والمَشْرُوْبُ**: إِنْ كَانَ **حَرَامًا**؛ فَعِقَابُهُ أَضْعَافُ لَذَّتِهِ، وَهَتْكُهُ العِرْضَ بَيْنَ النَّاسِ عِقَابٌ آخَرُ. وَإِنْ كَانَ **مُبَاحًا**؛ فَالشَّرَهُ فِيْهِ يُؤْذِي البَدَنَ.

١٢٦١ - وَأَمَّا **المَنْكُوْحُ**؛ فَمُدَارَاةُ المُسْتَحْسَنِ يُؤْذِي فَوْقَ كُلِّ أَذًى، وَمُقَاسَاةُ المُسْتَقْبَحِ أَشدُّ أَذًى؛ فَعَلَيْك بالتوسُّطِ.

١٢٦٢ - وَتَفَكَّرْ فِي أَحْوَالِ السَّلَاطِيْنِ؛ كَمْ قَتَلوا ظُلْمًا؟ وكَم ارْتَكَبُوْا حَرَامًا؟ وَمَا نَالُوا إِلَّا يَسِيْرًا مِنْ لَذَّاتِ الحِسِّ، فَانْقَشَعَ غَيْمُ العُمُرِ عَنْ حَسَرَاتِ الفَضَائِلِ وَحُصُوْلِ العِقَابِ.

١٢٦٣ - فَلَيْسَ فِي الدُّنيا أَطْيَبُ عَيْشًا مِنْ مُنْفَرِدٍ عَنِ العَالَمِ بِالعِلْمِ؛ فَهُوَ أَنِيْسُهُ وَجَلِيْسُهُ، قَدْ قَنِعَ بِمَا سَلِمَ بِهِ دِيْنُه مِنَ المُبَاحَاتِ الحَاصِلَةِ، لا عَنْ تَكَلُّفٍ، وَلا تَضْيِيعِ دِيْنٍ، وَارْتَدَىٰ بِالعِزِّ عَنْ الذُّلِّ للدُّنيا وَأَهْلِهَا، وَالْتَحَفَ بِالقَنَاعَةِ بِاليَسِيْرِ، إِذْ لَمْ يَقْدِرْ عَلىٰ الكَثِيْرِ، فَوَجَدْتُهُ يَسْلَمُ دِيْنُهُ وَدُنْيَاهُ.

واشْتِغَالُهُ بِالعِلْمِ يَدُلُّهُ عَلىٰ الفَضَائِلِ، وَيُفَرِّجُهُ فِي البَسَاتِيْنِ؛ فهُوَ يَسْلَمُ مِن الشَّيْطَانِ والسُّلْطَانِ والعَوَامِّ بِالعُزْلَةِ. ولٰكِنْ؛ **لا يَصْلُحُ هٰذَا إِلَّا لِلْعَالِمِ؛ فَإِنَّهُ إِذَا اعْتَزَلَ الجَاهِلُ؛ فَاتَه العِلْمُ، فَتَخَبَّطَ.**

٢٨٢ - فصل: الموفق من طلاب العلم

١٢٦٤ ـ **تَأَمَّلْتُ** حَالةً تَدْخُلُ عَلىٰ **طُلَّابِ العِلْمِ** تُوْجِبُ الغَفْلَةَ عنِ المقْصُوْدِ، وَهُوَ **حِرْصُهُم عَلىٰ الكِتَابةِ**، خُصُوْصًا المُحَدِّثِيْنَ، فيَسْتَغْرِقُ ذٰلِكَ زَمَانَهُم عنْ أَنْ يَحْفَظُوا ويَفْهَمُوا، فَيَذْهَبُ العُمُرُ وَقَدْ عَرَوْا[1] عَنِ العِلْمِ إِلَّا اليسِيْرَ. فَمَنْ وُفِّقَ؛ جَعَلَ مُعْظَمَ الزَّمَانِ مَصْرُوْفًا فِي **الإِعادَةِ والحِفْظِ**، وجَعَلَ وَقْتَ التَّعَبِ مِنَ التَّكْرَارِ لِلنَّسْخِ، فَيَحْصُلُ لهُ المُرَادُ.

وَالمُوَفَّقُ مَنْ **طَلَبَ المُهِمَّ**؛ فَإِنَّ العُمُرَ يَعْجِزُ عَنْ تَحْصِيْلِ الكُلِّ، وَجُمْهُورُ العُلُوْمِ الفِقْهُ. وفِي النَّاسِ مَنْ حَصَلَ لَهُ العِلْمُ، وغَفَلَ عَنِ العَمَلِ بِمُقْتَضَاهُ، وَكَأَنَّهُ مَا حَصَّلَ شَيْئًا، نَعُوْذُ بِاللهِ مِنَ الخِذْلانِ.

٢٨٣ - فصل: التثبت والمشاورة

١٢٦٥ ـ مَا اعْتَمَدَ أَحدٌ أَمْرًا إِذَا هَمَّ بِشيْءٍ مِثْلَ **التَّثَبُّتِ**؛ فإِنَّه مَتَى عَمِل بِوَاقِعَةٍ مِنْ غَيْرِ **تأَمُّلٍ لِلعَوَاقِبِ**؛ كَانَ الغَالِبَ عَلَيْهِ النَّدَمُ، وَلِهٰذَا أُمِرَ **بِالمُشَاوَرَةِ**؛ لِأَنَّ الإِنْسَانَ بالتَّثَبُّتِ يَفْتكِرُ، فَتَعْرِضُ عَلىٰ نَفْسِهِ الأَحْوَالُ، وَكَأَنَّهُ شَاوَرَ، وَقَدْ قِيْلَ: «خَمِيْرُ الرَّأْيِ خَيْرٌ مِنْ فطِيْرِهِ».

١٢٦٦ ـ وَأَشَدُّ النَّاسِ تَفْرِيْطًا مَنْ عَمِلَ مُبَادَرَةً فِي وَاقِعَةٍ، مِنْ غَيْر تَثَبُّتٍ وَلَا اسْتِشَارةٍ، خُصُوْصًا فِيْمَا يُوْجِبُهُ الغَضبُ؛ فَإِنَّه طَلَبُ الهَلاكِ أَوِ النَّدَمُ العَظِيْمُ.

وَكَمْ مَنْ غَضِبَ، فَقَتَلَ، وضَرَبَ، ثُمَّ لَمَّا سَكَنَ غَضَبُهُ؛ بَقِيَ طُوْلَ دَهْرِهِ فِي الحُزْنِ والبُكَاءِ والنَّدَمِ! والغَالِبُ فِي القَاتِلِ أَنَّه يُقْتَلُ، فَتَفُوْتُهُ الدُّنْيَا والآخِرَةُ.

---

(١) **عروا**: تجردوا.

١٢٦٧ ـ فَكَذٰلِكَ مَنْ عَرَضَتْ لَهُ شَهْوَةٌ، فَاسْتَعْجَلَ لَذَّتَها، ونَسِيَ عَاقِبَتَها؛ فَكَمْ مِنْ نَدَمٍ يَتَجَرَّعُهُ فِي بَاقِي عُمُرِهِ، وَعِتَابٍ يَسْتَقْبِلُهُ مِنْ بعْدِ مَوْتِهِ، وَعِقَابٍ لا يُؤْمَنُ وَقُوْعُهُ؛ كُلُّ ذٰلِك لِلَذَّةِ لَحْظَةٍ كَانَتْ كَبَرْقٍ.

فَاللهَ اللهَ! التَّثَبُّتَ التَّثَبُّتَ فِي كُلِّ الأُمُوْرِ! والنَّظَرَ فِي عَوَاقِبِها! خُصُوْصًا الغَضَبَ المُثِيْرَ لِلْخُصُوْمَةِ وَتَعْجِيْلِ الطَّلَاقِ.

٢٨٤ - فصل: من لم يحترز بعقله هلك بعقله

١٢٦٨ ـ سَأَلَنِي سَائِلٌ: قَدْ قَالَ بَعْضُ الحُكَمَاءِ: «**مَنْ لَمْ يَحْتَرِزْ بِعَقْلِهِ؛ هَلَكَ بِعَقْلِهِ**» فَمَا مَعْنَى هٰذَا؟ فَبَقِيْتُ مُدَّةً لا يَنْكَشِفُ لِيَ المَعْنَىٰ، ثُمَّ اتَّضَحَ. وَذٰلِكَ أَنَّه إِذَا طُلِبَتْ **مَعْرِفَةُ ذَاتِ الخَالِقِ سُبْحَانَه مِنَ العَقْلِ**؛ فَزِعَ إِلَىٰ الحِسِّ، فَوَقَعَ التَّشْبِيْهُ؛ فَالاَحْتِرَازُ مِن العَقْلِ بِالعَقْلِ هُوَ: أنْ يَنْظُرَ، فَيَعْلَمَ أَنَّهُ **لا يَجُوْزُ أَنْ يَكُوْنَ جِسْمًا ولا شِبْهًا لِشَيْءٍ**.

١٢٦٩ ـ وَإِذَا **نَظَرَ العَاقِلُ إِلَىٰ أَفْعَالِ البَارِي سُبْحَانَه**؛ رَأَىٰ أَشْيَاءَ لا يَقْتَضِيْهَا العَقْلُ؛ مِثْلَ الآلامِ، وَالذَّبْحِ لِلْحَيَوانِ، وَتَسْلِيْطِ الأَعْدَاءِ عَلَىٰ الأَوْلِيَاءِ، مَعَ القُدْرَةِ عَلَىٰ المَنْعِ، والابْتِلَاءِ بِالمَجاعَةِ لِلصَّالِحِيْن، وَالمُعَاقَبَةِ علىٰ الذَّنْبِ بَعْدَ البُعْدِ بِزَلَّةٍ، وَأَشْيَاءَ كَثِيْرَة مِنْ هٰذَا الجِنْسِ؛ يَعْرِضُها العَقْلُ عَلَىٰ العَادَاتِ فِي تَدْبِيْرِهِ، فَيَرَىٰ أَنَّه لا حِكمَةَ تَظْهَرُ لَهُ فِيْهَا.

فَالاَحْتِرَازُ مِنَ العَقْلِ بِهِ أَنْ يُقَالَ لَهُ: أَلَيْسَ قَدْ ثَبَتَ عَنْدِي أَنَّهُ مَالِكٌ، أَنَّهُ حَكِيْمٌ، وَأَنَّهُ لا يَفْعَلُ شَيْئًا عَبَثًا؟ **فَيَقُوْلُ**: بَلىٰ. **فَيُقَالُ**: فَنَحْنُ نَحْتَرِزُ مِنْ تَدْبِيْرِكَ الثَّانِي بِمَا ثَبَتَ عِنْدَكَ فِي الأَوَّلِ، فَلَمْ يَبْقَ إِلَّا أَنَّهُ خَفِيَ عَلَيْكَ وَجْهُ الحِكْمَةِ فِي فِعْلِهِ، فَيَجِبُ التَّسْلِيْمُ لَهُ؛ لِعِلْمِنَا أَنَّهُ حكِيْمٌ. حِيْنَئِذٍ يُذْعِنُ وَيَقُوْلُ: قَدْ سَلَّمْتُ.

١٢٧٠ ـ وَكَثِيْرٌ مِن الخَلْقِ نَظَرُوْا لِمُقْتَضَىٰ وَاقِعِ العَقْلِ الأَوَّلِ، فَاعْتَرَضُوْا! حَتَّى إِنَّ العَامِيَّ يَقُوْلُ: كَيْفَ قَضَىٰ عَليَّ بِسُوْءِ[1] عَاقِبَتِي؟! وَلِمَ ضَيَّقَ رِزْقِي؟! وَمَا وَجْهُ

---

(١) في الأصل: سوء.

الحِكْمَةِ فِي ابْتِلائِي بِفُنُوْنِ البَلاءِ؟! وَلَوْ أَنَّهُ تَلَمَّحَ أَنَّهُ مَالِكٌ حَكِيْمٌ؛ لَمْ يَبْقَ إِلَّا التَّسْلِيْمُ لِمَا خَفِي.

١٢٧١ ـ وَلَقَدْ أَنِسَ بِبَدِيْهَةِ العَقْلِ خَلْقٌ مِنَ الأَكَابِرِ[1]، أَوَّلُهُمْ إِبْلِيْسُ؛ فَإِنَّه رَأَىٰ تَفْضِيْلَ النَّارِ عَلىٰ الطِّيْنِ، فَٱعْتَرَضَ. وَرأَيْنَا خَلْقًا مِمَّنْ نُسِبَ إِلىٰ العِلْمِ قَدْ زَلُّوا فِي هٰذَا، وَٱعْتَرَضُوْا، وَرَأَوْا أَنَّ كَثِيْرًا مِنَ الأَفْعَال لا حِكْمَةَ تَحْتَهَا. وَالسَّبَبُ مَا ذَكَرْنا، وَهُوَ **الأُنسُ بِنَظَرِ العَقْلِ فِي البَدِيْهِةِ والعَادَاتِ، والقِيَاسُ عَلىٰ أَفْعَالِ المَخْلُوْقِيْنَ.**

وَلَو اسْتَخْرَجُوْا عِلْمَ العَقْلِ البَاطِنِ، وَهُوَ أَنَّه قَدْ ثَبَتَ الكَمَالُ لِلْخَالِقِ، وَانْتَفَتْ عَنْهُ النَّقَائِصُ، وَعُلِمَ أَنَّهُ حَكِيْمٌ لا يَعْبَثُ؛ لَبَقِيَ التَّسْلِيْمُ لِمَا لا يُعْقَلُ.

١٢٧٢ ـ وَاعْتَبِرْ هٰذا بِحَالِ الخَضِرِ وَمُوْسَىٰ عليهما السلام، لَمّا فَعَلَ الخَضِرُ أَشْيَاءَ تَخْرُجُ عَنِ العَادَاتِ أَنْكَرَ مُوْسَىٰ، ونَسِيَ إِعْلَامَه لَهُ بِأَنِّي أَنْظُرُ فِيْمَا لا تَعْلَمُهُ مِنَ العَوَاقِبِ؛ **فَإِذَا خَفِيَتْ مَصْلَحَةُ العَوَاقِبِ عَلىٰ مُوْسَىٰ** عليه السلام مَعَ مَخْلُوْقٍ؛ فَأَوْلَىٰ أَنْ يَخْفَىٰ عَلَيْنَا كَثِيْرٌ مِنْ حِكْمَةِ الحَكِيْمِ.

وَهٰذَا أَصْلٌ؛ إِنْ لَمْ يَثْبُتْ عَنْدَ الإِنْسَانِ؛ أَخْرَجَهُ إِلى الٱعْتِرَاضِ والكُفْرِ، وَإِنْ ثَبَتَ؛ اسْتَرَاحَ عِنْدَ نُزُوْلِ كُلِّ آفةٍ.

٢٨٥ - فصل: بإنعامك المتقدم أتوسل إليك

١٢٧٣ ـ بَلَغَنِي عَنْ بَعْضِ الكُرَمَاءِ أَنَّ رَجُلًا سَأَلَهُ، فَقَالَ: **أَنَا الَّذِي أَحْسَنْتَ [إِليَّ][2] يَوْمَ كَذَا وَكَذَا.** فَقَالَ: **مَرْحَبًا بِمَنْ يَتَوَسَّلُ إِلَيْنَا بِنَا.** ثُمَّ قَضَىٰ حَاجَتَهُ.

١٢٧٤ ـ فَأَخَذْتُ مِنْ ذٰلِكَ إِشَارَةً، فَنَاجَيْتُ بِهَا، فَقُلْتُ: **أَنْتَ الَّذِي هَدَيْتَهُ مِنْ زَمَنِ الطُّفُوْلَةِ، وَحَفِظْتَهُ مِنَ الضَّلَالِ، وَعَصَمْتَهُ عَنْ كَثِيْرٍ مِنَ الذُّنُوْبِ، وَأَلْهَمْتَهُ طَلَبَ العِلْمِ، لا بِفَهْمٍ لِشَرَفِهِ، لِمَوْضِعِ الصِّغَرِ، وَلا بِحُبِّ وَالِدِهِ، وَرَزَقْتَهُ فَهْمًا لِتَفَقُّهِهِ وَتَصْنِيْفِهِ، وَهَيَّأْتَ لَهُ أَسْبَابَ جَمْعِهِ، وَقُمْتَ بِرِزْقِهِ مِنْ غَيْرِ تَعَبٍ مِنْهُ، وَلَا ذُلٍّ لِلْخَلْقِ بِالسُّؤَالِ.**

---

(١) **الأكابر**: يعني المتكبرين كما يفهم من السياق.

(٢) في الأصل: إليك، ولا يصح، وما أثبته هو ما يقتضيه سياق الكلام.

وَحَامَيْتَ عَنْهُ الأَعْدَاءَ، فَلَمْ يَقْصِدْهُ جَبَّارٌ، وَجَمَعْتَ لَهُ مَا لَمْ تَجْمَعْ لِأَكْثَرِ الخَلْقِ مِنْ فُنُونِ العِلْمِ، الّتِي لا تَكَادُ تَجْتَمِعُ فِي شَخْصٍ، وَأَضَفْتَ إِلَيْهَا تَعَلُّقَ القَلْبِ بِمَعْرِفَتِكَ وَمَحَبَّتِكَ، وَحُسْنَ العِبَارَةِ[1] وَلُطْفَها فِي الدَّلالةِ عَلَيْكَ، وَوَضَعْتَ لَهُ فِي القُلُوْبِ القَبُوْلَ، حَتَّى إِنَّ الخَلْقَ يُقْبِلُوْنَ عَلَيْهِ، وَيَقْبَلونَ مَا يَقُوْلُهُ، وَلا يَشُكُّوْنَ فِيْهِ، وَيَشْتَاقُوْنَ إِلىٰ كَلامِهِ، وَلا يُدْرِكُهمُ المَلَلُ مِنْهُ، وَصُنْتَهُ بِالعُزْلَةِ عَنْ مُخَالَطَةِ مَنْ لا يَصْلُحُ، وَآنَسْتَهُ فِي خَلْوتِه بِالعِلْمِ تارةً، وَبِمُنَاجَاتِكَ أُخْرَى، وَإِنْ ذَهَبْتُ أَعُدُّ؛ لَمْ أَقدِرْ علىٰ إِحْصَاءِ عُشَيْرِ العُشَيْرِ ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ﴾ [إبراهيم: ٣٤]. فَيَا مُحْسِنًا إِلَيَّ قَبْلَ أَنْ أَطْلُبَ! لَا تُخَيِّبْ أَمَلِي فِيْكَ وَأَنَا أَطْلُبُ؛ فَبِإِنْعَامِكَ المُتَقَدِّمِ أَتَوَسَّلُ إِلَيْكَ.

٢٨٦ - فصل: المحمود من الأشياء المتوسط

١٢٧٥ - سُبْحَانَ مَنْ جَعَلَ الخَلْقَ بَيْنَ طَرَفَيْ نَقِيْضٍ، وَالمُتَوَسِّطُ مِنْهُم يَنْدُرُ! مِنْهُم مَنْ يَغْضَبُ، فَيَقتُلُ وَيَضْرِبُ، **وَمِنْهُم**: مَنْ هُوَ أَبْلَهُ بِقُوَّةِ الحِلْمِ، لا يُؤثِّرُ عَنْدَهُ السَّبُّ! **وَمِنْهُم**: شَرِهٌ يَتَنَاوَلُ كُلَّ مَا يَشْتَهِي. **وَمِنْهم**: مُتَزهِدٌ يَتَجَفَّفُ، فَيَمْنَعُ النَّفْسَ حَقَّها! **وَكذٰلِكَ سَائِرُ الأَشْيَاءِ؛ المَحْمُوْدُ مِنْهَا المُتَوَسِّطُ**: فَالمُنْفِقُ كُلَّ ما يَجِدُ **مُبَذِّرٌ**، **والبَّخِيْلُ** يُخَبِّئُ المَالَ، وَيَمْنَعُ نَفْسَه حَظَّها.

١٢٧٦ - وَمَعْلُوْمٌ أَنَّ المَالَ لا يُرَادُ لِنَفْسِهِ، بَلْ لِلْمَصَالِحِ؛ فَإِذَا بَذَّرَ الإِنْسَانُ فِيْهِ؛ احْتَاجَ إِلىٰ بَذْلِ وَجْهِهِ وَدِيْنِهِ وَمِنَّةِ البُخَلاءِ عَلَيْهِ، وَهٰذَا لا يَصْلُحُ، وَلأَنْ يُخَلِّفَ الإِنْسَانُ لِعَدُوِّهِ أَحْسَنُ مِنْ أَنْ يَحْتَاجَ إِلىٰ صَدِيْقِهِ.

١٢٧٧ - وَمِنْ النَّاسَ مَنْ يَبْخَلُ، ثُمَّ يَتَفَاوَتُوْنَ فِي البُخْلِ، حَتَّى يَنْتَهِيَ بالبُخَلاءِ الأَمْرُ إِلىٰ عِشْقِ عَيْنِ المَالِ؛ فَرُبَّما مَاتَ أَحَدُهُم هُزَالًا، وَهُوَ لا يُنْفِقُهُ، فَيَأْخُذُهُ الغَيْرُ، وَيَنْدَمُ المُخَلِّفُ!! وَلَقَدْ بَلَغَنِي فِي هٰذَا مَا لَيْسَ فَوْقَه مَزِيْدٌ، ذَكَرْتُهُ لِتَعْتَبِرَ بِهِ:

١٢٧٨ - فَحَدَّثَني شَيْخُنَا أَبُوْ الفَضْلِ بْنُ نَاصِرٍ[2]، عَنْ شَيْخِهِ عَبْدِ المُحْسِنِ

---

(١) في الأصل: العبادة، وهو تصحيف.

(٢) محمد بن ناصر إسلامي البغدادي (٤٦٧ ـ ٥٥٠): الإمام المحدث الحافظ، أول شيخ لابن الجوزي ربي يتيمًا في كفالة جده لأمه الفقيه أبي حكيم الخبري، وكان كثير الذكر، سريع الدمعة.

الصُّوْرِيّ[1]؛ قَالَ: كَانَ بِصُوْرٍ تاجِرٌ فِي غُرْفَةٍ لَهُ، يَأْخُذُ كُلَّ لَيْلَةٍ مِنَ البَقَّالِ رَغِيْفَيْنِ وَجَوْزَةً، فَيَدْخُلُ إِلىٰ غُرْفَتِهِ وَقْتَ المَغْرِبِ، فَيُضْرِمُ النَّارَ فِي الجَوْزَةِ، فَتُضِيءُ بِمِقْدَارِ مَا يَنْزِعُ ثَوْبَه، وَفِي زَمَانِ إِحْرَاقِ القِشْرِ تَكُوْنُ قدِ اسْتَوَتْ[2]، فَيَمْسَحُ بِهَا الرَّغِيْفَيْنِ وَيَأْكُلُهُمَا. فَبَقِي عَلىٰ هٰذَا مُدَّةً، فَمَاتَ، فَأَخَذَ مِنْهُ مَلِكُ صُوْرٍ ثَلاثِيْنَ أَلْفًا!!

١٢٧٩ ـ وَرَأَيْتُ أَنَا رَجُلًا مِنْ كِبَارِ العُلَمَاءِ قَدْ مَرِضَ، فَاسْتَلْقَىٰ عِنْدَ بَعْضِ أَصْدِقَائِهِ، لَيْسَ لَهُ مَنْ يَخْدُمُهُ، ولا [من][3] يُرافِقُهُ، وهو مُضِرٌّ[4]، فَلَمَّا مَاتَ؛ وَجَدُوْا بَيْنَ كُتُبِهِ خَمْسَ مِئَةِ دِيْنَارٍ!!

١٢٨٠ ـ وَحَدَّثَنِي أَبُوْ الحَسَنِ الرَّانديسيُّ؛ قَالَ: مَرِضَ رَجُلٌ عِنْدَنَا، فَبَعَثَ إِلَيَّ، فَحَضَرْتُ، فَقَالَ: قَدْ خَتَمَ القَاضِي عَلىٰ مَالِي. فَقُلْتُ: إِنْ شِئْتَ قُمْتُ وَفَتَحْتُ الخَتْمَ، وَأَعْطَيْتُكَ الثُّلُثَ تُفَرِّقُهُ، وَتَعْمَلُ بِهِ مَا تَشَاءُ. فَقَالَ: لا واللهِ؛ مَا أُرِيْدُ أَنْ أُفَرِّقَهُ، بَلْ أُرِيْدُ مَالِي يَكُوْنُ عِنْدِي. فَقُلْتُ: مَا يُعْطُوْنَكَ، بل[5] أنا آخُذُ لَكَ الثُّلُثَ كَيْ تَكُوْنَ حُرًّا فيه. فَقَالَ: لا أُرِيْدُهُ. فَمَاتَ، وَأُخِذَ مَالُهُ!!

١٢٨١ ـ قَالَ: وَجَاءَ رَجُلٌ، فَحَدَّثَنِي بِعَجِيْبَةٍ؛ قَالَ: مَرِضَتْ حَمَاتِي، فَقَالَتْ لِي: أُرِيْدُ أَنْ تَشْتَرِيَ لِيْ خَبِيْصًا[6]، فَاشْتَرَيْتُ لَهَا، وَكَانَتْ مُلْقَاةً فِي صُفَّةٍ[7]، وَنَحْنُ فِي صُفَّةٍ أُخْرَىٰ، فَجَاءَنِي وَلَدِي الصَّغِيْرُ، وَقَالَ: يَا سَيِّدِي! إِنَّهَا تَبْلَعَ الذَّهَبَ!! فَقُمْتُ، وَإِذَا بِهَا تَجْعَلُ الدِّيْنَارَ فِي شَيْءٍ مِنَ الخَبِيْصِ فَتَبْلَعُهُ! فَأَمْسَكْتُ يَدَهَا، وزَجَرْتُها عَنْ هٰذَا، **فَقَالَتْ**: أَنَا أَخَافُ أَنْ تَتَزَوَّجَ عَلىٰ ابْنَتِي. **فَقُلْتُ**: مَا أَفْعَلُ. **فَقَالَتْ**: احْلِفْ لِي! فَحَلَفْتُ، فَأَعْطَتْنِي بَاقِي الذَّهَبِ، ثُمَّ مَاتَتْ، فَدَفَنْتُهَا، فَلَمَّا كَانَ بَعْدَ أَشْهُرٍ؛ مَاتَ لَنَا طِفْلٌ، فَحَمَلْنَاهُ إِلَيْهَا، وَأَخَذْتُ مَعِي خِرْقَةَ خَامٍ، وَقُلْتُ لِلحَفَّارِ: اجْمَعْ لِي عِظَامَ

---

(١) عبد المحسن بن محمد بن أحمد الصوري، أبو محمد، شاعر الشام، توفي سنة (٤١٩هـ) وله ثمانون سنة.

(٢) نضجت.

(٣) زيادة من المحقق.

(٤) **مضرر**: ضرير أي أعمى.

(٥) في الأصل: بلى، وهو تصحيف.

(٦) **الخبيص**: طعام يصنع من تمر وسمن.

(٧) **صفة**: موضع في الدار تكون مظللة تحجب أشعة الشمس. ويسمّى في الشام: المصطبة.

تِلْكَ العَجُوْزِ فِي الخِرْقَةِ، فَجِئْتُ بِهَا إِلىٰ البَيْتِ، وَتَرَكْتُهَا فِي إِجَّانةٍ[1]، وَصَبَبْتُ عَلَيْهَا المَاءَ، وَحَرَّكْتُهَا، فَأَخْرَجْتُ ثَمَانِيْنَ دِيْنَارًا أَوْ نَحْوَهَا، كانَتْ قَدِ ابْتَلَعَتْها[2]!!

١٢٨٢ ـ وَحَكَىٰ لِي صَدِيْقٌ لَنَا: أَنَّ رَجُلًا مَاتَ، ودُفِنَ فِي الدَّارِ، ثُمَّ نُبِشَ بَعْدَ مُدَّةٍ لِيُخْرَجَ، فوُجِدَ تَحْتَ رَأْسِهِ لَبِنَةٌ مُقَيَّرَةٌ[3]، فَسُئِلَ أَهْلُهُ عَنْهَا؟ **فَقَالُوْا**: هُوَ قَيَّرَ هٰذِهِ اللَّبِنَةَ، وَأَوْصَىٰ أَنْ تُتْرَكَ تَحْتَ رَأْسِهِ فِي قَبْرِهِ، **وَقَالَ**: إِنَّ اللَّبِنَ يَبْلَىٰ سَرِيْعًا، وَهٰذِهِ لِمَوْضِعِ القَارِ لا تَبْلَىٰ. فَأَخَذُوْهَا، فَوَجَدُوْهَا رَزِيْنَةً[4]، فَكَسَرُوْهَا، فَوَجَدُوْا فِيْهَا تِسْعَ مِئَةِ دِيْنَارٍ، فَتَوَلَّاهَا أَصْحَابُ التَّرِكاتِ!!

١٢٨٣ ـ وَبَلَغَنِي أَنَّ رَجُلًا كَانَ يَكْنُسُ المَسَاجِدَ، وَيَجْمَعُ تُرَابَهَا، ثُمَّ ضَرَبَه لَبِنًا، **فَقِيْلَ لَهُ**: هٰذَا لِأَيِّ شَيْءٍ؟ **فَقَالَ**: هٰذَا تُرَابٌ مُبَارَكٌ، وَأُرِيْدُ أَنْ يَجْعَلُوْهُ عَلىٰ لَحْدِي. فَلَمَّا مَاتَ؛ جُعِلَ عَلىٰ لَحْدِهِ، فَفَضَلَ مِنْهُ لَبِناتٌ، فرَمَوْهَا فِي البَيْتِ، فَجَاءَ المَطَرُ، فَتَفَسَّخَتِ اللَّبِنَاتُ؛ فَإِذَا فِيْهَا دَنَانِيرُ، فمَضَوا، وَكَشَفُوْا اللَّبِنَ عَنْ لَحْدِهِ، وَكُلُّهُ مَمْلُوْءٌ دَنَانِيْرَ!!

١٢٨٤ ـ وَلَقَدْ مَاتَ بَعْضُ أَصْدِقَائِنا، وَكُنْتُ أَعْلَمُ [أنّ] لَهُ مَالًا كَثِيْرًا، وَطَالَ مَرَضُهُ، فَمَا أَطْلَعَ أَهْلَهُ عَلىٰ شَيْءٍ، وَلا أَكَادُ أَشُكُّ أَنَّهُ مِنْ شُحِّهِ وَحِرْصِهِ عَلىٰ الحَيَاةِ وَرَجَائِهِ أَنْ يَبْقَىٰ لَمْ يُعْلِمْهمْ بِمَدْفُوْنِهِ؛ خَوْفًا أَنْ يُؤْخَذَ، فَيَحْيَا هُوَ، وَقَدْ أَخِذَ المَالُ، وَمَا يَكُوْنُ بَعْدَ هٰذَا الخِزْيِ شَيْءٌ!!

١٢٨٥ ـ وَحَدَّثَنِي بَعْضُ أَصْحَابِنَا عَنْ حَالةٍ شَاهَدَهَا مِنْ هٰذَا الفَنِّ؛ قَالَ: كَانَ فُلَانٌ لَهُ وَلَدَانِ ذَكَرَانِ وَبِنْتٌ، وَلَهُ أَلْفُ دِيْنَارٍ مَدْفُوْنَةٌ، فَمَرِضَ مَرَضًا شَدِيْدًا، فَاحْتَوَشَتْهُ[5] أَهْلُهُ، فَقَالَ لِأَحَدِ ابْنَيْهِ: لا تَبْرَحْ مِنْ عِنْدِي! فَلَمَّا خَلا بِهِ؛ قَالَ لَهُ: إِنَّ أَخَاكَ مَشْغُوْلٌ بِاللَّعِبِ بِالطُّيُوْرِ، وَإِنَّ أُخْتَكَ لَهَا زَوْجٌ تُرْكِيٌّ، وَمَتَىٰ وَصَلَ مِنْ مَالِي

---

(١) **إجانة**: وعاء يستعمل لغسل الثياب.

(٢) هذه القصة تذكر من باب الطرائف لا من باب الحقائق.

(٣) **مقيرة**: مطلية بالقار وهو الزفت.

(٤) **رزينة**: ثقيلة.

(٥) **احتوشته أهله**: اجتمعوا حوله.

إِلَيْهِمَا شَيْءٌ؛ أَنْفَقُوْه فِي اللَّعِبِ، وَأَنْتَ عَلىٰ سِيْرَتِي وَأَخْلَاقِي، وَلِي فِي المَوْضِعِ الفُلَانِيِّ أَلْفُ دِيْنَارٍ؛ فَإِذَا أَنَا مُتُّ؛ فَخُذْهَا وَحْدَك. فَاشْتَدَّ بِالرَّجُلِ المَرَضُ، فَمَضَىٰ الوَلَدُ، فَأَخَذَ المَالَ، فَعُوْفِي الأَبُ، فَجَعَلَ يَسْأَلُ الوَلَدَ أَنْ يَرُدَّ المَالَ إِلَيْهِ، فَلَا يَفْعَلُ، فَمَرِضَ الوَلَدُ وَأَشْفَىٰ[1]، فَجَعَلَ الأَبُ يَتَضَرَّعُ إِلَيْهِ وَيَقُوْلُ: وَيْحَكَ! خَصَصْتُكَ بِالمَالِ دُوْنَهُم، فَتَمُوْتُ، فَيَذْهَبُ المَالُ! وَيْحَكَ! لا تَفْعَلْ! فَمَا زَالَ بِهِ حَتَّى أَخْبَرَهُ بِمَكَانِهِ، فَأَخَذَهُ، ثُمَّ عُوْفِيَ الوَلَدُ، وَمَضَتْ مدَّةٌ، فمَرِضَ الأَبُ، فَاجْتَهَدَ الوَلَدُ أَنْ يُخْبِرَهُ بِمَكَانِ المَالِ وَبَالَغَ، فَلَمْ يُخْبِرْهُ، وَمَاتَ، وَضَاعَ المَالُ. فَسُبْحَانَ مَنْ أَعْدَمَ هٰؤلاءِ العُقُوْلَ والفُهُوْمَ! ﴿إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾ [الفرقان: ٤٤].

٢٨٧ - فصل: إذا أردت أن تصادق أحدًا فاختبره

١٢٨٦ - كَانَ لَنَا أَصْدِقَاءُ وَإِخْوَانٌ أَعْتَدُّ[2] بِهِم، فَرَأَيْتُ مِنْهُم مِنَ الجَفَاءِ وَتَرْكِ شُرُوْطِ الصَّدَاقَةِ والأُخُوَّةِ عَجَائِبَ، فَأَخَذْتُ أَعْتِبُ، ثُمَّ انْتَبَهْتُ لِنَفْسِي، **فَقُلْتُ**: وَمَا يَنْفَعُ العِتَابُ؛ فَإِنَّهُمْ إِنْ صَلَحُوا؛ فَلِلْعِتَابِ لا لِلصَّفَاءِ؟! فَهَمَمْتُ بِمُقَاطَعَتِهِم! ثُمَّ تَفَكَّرْتُ، فَرَأَيْتُ النَّاسَ بَيْنَ مَعَارِفَ وَأَصْدِقَاءَ فِي الظَّاهِرِ، وَإِخْوَةٍ مُبَاطِنِيْن، **فَقُلْتُ**: لا تَصْلُحُ مُقَاطَعَتُهُمْ، إِنَّمَا يَنْبَغِي أَنْ تَنْقُلَهم مِنْ دِيْوَانِ الأُخُوَّةِ إِلىٰ دِيْوَانِ الصَّدَاقَةِ الظَّاهِرَةِ؛ فَإِنْ لَمْ يَصْلُحُوْا لَهَا؛ نَقَلْتَهُمْ إِلىٰ جُمْلَةِ المَعَارِفِ، وَعَامَلْتَهُم مُعَامَلَةَ المَعَارِفِ، وَمِنَ الغَلَطِ أَنْ تُعَاتِبَهُم. فَقَدْ قَالَ **يَحْيَىٰ بْنُ مَعَاذٍ**[3]: بِئْسَ الأَخُ أَخٌ تَحْتَاجُ أَنْ تَقُوْلَ لَهُ: اذكُرْنِي فِي دُعَائِك.

١٢٨٧ - وَجُمْهُوْرُ النَّاسِ اليَوْمَ مَعَارِفُ، وَيَنْدُرُ فِيْهِم صَدِيْقٌ فِي الظَّاهِرِ، فَأَمَّا الأُخُوَّةُ والمُصَافَاةُ؛ فَذَاكَ شَيْءٌ نُسِخَ؛ فَلَا يُطْمَعُ فِيْهِ، وَمَا أَرَىٰ الإِنْسَانَ تَصْفُوْ لَهُ أُخُوَّةٌ مِنَ النَّسَبِ ولا ولدُهُ ولا زوجتُهُ؛ فَدَعِ الطَّمَعَ فِي الصَّفَا، وَخُذْ عَنْ الكُلِّ جَانِبًا، وعَامِلْهُم مُعَامَلَةَ الغُرَبَاءِ! وَإِيَّاكَ أَنْ تَنْخَدِعَ بِمَنْ يُظْهِرُ لَكَ الوُدَّ؛ فَإِنَّهُ مَعَ الزَّمَانِ يَبِيْنُ

---

(١) **أشفى**: أشرف علىٰ الموت. (٢) **أعتدّ بهم**: أعتز بصداقتهم.

(٣) يحيى بن معاذ بن جعفر الرازي، أبو زكريا الواعظ. من كبار المشايخ، له كلام جيد، ومواعظ مشهورة، توفي سنة (٢٥٨هـ).

لَكَ الحَالُ فِيْمَا أَظْهَرَهُ، وَرُبَّمَا أَظْهَرَ لَكَ ذٰلِكَ لِسَبَبٍ يَنَالُهُ مِنْكَ!!

١٢٨٨ ـ وَقَدْ قَالَ **الفُضَيْلُ بْنُ عِيَاضٍ**: «إِذَا أَرَدْتَ أَنْ تُصَادِقَ صَدِيْقًا؛ فَأَغْضِبْهُ؛ فَإِنْ رَأَيْتَهُ كَمَا يَنْبَغِي؛ فَصَادِقْه.

وَهٰذَا[1] اليَوْمَ مُخَاطَرَةٌ؛ لِأَنَّكَ إِذَا أَغْضَبْتَ أَحَدًا؛ صَارَ عَدُوًّا فِي الحَالِ. والسَّبَبُ فِي نَسْخِ حُكْمِ الصَّفَا: أَنَّ السَّلَفَ كَانَت هِمَّتَهم الآخِرَةُ وَحْدَهَا، فَصَفَتْ نِيَّاتُهُم فِي الأُخُوَّةِ والمُخَالَطَةِ، فَكَانَتْ دِيْنًا لا دُنْيا. وَالآنَ؛ فَقَدِ اسْتَولَىٰ حُبُّ الدُّنيا عَلىٰ القُلُوْبِ؛ فَإِنْ رَأَيْتَ مُتَمَلِّقًا فِي بَابِ الدِّيْنِ؛ فَاخْبُرْه[2] تَقْلِهِ[3].

٢٨٨ - فصل: العجب لمطلق يؤثر القيد ومستريح يؤثر التعب

١٢٨٩ ـ رَأَيْتُ المُعَافَىٰ لا يَعْرِفُ قَدْرَ العَافِيَةِ إِلَّا فِي المَرَضِ، كَمَا لا يَعْرِفُ شُكْرَ الإِطْلَاقِ إِلَّا فِي الحَبْسِ.

١٢٩٠ ـ **وَتَأَمَّلْتُ** عَلىٰ الآدَمِيِّ حَالَةً عَجِيْبَةً، وَهُوَ أَنْ تَكُوْنَ مَعَهُ ٱمْرَأَةٌ لا بَأْسَ بِهَا؛ إِلَّا أَنَّ قَلْبَهُ لَا يَتَعَلَّقُ بِمَحَبَّتِهَا تَعَلُّقًا يَلْتَذُّ بِهِ، وَلِذٰلِكَ سَبَبَانِ:

أَحَدُهُمَا: أَنْ تَكُوْنَ غَيْرَ غَايَةٍ فِي الحُسْنِ.

والثَّانِي: أَنَّ كُلَّ مَمْلُوْكٍ مَكْرُوْهٌ، والنَّفْسُ تَطْلُبُ مَا لا تَقْدِرُ عَلَيْهِ.

فَتَرَاهُ يَضِجُّ وَيَشْتَهِي شَيْئًا يُحِبُّه، أَوِ امْرَأَةً يَعْشَقُهَا، وَلا يَدْرِيْ أَنَّهُ إِنَّمَا يَطْلُبُ قَيْدًا وَثِيْقًا؛ يَمْنَعُ القَلْبَ مِنَ التَّصَرُّفِ فِي أُمُوْرِ الآخِرَةِ، أَوْ فِي أَيِّ عِلْمٍ أَوْ عَمَلٍ، وَيَخْبِطُهُ فِي تَصْرِيْفِ الدُّنْيَا، فَيَبْقَىٰ ذٰلِكَ العَاشِقُ أَسِيْرَ المَعْشُوْقِ، هَمُّهُ كُلُّهُ مَعَهُ. فَالْعَجَبُ لِمُطْلَقٍ يُؤْثِرُ القَيْدَ، وَمُسْتَرِيْحٍ يُؤْثِرُ التَّعَبَ!!

١٢٩١ ـ فَإِنْ كَانَتْ تِلْكَ المَرْأَةُ تُحْتَاجُ **أَنْ تُحْفَظَ**؛ فَالْوَيْلُ لَهُ، لَا قَرَارَ لَهُ، ولَا سُكُوْنَ. وَإِنْ كَانَتْ مِنَ **المُتَبَرِّجَاتِ** اللَّوَاتِي لا يُؤْمَنُ فَسَادُهُنَّ؛ فَذَاكَ هَلَاكُهُ بِمَرَّةٍ؛ فَلَا هُوَ إِنْ نَامَ يَلْتَذُّ بِنَوْمِهِ، وَلا إِنْ خَرَجَ مِنَ الدَّارِ يَأْمَنُ مِنْ مِحْنَةٍ. وَإِنْ كَانَتْ تُرِيْدُ **نَفَقَةً**

---

(١) أي: الإغضاب.

(٢) اعرفه واختبره.

(٣) **تقله**: تجفوه وتبتعد عنه.

واسِعَةً وَلَيْسَ لَهُ؛ فَكَمْ يَدْخُلُ مُدْخَلَ سَوْءٍ لِأَجْلِهَا. وَإِنْ كَانَتْ تُؤْثِرُ **الجِمَاعَ**، وَقَدْ عَلَتْ سِنُّهُ؛ فَذَاكَ الهَلَاكُ العَظِيْمُ. وَإِنْ كانَتْ **تُبْغِضُهُ**؛ فَمَا بَقِيَتْ مِنْ أَسْبَابِ تَلَفِهِ بَقِيَّةٌ، فَيَكُوْنُ هٰذَا سَاعِيًا فِي تَلَفِ نَفْسِهِ؛ كَمَا قَالَ القَائِلُ:

نُحِبُّ القُدُوْدَ وَنَهْوَىٰ الخُدُوْدَ ... وَنَعْلَمُ أَنَّا نُحِبُّ المَنُوْنَا

وَهٰذَا عَلَىٰ الحَقِيْقَةِ كَعَابِدِ صَنَمٍ.

١٢٩٢ ـ فَلْيَتَّقِ اللهَ مَنْ عِنْدَهُ امْرَأَةٌ لا بَأْسَ بِهَا، وَلْيُعْرِضْ عَنْ حَدِيْثِ النَّفْسِ وَمُنَاهَا؛ فَمَا لَهُ مُنْتَهًى. وَلَوْ حَصَلَ لَهُ غَرَضُهُ كَمَا يُرِيْدُ؛ وَقَعَ المَلَلُ، وَطَلَبَ ثَالِثَةً، ثُمَّ يَقَعُ المَلَلُ، وَيَطْلُبُ رَابِعَةً. وَمَا لِهٰذَا آخِرٌ[1]، إِنَّمَا يُفِيْدُهُ ذٰلِكَ فِي العَاجِلِ، تَعَلُّقَ قَلْبِهِ، وَأَسْرَ لُبِّهِ، فَيَبْقَىٰ كالمَبْهُوْتِ[2]، فِكْرُهُ كُلُّه فِي تَحْصِيْلِ مَا يُرِيْدُ مَحْبُوْبُهُ؛ فَإِنْ جَرَتْ فُرْقَةٌ أَوْ آفَةٌ؛ فَتِلْكَ الحَسَرَاتُ الدَّائِمَةُ إِنْ بَقِيَ، أَوِ التَّلَفُ عَاجِلًا. وَأَيْنَ المُسْتَحْسَنُ المَصُوْنُ الدِّيْنِ، القَنُوْعُ لِمَنْ يُحِبُّهُ؟! هٰذَا أَقَلُّ مِنَ الكِبْرِيْتِ الأَحْمَرِ.

فَلْيَنْظُرْ فِي تَحْصِيْلِ ما يَجْمَعُ مُعْظَمَ الهَمِّ، وَلا يَلْتَفِتْ إِلىٰ سَوَادِ الهَوَىٰ وَغَايَةِ المُنَى؛ يَسْلَمْ.

٢٨٩ - فصل: إذا تم علم الإنسان لم يدلَّ بعمله

١٢٩٣ ـ إِذَا تَمَّ عِلْمُ الإِنْسَانِ؛ لَمْ يَرَ لِنَفْسِهِ عَمَلًا، وَإِنَّمَا يَرَىٰ إِنْعَامَ المُوَفِّقِ لِذٰلِكَ العَمَلِ، الَّذِي يَمْنَعُ العَاقِلَ أَنْ يَرَىٰ لِنَفْسِهِ عَمَلًا، أَوْ يُعْجَبَ بِهِ، وَذٰلِكَ بِأَشْيَاءَ: **مِنْهَا**: أَنَّهُ وَفَّقَ لِذٰلِكَ العَمَلَ: ﴿حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِى قُلُوبِكُمْ﴾ [الحجرات: ٧]. **وَمِنْهَا**: أَنَّهُ إِذَا قِيْسَ بِالنِّعَمِ؛ لَمْ يَفِ بِمِعْشَارِ عُشْرِهَا. **وَمِنْهَا**: أَنَّهُ إِذَا لُوحِظَتْ عَظَمَةُ المَخْدُوْمِ؛ احْتَقَرَ كُلَّ عَملٍ وتَعَبُّدٍ. هٰذَا إِذَا سَلِمَ مِنْ شَائِبَةٍ، وخَلَصَ مِنْ غَفْلَةٍ.

فَأَمَّا وَالغَفَلَاتُ تُحِيْطُ بِهِ؛ فَيَنْبَغِي أَنْ يَغْلِبَ الحَذَرُ مِنْ رَدِّهِ، وَيَخَافَ العِتَابَ عَلىٰ التَّقْصِيرِ فِيْهِ، فَيَشْتَغِلَ عَنِ النَّظَرِ إِلَيْهِ.

---

(١) في الأصل: أخير، وهو تصحيف. (٢) **المبهوت**: المدهوش.

١٢٩٤ ـ وَتَأَمَّلْ عَلىٰ الفُطَناءِ أَحْوَالَهُم فِي ذٰلِكَ: **فَالْمَلائِكَةُ** الّذِيْنَ يُسَبِّحُوْنَ اللَّيْلَ والنَّهَارَ، لا يَفْتُرُوْنَ، قَالُوْا: مَا عَبَدْنَاكَ حَقَّ عِبَادَتِكَ. **والخَلِيْلُ** عليه السلام يَقُوْلُ: ﴿وَٱلَّذِىٓ أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِى﴾ [الشعراء: ٨٢]، وَمَا أَدَلَّ[١] بِتَصَبُّرِهِ عَلىٰ النَّارِ، وَتَسْلِيْمِهِ الوَلَدَ إِلىٰ الذَّبْحِ.

وَرَسُوْلُ اللهِ ﷺ يَقُوْلُ: «**مَا مِنْكُمْ مَنْ يُنْجِيْهِ عَمَلُهُ**». قَالُوْا: وَلَا أَنْتَ؟ قَالَ: «**وَلَا أَنَا؛ إِلَّا أَنْ يَتَغَمَّدَنِيَ اللهُ بِرَحْمَتِهِ**»[٢]. **وَأَبُوْ بَكْرٍ** رضي الله عنه يَقُوْلُ: وَهَلْ أَنَا وَمَالِي إِلَّا لَكَ يَا رَسُوْلَ اللهِ؟! **وَعُمَرُ** رضي الله عنه يَقُوْلُ: لَوْ أَنَّ لِي طِلَاعَ الأَرْضِ[٣]؛ لافْتَدَيْتُ بِهَا مِنْ هَوْلِ مَا أَمَامِي قَبْلَ أَنْ أَعْلَمَ مَا الخَبَرُ. **وَابْنُ مَسْعُوْدٍ** يَقُوْلُ: لَيْتَنِي إِذَا مِتُّ لا أُبْعَثُ. **وَعَائِشَةُ** رضي الله عنها تَقُوْلُ: لَيْتَنِي كُنْتُ نَسْيًا مَنْسِيًّا. وَهٰذَا شَأْنُ جَمِيْعِ العُقَلاءِ؛ فَرَضِيَ اللهُ عَنِ الجَمِيْعِ.

١٢٩٥ ـ وَقَدْ رُوِيَ عَنْ قَوْمٍ مِنَ صُلَحَاءِ بَنِي إِسْرَائِيْلَ مَا يَدُلُّ عَلىٰ قِلَّةِ الأَفْهَامِ لِمَا شَرَحْتُهُ؛ لِأَنَّهُم نَظَرُوْا إِلىٰ أَعْمَالِهِم، فَأَدَلُّوا بها[٤].

١٢٩٦ ـ فَمِنْهُ حَدِيْثُ العَابِدِ الّذي تَعَبَّدَ خَمْسَ مِئَةِ سَنَةٍ فِي جَزِيْرَةٍ، وَأَخْرَجَ لَهُ كُلَّ لَيْلَةٍ رُمانةً، وَسَأَلَ اللهَ تَعَالىٰ أَنْ يُمِيْتَهُ فِي سُجُوْدِهِ؛ فَإِذَا حُشِرَ؛ **قِيْلَ لَهُ**: ٱدْخُلِ الجَنَّةَ بِرَحْمَتِي! **قَالَ**: بَلْ بِعَمَلِي. فَيُوْزَنُ جَمِيْعُ عَمَلِهِ بِنِعْمَةٍ وَاحِدَةٍ؛ فَلا يَفِي، **فَيَقُوْلُ**: يَا رَبِّ! بِرَحْمَتِكَ[٥].

١٢٩٧ ـ وَكَذٰلِكَ أَهْلُ الغَارِ الّذِيْنَ انْطَبَقَتْ عَلَيْهِم الصَّخْرَةُ: فَإِنَّ **أَحَدَهُم**: تَوَسَّلَ بِعَمَلٍ كانَ يَنْبَغِي أَنْ يَسْتَحْيِيَ مِنْ ذِكْرِهِ، وَهُوَ أَنَّهُ عَزَمَ عَلىٰ الزِّنا، ثُمَّ خَافَ العُقُوْبَةَ، فَتَرَكَهُ؛ فَلَيْتَ شِعْرِي، بِمَاذا يُدِلُّ مَنْ خَافَ أَنْ يُعَاقَبَ عَلىٰ شَيْءٍ، فَتَرَكَهُ تَخَوُّفَ

---

(١) **أدل**: مَنَّ.

(٢) رواه البخاري (٥٦٧٣)، ومسلم (٢٨١٦) عن أبي هريرة رضي الله عنه. قلت: كل طاعات ابن آدم هي شكر على نعم الله التي لا تحصى، وهي وإن بلغت ما بلغت لا تفي بحق شكر نعمة واحدة من نعم الله تعالى كنعمة البصر مثلًا، أمّا الجزاء على الطاعة إن في الدنيا أو في الآخرة فمَحْضُ فضلٍ من الله سبحانه وتعالى.

(٣) طلاع الأرض: ملؤها.

(٤) منّوا بها.

(٥) رواه الحاكم (٤/ ٢٥٠) من طريق سليمان بن هرم قال الذهبي: غير معتمد (ضعيف).

العُقُوْبةِ[1]؟! إِنَّمَا لَوْ كَانَ مُبَاحًا فَتَرَكَهُ؛ كَانَ فِيْهِ ما فِيْهِ. وَلَوْ فَهِمَ؛ لَشَغَلَهُ خَجَلُ الهِمَّةِ عَنِ الإِدْلَالِ؛ كَمَا قَالَ يُوْسُفُ عليه السلام: ﴿وَمَآ أُبَرِّئُ نَفْسِيٓ﴾ [يوسف: ٥٣][2]!! **والآخَرُ**: تَرَكَ صِبْيَانَه يَتَضَاغَوْنَ[3] إِلىٰ الفَجْرِ لِيَسْقِيَ أَبَوَيْهِ اللَّبَنَ. وَفِي هٰذَا البِرِّ أَذًى لِلأَطْفَالِ، وَلٰكِنَّ الفَهْمَ عَزِيْزٌ[4]. وَكَأَنَّهُمْ لَمَّا أَحْسَنُوا فِيْمَا ظَنُّوا؛ قَالَ لِسَانُ الحَالِ: أَعْطُوْهُمْ مَا طَلَبوا؛ فَإِنَّهُم يَطْلُبُوْنَ أُجْرَةَ مَا عَمِلُوْا[5].

١٢٩٨ ـ وَلَوْلَا عِزَّةُ الفَهْمِ؛ مَا تَكَبَّرَ مُتَكَبِّرٌ عَلىٰ جِنْسِهِ، وَلَكَانَ كُلُّ كَامِلٍ خَائِفًا مُحْتَقِرًا لِعَمَلِهِ، حَذِرًا مِنَ التَّقْصِيْرِ فِي شُكْرِ مَا أَنْعَمَ عَلَيْهِ. وَفَهْمُ هٰذَا المُشْرُوْحِ يُنَكِّسُ رَأْسَ الكِبْرِ، وَيُوْجِبُ مُسَاكَنَةَ الذُّلِّ؛ فَتَأَمَّلْهُ؛ فَإِنَّه أَصْلٌ عَظِيْمٌ.

٢٩٠ - فصل: الخوف بعد التوبة

١٢٩٩ ـ يَنْبَغِي لِلْعَاقِلِ أَنْ يَكُوْنَ عَلىٰ خَوْفٍ مِنْ ذُنُوْبِهِ، وَإِنْ تَابَ مِنْهَا، وَبَكَىٰ عَلَيْهَا. وَإِنِّي رَأَيْتُ أَكْثَرَ النَّاسِ قَدْ سَكَنُوا إِلىٰ قَبُوْلِ التَّوْبَةِ، وَكَأَنَّهم قَدْ قَطَعُوا عَلىٰ ذٰلِكَ! وَهٰذَا أَمْرٌ غَائِبٌ!! ثُمَّ لَوْ غُفِرَتْ؛ بَقِيَ الخَجَلُ مِنْ فِعْلِهَا.

١٣٠٠ ـ وَيُؤَيِّدُ الخَوْفَ بَعْدَ التَّوْبَةِ أَنَّهُ فِي (الصِّحَاحِ): أَنَّ النَّاسَ يَأْتُوْنَ إِلىٰ **آدَمَ** عليه السلام، فَيَقُولُوْنَ: اشْفَعْ لَنَا! فَيَقُوْلُ: ذَنْبِي، وَإِلىٰ **نُوْحٍ** عليه السلام، فَيَقُوْلُ: ذَنْبي، وَإِلىٰ **إِبْرَاهِيْمَ**.. وَإِلىٰ **مُوْسَى**.. وَإِلىٰ **عِيْسَى** صَلَوَاتُ اللهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِم. فَهٰؤلاءِ إِذَا اعْتُبِرَتْ ذُنُوْبُهم؛ لَمْ يَكُنْ أَكْثَرُها ذُنُوْبًا حَقِيْقَةً، ثُمَّ إِنْ كَانَتْ؛ فَقَدْ تَابُوْا مِنْهَا، وَاعْتَذَرُوْا، وَهُمْ بَعْدُ عَلىٰ خَوْفٍ مِنْهَا.

---

(١) عن ابن عباس رضي الله عنهما عن رسول الله ﷺ قال: «إن الله تعالى كتب الحسنات والسيئات، ثم بيّنَ ذلك» وفيه: «.. وإن همَّ بسيئةٍ فلم يعملها كتبها الله عنده حسنةً كاملةً» رواه البخاري (٦٤٩٠)، ومسلم (٣١).

(٢) الراجح أن هذا كلام امرأة العزيز كما يدل على ذلك سياق الآية.

(٣) **يتضاغون**: يتصايحون.

(٤) سيسوق المؤلف هذا الحديث وفيه مدح لفعل هؤلاء في الفصل (٣٨٣) من الملحق.

(٥) وهو حديث الشفاعة المشهور رواه البخاري (٣٣٤٠)، ومسلم (١٩٤) عن أبي هريرة رضي الله عنه.

١٣٠١ ـ ثُمَّ إِنَّ الخجَلَ بَعْدَ قَبُوْلِ التَّوْبَةِ لا يَرْتَفِعُ. وَمَا أَحْسَنَ مَا قَالَ **الفُضَيْلُ بْنُ عِيَاضٍ** رَحِمَهُ اللهُ: وَاسَوْأَتَاهُ مِنْكَ، وَإِنْ عَفَوْتَ! فَأُفٍّ وَاللهِ لِمُخْتَارِ الذُّنُوْبِ، ومُؤْثِرِ لَذَّةِ لَحْظَةٍ تَبْقَىٰ حَسْرَةً، لا تَزُوْلُ عَنْ قَلْبِ المُؤْمِنِ، وَإِنْ غُفِرَ لَهُ.

١٣٠٢ ـ فَالحَذَرَ الحَذَرَ مِنْ كُلِّ مَا يُوْجِبُ خَجَلًا. وَهٰذَا أَمْرٌ قَلَّ أَنْ يَنْظُرَ فِيْهِ تَائِبٌ أَوْ زَاهِدٌ؛ لِأَنَّهُ يَرَىٰ أَنَّ العَفْوَ قَدْ غَمَرَ الذَّنْبَ بِالتَّوْبَةِ الصَّادِقَةِ! وَمَا ذَكَرْتُهُ يُوْجِبُ دَوَامَ الحَذَرِ وَالخَجَلِ.

٢٩١ - فصل: نعوذ بالله من سوء الفهم

١٣٠٣ ـ نَعُوْذُ بِاللهِ مِنْ سُوْءِ الفَهْمِ، وَخُصُوْصًا مِنَ المُتَّسِمِيْنَ بِالعِلْمِ. رَوَىٰ أَحْمَدُ فِي «مُسْنَدِه»[١]: أَنَّهُ تَنَازَعَ أَبُوْ عَبْدِ الرَّحْمٰنِ السُّلَمِيُّ[٢] وَحِبَّانُ بْنُ **عَطِيَّةَ**[٣]، فَقَالَ أَبُوْ عَبْدِ الرَّحْمٰنِ لِحِبَّانَ: قَدْ عَلِمْتَ مَا الَّذِي جَرَّأَ[٤] صَاحِبَك ـ يَعْنِي: عَلِيًّا ـ **قَالَ**: مَا هُوَ؟ **قَالَ**: قَوْلُ النَّبِيِّ ﷺ: **«لَعَلَّ اللهَ اطَّلَعَ إِلىٰ أَهْلِ بَدْرٍ فَقَالَ: اعْمَلُوْا مَا شِئْتُمْ؛ فَقَدْ غَفَرْتُ لَكُمْ»**[٥]. وَهٰذَا سُوْءُ فَهْمٍ مِنْ أَبِي عَبْدِ الرَّحْمٰنِ، حِيْنَ ظَنَّ أَنَّ عَلِيًّا قَاتَلَ وَقُتِلَ اعْتِمَادًا عَلىٰ أَنَّهُ قَدْ غُفِرَ لَهُ!!

وَيَنْبَغِي أَنْ يُعْلَمَ أَنَّ مَعْنَىٰ الحَدِيْثِ: لِتَكُنْ أَعْمَالُكُم المُتَقَدِّمَةُ مَا كَانَتْ؛ فَقَدْ غَفَرْتُ لَكُم. فَأَمَّا غُفْرَانُ مَا سَيَأْتِي؛ فَلا يَتَضَمَّنُه ذٰلِكَ. أَتُرَاهُ لَوْ وَقَعَ مِنْ أَهْلِ بَدْرٍ ـ وَحَاشَاهُمُ ـ الشِّرْكُ ـ إِذْ لَيْسُوْا بِمَعْصُوْمِيْنَ ـ؛ أَمَا كَانُوْا يُؤاخَذُوْنَ به؟! فَكَذٰلِكَ المَعَاصِي.

---

(١) (١/ ١٠٥).

(٢) عبد الله بن حبيب بن ربيعة الكوفي، من أولاد الصحابة، ولد في حياة النبي ﷺ، قرأ القرآن ومهر فيه، وعرض على عثمان وعلي وابن مسعود رضي الله عنهم، وكان ثبتًا، توفي سنة (٨٠هـ). وقد وقع في الأصل: (أبو عبد الله) والتصويب من المسند.

(٣) حبان بن عطية السلمي.

(٤) في الأصل (حدا) وهو تصحيف.

(٥) رواه البخاري (٣٠٨١)، ومسلم (٢٤٩٤) عن علي رضي الله عنه. وانظر: الفتح (٧/ ٣٠٥) ففيه توجيه لمعنى الحديث.

ثُمَّ لَوْ قُلْنا: إِنَّهُ يَتَضَمَّنُ غُفْرَانَ مَا سَيَأْتِي؛ فَٱلْمَعْنَىٰ أَنَّ مَآلَكُم إِلَىٰ الغُفْرَانِ.

ثُمَّ دَعْنا مِنْ مَعْنَى الحَدِيْثِ؛ كَيْفَ يَحِلُّ لِمُسْلِم أَنْ يَظُنَّ فِي أَمِيْرِ المُؤْمِنِيْنَ عَلِيٍّ ﷺ أَنَّهُ فَعَلَ مَا لَا يَجُوْزُ ٱعْتِمَادًا عَلَىٰ أَنَّهُ سَيُغْفَرُ لَهُ؟! حُوْشِيَ مِنْ هٰذَا[1]، وَإِنَّمَا قَاتَلَ بِالدَّلِيْلِ المُضْطَرِّ لَهُ إِلَىٰ القِتَالِ، فَكَانَ عَلَىٰ الحَقِّ. وَلَا يَخْتَلِفُ العُلَمَاءُ أَنَّ عَلِيًّا ﷺ لَمْ يُقَاتِلْ أَحَدًا إِلَّا وَالحَقُّ مَعَ عَلِيٍّ؛ كَيْفَ؛ وَقَدْ قَالَ **رَسُوْلُ اللهِ** ﷺ: «**اللَّهُمَّ! أَدِرْ مَعَهُ الحَقَّ كَيْفَمَا دَارَ**»[2]؟! فَقَدْ غَلِطَ أَبُوْ عَبْدِ الرَّحْمٰنِ غَلَطًا قَبِيْحًا، حَمَلَهُ عَلَيْهِ أَنَّه كَانَ عُثْمَانِيًّا.

٢٩٢ - فصل: نعوذ بالله من رياء يبطل أعمالنا

١٣٠٤ ـ **تَأَمَّلْتُ** عَلَىٰ مُتَزَهِّدِي زَمَانِنَا أَشْيَاءَ تَدُلُّ عَلَىٰ النِّفَاقِ وَالرِّيَاءِ، وَهُمْ يَدَّعُوْنَ الإِخْلَاصَ: **مِنْهَا**: أَنَّهُمْ يَلْتَزِمُوْنَ زَاوِيَةً، فَلَا يَزُوْرُوْنَ صَدِيقًا، وَلَا يَعُوْدُوْنَ مَرِيْضًا، وَيَدَّعُوْنَ أَنَّهُم يُرِيْدُوْنَ الانْقِطَاعَ عَنِ النَّاسِ؛ ٱشْتِغَالًا بِالعِبَادَةِ، وَإِنَّمَا هِيَ إِقَامَةُ نَوَامِيْسَ؛ لِيُشَارَ إِلَيْهِم بِالٱنْقِطَاعِ؛ إِذْ لَوْ مَشَوْا بَيْنَ النَّاسِ؛ زَالَتْ هَيْبَتُهُم!

وَمَا كَانَ النَّاسُ كَذٰلِكَ. كَانَ رَسُوْلُ اللهِ ﷺ يَعُوْدُ المَرِيْضَ[3]، وَيَشْتَرِي الحَاجَةَ مِنَ السُّوْقِ[4]، **وَأَبُوْ بَكْرٍ** ﷺ يَتَّجِرُ فِي البَزِّ، **وَأَبُوْ عُبَيْدَةَ بْنُ الجَرَّاح** يَحْفِرُ القُبُوْرَ، **وَأَبُوْ طَلْحَةَ**[5] أَيْضًا، **وَابْنُ سِيْرِيْنَ** يَغْسِلُ الموتى[6]. وَمَا كَانَ عِنْدَ القَوْمِ إِقَامَةُ نَامُوْسٍ.

١٣٠٥ ـ وَأَصْحَابُنا يَلْزَمُوْنَ الصَّمْتَ بَيْنَ النَّاسِ وَالتَّخَشُّعَ والتَّمَاوُتَ، وَهٰذَا هُوَ

---

(١) أي: حاشاه من ذلك.

(٢) رواه الترمذي (٣٧١٤) وفي سنده المختار بن نافع منكر الحديث. (ضعيف جدًا).

(٣) رواه البخاري (١٢٩٥)، ومسلم (١٦٢٨) عن سعد ﷺ.

(٤) توفي رسول الله ﷺ ودرعه مرهونة عند يهودي بثلاثين صاعًا من شعير. رواه البخاري (٢٩١٦).

(٥) زيد بن سهل الأنصاري الخزرجي النجاري أحد أعيان البدريين، وأحد النقباء، توفي بالمدينة سنة (٣٤هـ) وامتهانه هو وأبي عبيدة حفر القبور كان على سبيل التطوع.

(٦) عمله هذا كان تطوعًا، وأما عمله الأصلي فهو الاتجار بالطعام والزيت.

النِّفَاقُ؛ فَقَدْ كَانَ ابْنُ سِيْرِيْنَ يَضْحَكُ بِالنَّهَارِ، وَبَيْنَ النَّاسِ، وَيَبْكِي بِاللَّيْلِ.

١٣٠٦ ـ وَقَدْ رَأَيْتُ مِنَ **المُتَزَهِّدِيْنَ** مَنْ يَلْزَمُ المَسْجِدَ وَيُصَلِّي، فَيَجْتَمِعُ النَّاسُ، فَيُصَلُّونَ بِصَلاتِهِ لَيْلًا وَنَهَارًا، وَقَدْ شَاعَ هٰذَا لَهُ، فَتَقْوَى نَفْسُهُ عَلَيْهِ بِحُبِّ المَحْمَدَةِ؛ وَالنَّبِيُّ ﷺ قَالَ فِي صَلَاةِ التَّطَوُّعِ: «**اجْعَلُوا هٰذِهِ فِي البُيُوْتِ**»[1].

١٣٠٧ ـ وَفِي أَصْحَابِنَا مَنْ يُظْهِرُ الصَّوْمَ الدَّائِمَ، وَيَتَقَوَّتُ بِقَوْلِ النَّاسِ: فُلَانٌ مَا يُفْطِرُ أَصْلًا!! وَهٰذَا الأَبْلَهُ مَا يَدْرِي أَنَّهُ لِأَجْلِ النَّاسِ يَفْعَلُ ذٰلِكَ، لَوْلَا هٰذَا؛ كَانَ يُفْطِرُ، والنَّاسُ يَرُوْنَهُ يَوْمَيْنِ أَوْ ثَلَاثَةً، حَتَّى يَذْهَبَ عَنْهُ ذٰلِكَ الاسْمُ، ثُمَّ يَعُوْدُ إِلَى الصَّوْمِ، وَقَدْ كَانَ **إِبْرَاهِيْمُ بْنُ أَدْهَمَ** إِذا مَرِضَ؛ يَتْرُكُ عَنْدَهُ مِنَ الطَّعَامِ مَا يَأْكُلُه الأَصِحَّاءُ.

١٣٠٨ ـ وَرَأَيْتُ فِي **زُهَّادِنَا** مَنْ يُصَلِّي الفَجْرَ يَوْمَ الجُمُعَةِ بِالنَّاسِ، وَيَقْرَأُ المُعَوِّذَتَيْنِ، والمَعْنَىٰ: قَدْ خَتَمْتُ[2]!! فَإِنَّ هٰذِهِ الأَعْمَالَ هِيَ صَرِيْحَةٌ فِي النِّفَاقِ والرِّيَاءِ.

١٣٠٩ ـ **وَفِيْهِم** مَنْ يَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ، وَهُوَ غَنِيٌّ، ولا يُبَالِي أَخَذَ مِنَ الظَّلَمَةِ أَوْ مِنْ أَهْلِ الخَيْرِ، وَيَمْشِي إِلَى الأُمَرَاءِ يَسْأَلُهُم، وَهُوَ يَدْرِي مِنْ أَيْنَ حَصَلَتْ أَمْوَالُهم.

فَاللهَ اللهَ فِي إِصْلَاحِ النِّيَّاتِ؛ فَإِنَّ جُمْهُوْرَ هٰذِهِ الأَعْمَالِ مَرْدُوْدٌ. قَالَ **مَالِكُ بْنُ دِيْنَارٍ**: وَقُوْلُوْا لِمَنْ لَمْ يَكُنْ صَادِقًا: لا يَتَعَنَّى[3]!

١٣١٠ ـ وَلِيَعْلَمِ المُرَائِي أَنَّ الَّذِي يَقْصِدُهُ يَفُوْتُه، وَهُوَ ٱلتِفَاتُ القُلُوْبِ إِلَيْهِ؛ فَإِنَّه مَتَى لَمْ يُخْلِصْ؛ حُرِمَ مَحَبَّةَ القُلُوْبِ، وَلَمْ يُلْتَفَتْ إِلَيْهِ، وَالمُخْلِصُ مَحْبُوْبٌ. فَلَوْ عَلِمَ المُرَائِي أَنَّ قُلُوْبَ الَّذِيْنَ يُرَائِيْهِم بِيَدِ مَنْ يَعْصِيْهِ؛ لَمَا فَعَلَ.

وَكَمْ رَأَيْنا مَنْ يَلْبَسُ الصُّوْفَ، ويُظْهِرُ النُّسُكَ، لا يُلْتَفَتُ إِلَيْهِ، وَآخَرُ يَلْبَسُ جَيِّدَ الثِّيَابِ، وَيَبْتَسِمُ، والقُلُوْبُ تُحِبُّهُ. نَسْأَلُ اللهَ ﷻ إِخْلاصًا يُخَلِّصُنَا، وَنَسْتَعِيْذُ بِهِ مِنْ رِيَاءٍ يُبْطِلُ أَعْمَالَنا؛ إِنَّهُ قَادِرٌ.

---

(١) رواه البخاري (٤٣٢)، ومسلم (٧٧٧) عن ابن عمر رضي الله عنهما.

(٢) أي يوهم الناس أنه ختم القرآن كلّه في ليلة واحدة.

(٣) **لا يتعنّى**: لا يتعب نفسه فعمله محبط.

٢٩٣ - فصل: الدنيا وضعت للبلاء

١٣١١ ـ مِنَ الجَهْلِ أَنْ يَخْفى عَلىٰ الإِنْسَانِ مُرَادُ التَّكْلِيْفِ؛ فَإِنَّه مَوْضُوْعٌ عَلىٰ عَكْسِ الأَغْرَاضِ. فَيَنْبَغِي لِلْعَاقِلِ أَنْ يَأْنَسَ بِانْعِكَاسِ الأَغْرَاضِ؛ فَإِنْ دَعَا، وَسَأَلَ بُلُوْغَ غَرَضٍ؛ **تَعَبَّدَ اللهَ بِالدُّعَاءِ**: فَإِنْ أُعْطِيَ مُرَادَهُ؛ شَكَرَ، وَإِنْ لَمْ يَنَلْ مُرَادَهُ؛ فَلَا يَنْبَغِي أَنْ يُلِحَّ فِي الطَّلَبِ[١]؛ لِأَنَّ الدُّنْيَا لَيْسَتْ لِبُلُوْغِ الأَغْرَاضِ، وَلْيَقُلْ لِنَفْسِهِ: ﴿وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُواْ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ [البقرة: ٢١٦].

١٣١٢ ـ وَمِنْ أَعْظَمِ الجَهْلِ، أَنْ يَمْتَعِضَ فِي بَاطِنِهِ لِانْعِكَاسِ أَغْرَاضِهِ، وَرُبَّما اعْتَرَضَ فِي البَاطِنِ، أَوْ رُبَّما قَالَ: حُصُوْلُ غَرَضِي لا يَضُرُّ، وَدُعَائِي لَمْ يُسْتَجَبْ[٢]!! وَهٰذَا كُلُّه دَلِيْلٌ عَلىٰ جَهْلِهِ، وَقِلَّةِ إِيْمَانِهِ وَتَسْلِيْمِهِ لِلْحِكْمَةِ.

١٣١٣ ـ وَمَنْ الّذي حَصَلَ لهُ غَرَضٌ ثُمَّ لَمْ يُكَدَّرْ؟! هٰذَا **آدَمُ**؛ طَابَ عَيْشُهُ فِي الجَنَّةِ، وَأُخْرِجَ مِنْهَا، **وَنُوْحٌ** سَأَلَ فِي ٱبْنِهِ فَلَمْ يُعْطَ مُرَادَه، **وَالخَلِيْلُ** ابْتُلِيَ بِالنَّارِ، **وإِسْحَاقُ**[٣] بِالذَّبْحِ، **وَيَعْقُوْبُ** بِفَقْدِ الوَلَدِ، **وَيُوْسُفُ** بِمُجَاهَدَةِ الهَوَىٰ، **وَأَيُّوْبُ** بِالبَلاءِ، **وَدَاوُدُ وَسُلَيْمَانُ** بِالفِتْنَةِ، وَجَمِيْعُ الأَنْبِيَاءِ عَلىٰ هٰذا. وَأَمَّا مَا لَقِيَ نَبِيُّنَا **مُحَمَّدٌ** ﷺ مِنَ الجُوْعِ والأَذَىٰ وكَدَرِ العَيْشِ؛ فَمَعْلُوْمٌ.

١٣١٤ ـ فَالدُّنْيَا وُضِعَتْ لِلْبَلاءِ. فَيَنْبَغِي لِلْعَاقِلِ أَنْ يُوَطِّنَ نَفْسَه عَلىٰ الصَّبْرِ، وَأَنْ يَعْلَمَ أَنَّ مَا حَصَلَ مِنَ المُرَادِ؛ فَلُطْفٌ، وَمَا لَمْ يَحْصُلْ؛ فَعَلىٰ أَصْلِ الخَلْقِ وَالجِبِلَّةِ[٤] لِلدُّنيا؛ كَمَا قِيْلَ[٥]:

طُبِعَتْ عَلىٰ كَدَرٍ وَأَنْتَ تُرِيْدُهَا ... صَفْوًا مِنَ الأَقْذَاءِ وَالأَكْدَارِ

---

(١) الإلحاح في الدعاء مطلوب.

(٢) عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «يستجاب لأحدكم ما لم يعجل يقول: دعوت فلم يستجب لي» البخاري (٦٣٤٠)، ومسلم (٢٧٣٥).

(٣) هذا مخالف لما عليه جمهور أهل العلم. انظر: زاد المعاد (١/ ٧١ ـ ٧٥).

(٤) **الجبلة**: الخلقة والسجية.

(٥) هو للشاعر علي بن محمد التهامي، أبو الحسن، ولد باليمن، وقدم الشام ثم العراق، وامتدح الصاحب بن عباد، وذهب إلى مصر، فقتل سرًا سنة (٤١٦هـ).

وَمُكَلِّفُ الأَيَّامِ ضِدَّ طِبَاعِهَا مُتَطَلِّبٌ فِي المَاءِ جَذْوَةَ نَارِ

١٣١٥ ـ وَهَا هُنَا تَتَبَيَّنُ قُوَّةُ الإِيْمَانِ وضَعْفُهُ. فَلْيَسْتَعْمِلِ المُؤْمِنُ مِنْ أَدْوِيَةِ هٰذَا المَرَضِ التَّسْلِيْمَ لِلْمَالِكِ، والتَّحْكِيْمَ لِحكْمَتِهِ، **وَلْيَقُلْ**: قَدْ قِيْلَ لِسَيِّدِ الكُلِّ ﷺ: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ﴾ [آل عمران: ١٢٨]. ثُمَّ لْيُسَلِّ نَفْسَه بِأَنَّ المَنْعَ لَيْسَ عَنْ بُخْلٍ، وَإِنَّمَا هُوَ لِمَصْلَحَةٍ لا يَعْلَمُهَا، وَلِيُؤْجَرَ الصَّابِرُ عَنْ أَغْرَاضِهِ، وَلِيَعْلَمَ اللهُ الَّذِيْنَ سَلَّمُوا وَرَضُوْا، وَأَنَّ زَمَنَ الابْتِلَاءِ مِقْدَارٌ يَسِيْرٌ، وَالأَغْرَاضُ مُدَّخَرَةٌ تُلْقَىٰ بَعْدَ قَلِيْلٍ، وَكَأَنَّهُ بِالظُّلْمَةِ قَدِ انْجَلتْ، وَبِفَجْرِ الأَجْرِ قَدْ طَلَعَ.

وَمَتَىٰ ارْتَقَىٰ فَهْمُهُ إِلَىٰ أَنَّ مَا جَرَىٰ مُرَادُ الحَقِّ سُبْحَانَهُ؛ اقْتَضَىٰ إِيْمَانُه أَنْ يُرِيْدَ مَا يُرِيْدُ، وَيَرْضَىٰ بِمَا يُقَدِّرُ؛ إِذْ لَوْ لَمْ يَكُنْ كذٰلِكَ؛ كَانَ خَارِجًا عَنْ حَقِيْقَةِ العُبُوْدِيَّةِ فِي المَعْنَىٰ. وَهٰذَا أَصْلٌ يَنْبَغِي أَنْ يُتَأَمَّل، وَيُعْمَلَ عَلَيْهِ فِي كُلِّ غَرَضٍ انْعَكَسَ.

٢٩٤ - فصل: تحذير العلماء من مخالطة السلاطين

١٣١٦ ـ رَأَيْتُ خَلْقًا مِنَ العُلَمَاءِ وَالقُصَّاصِ تَضِيْقُ عَلَيْهِم الدُّنْيَا، فَيَفْزَعُوْنَ إِلَىٰ مُخَالَطَةِ السَّلاطِيْنَ، لِيَنَالُوْا مِنْ أَمْوَالِهِم، وَهُمْ يَعْلَمُوْنَ أَنَّ السَّلاطِيْنَ لا يَكَادُوْنَ يَأْخُذُوْنَ الدُّنْيَا مِنْ وَجْهِهَا وَلا يُخْرِجُوْنَها فِي حَقِّهَا.

فَإِنَّ أَكْثَرَهُمْ: إِذَا حَصَلَ لَهُ خَرَاجٌ[1] يَنْبَغِي أَنْ يُصْرَفَ إِلَىٰ المَصَالِحِ؛ وَهَبَهُ لِشَاعِرٍ! وَرُبَّما كَانَ مَعَهُ جُنْدِيٌّ يَصْلُحُ أَنْ تَكُوْنَ مُشَاهَرَتُهُ[2] عَشَرَةَ دَنَانِيْرَ؛ فَأَعْطَاهُ عَشَرَةَ آلافٍ! وَرُبَّما غَزَا؛ فَأَخَذَ مَا يَنْبَغِي أَنْ يُقْسَمَ عَلَىٰ الجَيْشِ فَاصْطَفَاهُ لِنَفْسِهِ! هٰذَا غَيْرُ مَا يَجْرِي مِنَ الظُّلْمِ فِي المُعَامَلاتِ.

وَأَوَّلُ مَا يَجْرِي عَلَىٰ ذَاكَ العَالِمِ أَنَّه قَدْ حُرِمَ النَّفْعَ بِعِلْمِهِ. وَقَدْ رَأَىٰ بَعْضُ الصَّالِحِيْنَ رَجُلًا عَالِمًا يَخْرُجُ مِنْ دَارِ يَحْيَىٰ بْنِ خَالِدٍ[3] البَرْمَكِيِّ، فَقَالَ: أَعُوْذُ بالله مِنْ عِلْمٍ لا يَنْفَعُ.

---

(١) **الخراج**: ضريبة مفروضة على البلاد التي فتحت صلحًا.

(٢) **مشاهرته**: الأجرة التي يستحقها كل شهر.

(٣) الوزير الكبير، أحد رجال الدهر حزمًا ورأيًا وسياسة وعقلًا، ضمه المهدي إلى ابنه الرشيد =

أَلَمْ يَرَ المُنْكَرَاتِ وَلا يُنْكِرُ؟! وَيَتَنَاوَلُ مِنْ طَعَامِهِم الّذِي لا يَكَادُ يَحْصُلُ إِلَّا بِظُلْم؛ فَيَنْطَمِسَ قَلْبُهُ، وَيُحْرَمَ لَذَّةَ المُعَامَلَةِ لِلْحَقِّ سُبْحَانَه، ثُمَّ لا يُقَدَّرُ أَنْ يَهْتَدِيَ بِهِ[1] أَحَدٌ؟ بَلْ رُبَّمَا كَانَ فِعْلُ هٰذَا سَبَبًا لإِضْلَالِ النَّاسِ وَصَرْفِهِم عَنِ الاقْتِدَاءِ بِهِ!

فَهُوَ يُؤْذِي نَفْسَهُ، وَيُؤْذِي أَمِيْرَهُ؛ لِأَنَّهُ يَقُوْلُ: لَوْلَا أَنَّنِي عَلىٰ صَوَابٍ؛ مَا صَحِبَنِي، وَلَأَنْكَرَ عَلَيَّ. وَيُؤْذِي العَوَامَّ؛ تَارَةً بِأَنْ يَرَوا أَنَّ مَا فِيْهِ الأَمِيْرُ صَوَابٌ، [وَتَارَةً] بِأَنَّ الدُّخُوْلَ عَلَيْهِ والسُّكُوْتَ عَنِ الإِنْكَارِ جَائِزٌ، أَوْ يُحَبِّبُ إِلَيْهِم الدُّنْيَا، وَلا خَيْرَ - واللهِ - فِيْ سَعَةٍ مِنَ الدُّنْيَا ضَيَّقَتْ طَرِيْقَ الآخِرَةِ.

١٣١٧ - وَأَنَا أَفْدِي أَقْوَامًا صَابَرُوْا عَطَشَ الدُّنْيَا فِيْ هَجِيْرِ الشَّهَوَاتِ زَمَانَ العُمُرِ حَتَّى رُوُوْا يَوْمَ المَوْتِ من شَرَابِ الرِّضَا، وَبَقِيَتْ أَذْكَارُهُم تُرْوَى، فَتَرْوِي صَدَى[2] القُلُوْبِ، وتَجْلُوْ صَدَأَها[3]. هٰذَا **الإِمَامُ أَحْمَدُ**؛ يَحْتَاجُ، فَيَخْرُجُ إِلىٰ اللِّقَاطِ، وَلَا يَقْبَلُ مَالَ سُلْطَانٍ. هٰذا **إِبْرَاهِيمُ الحَرْبِيُّ**؛ يَتَغَذَّىٰ بِالبَقْلِ، وَيَرُدُّ عَلىٰ **المُعْتَضِد**[4] أَلْفَ دِيْنَارٍ. هٰذَا **بِشْرٌ الحَافِي**؛ يَشْكُوْ الجُوْعَ، فَيُقَالُ لَهُ: يُصْنَعُ لَكَ حِسَاءٌ مِنْ دَقِيْقٍ؟ فَيَقُوْلُ: أَخَافُ أَنْ يَقُوْلَ اللهُ لِي: هٰذَا الدَّقِيْقُ مِنْ أَيْنَ لَكَ؟!

بَقِيَتْ وَاللهِ أَذْكَارُ القَوْمِ، وَمَا كَانَ الصَّبْرُ إِلَّا غَفْوَةَ نَوْمٍ، وَمَضَتْ لَذَّاتُ المُتَرَخِّصِيْنَ، وبَلِيَتِ الأَبْدَانُ، وَوَهَنَ الدِّيْنُ.

١٣١٨ - فَالصَّبْرَ الصَّبْرَ يَا مَنْ وُفِّقَ! وَلا تَغْبِطَنَّ مَنِ اتَّسَعَ لَهُ أَمْرُ الدُّنْيَا؛ فَإِنَّكَ إِذَا تَأَمَّلْتَ تِلْكَ السَّعَةَ؛ رَأَيْتَهَا ضِيْقًا فِي بَابِ الدِّيْنِ! وَلا تُرَخِّصْ لِنَفْسِكَ فِي تَأْوِيْلٍ؛ فَعُمُرُكَ فِي الدُّنْيَا قَلِيْلٌ!

وَسَوَاءٌ إِذَا انْقَضَى يَوْمُ كِسْرَى ... فِي سُرُوْرٍ وَيَوْمُ صَابِرِ كِسْرَهْ[5]

= ليربيه ويثقفه، فلما استخلف رفع قدره، وصيَّر أولاده ملوكًا، ثم نكبهم وسجن خالدًا، فمات في السجن سنة (١٩٠هـ) وله سبعون سنة.

(١) في الأصل: من قوله: ألم تر... إلى قوله: يهتدي بك. جاءت بصيغة المخاطب.

(٢) **صدى**: عطش.

(٣) **صدأها**: ما يترسب عليها من أثار المعاصي فيحجبها عن الانتفاع بالمواعظ.

(٤) في الأصل: (المعتصم)، والتصويب من سير أعلام النبلاء (١٣/ ٣٦٠).

(٥) **كسره**: كسرة خبز.

١٣١٩ ـ وَمَتَىٰ ضَجَّتِ النَّفْسُ لِقِلَّةَ صَبْرٍ؛ فَاتْلُ عَلَيْهَا أَخْبَارَ الزُّهَّادِ؛ فَإِنَّهَا تَرْعَوِي[١]، وتَسْتَحِي، وَتَنْكَسِرُ، إِنْ كانَتْ لَهَا هِمَّةٌ، أَوْ فِيْهَا يَقَظَةٌ، وَمَثِّلْ لَهَا بَيْنَ تَرَخُّصِ عليِّ بْنِ المَدِيْنِي، وقَبولِهِ مَالْ ابْنِ أَبِي دُوَادٍ، وصَبْرِ أَحْمَدَ، وَكَمْ بَيْنَ الرَّجُلَيْنِ، وَالذِّكْرَيْنِ، وَانْظُرْ ما يُرْوَىٰ عَنْ كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا، وَمَا يُذْكَرانِ بِهِ... وَسَيَنْدَمُ ابْنُ المَدِيْنِي إِذَا قَالَ أَحْمَدُ: سَلِمَ [لِي] دِيْنِي.

٢٩٥ - فصل: جمهور الناس خرج من ربقة العبودية

١٣٢٠ ـ **تَأَمَّلْتُ** أَحْوَالَ النَّاسِ، فَرَأَيْتُ جُمْهُوْرَهُمْ مُنْسَلًّا[٢] مِنْ رِبقةِ العُبُوْدِيَّةِ؛ فَإِنْ تَعَبَّدُوْا؛ فَعَادَةٌ؛ أَوْ فِيْمَا لا يُنَافِي أَغْرَاضَهُم مُنَافَاةً تُؤْذِي القُلُوْبَ:

١٣٢١ ـ فَأَكْثَرُ السَّلاطِيْنِ يُحَصِّلُوْنَ الأَمْوَالَ مِنْ وُجُوْهٍ رَدِيةٍ[٣]، وَيُنْفِقُوْنَهَا فِي وُجُوْهٍ لا تَصْلُحُ، وَكَأَنَّهُم قَدْ تَمَلَّكُوْهَا، وَلَيْسَتْ مَالَ اللهِ! الَّذِي إِذَا غَزَا أَحَدُهُمْ [بِاسْمِهِ]، فَغَنِمَ الأَمْوَالَ؛ اصْطَفَاهَا لِنَفْسِهِ، وَأَعْطَاهَا أَصْحَابَهُ، كَيْفَ اشْتَهَىٰ!!

١٣٢٢ ـ **والعُلَمَاءُ** لِقُوَّةِ فَقْرِهِم، وَشِدَّةِ شَرَهِهِم، يُوَافِقُوْنَ الأُمَرَاءَ، وَيَنْخَرِطُوْنَ فِي سِلْكِهِم، **والتُّجَارَ** عَلَىٰ العُقُوْدِ الفَاسِدَةِ، **والعَوَامَّ** فِي المَعَاصِي، والإِهْمَالِ لِجَانِبِ الشَّرِيْعَةِ؛ فَإِنْ فَاتَ بَعْضُ أَغْرَاضِهِم؛ فَرُبَّمَا قَالُوْا: مَا نُرِيْدُ نُصَلِّي! لا صَلَّى اللهُ عَلَيْهِم، وَقَدْ مَنَعُوا الزَّكَاةَ، وتَرَكُوْا الأَمْرَ بِالمَعْرُوْفِ.

١٣٢٣ ـ فَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَغُرُّهُ تَأْخِيْرُ العُقُوْبَةِ، وَمِنْهُم مَنْ كَانَ يَقْطَعُ بِالعَفْوِ، وَأَكْثَرُهُم مُتَزَلْزِلُ الإِيْمَانِ، فَنَسْأَلُ اللهَ أَنْ يُمِيْتَنا مُسلِمِيْنَ.

٢٩٦ - فصل: عاقبة الصبر الجميل جميلة

١٣٢٤ ـ مِنَ العَجِيْبِ سَلَامَةُ دِيْنِ ذِي العِيَالِ، إِذَا ضَاقَ بِهِ الكَسْبُ؛ فَمَا مَثَلُهُ إِلَّا كَمَثَلِ المَاءِ؛ إِذَا ضُرِبَ فِي وَجْهِهِ سِكْرٌ؛ فَإِنَّهُ يَعْمَلُ بَاطِنًا، وَيُبَالِغُ حَتَّى يَفْتَحَ

---

(١) **ترعوي**: تنزجر، وتتعظ.
(٢) **منسلًا**: خارجًا.
(٣) محرَّمة.

فَتحةً؛ فَكَذٰلِكَ صَاحِبُ العِيَالِ؛ إِذَا ضَاقَ بِهِ الأَمْرُ؛ لا يَزَالُ يَحْتَالُ؛ فَإِذَا لَمْ يَقْدِرْ عَلىٰ الحَلَالِ؛ تَرَخَّصَ فِي تَنَاوُلِ الشُّبُهَاتِ؛ فَإِنْ ضَعُفَ دِيْنُهُ؛ مَدَّ يَدَهُ إِلىٰ الحَرَامِ.

فَالْمُؤْمِنُ إِذَا عَلِمَ ضَعْفَهُ عَنِ الكَسْبِ؛ اجْتَهَدَ فِي التَّعَفُّفِ عَنِ النِّكَاحِ، وَتَقْلِيْلِ النَّفَقَةِ إِذَا حَصَلَ الأَوْلَادُ، وَالقَنَاعَةِ بِاليَسِيْرِ.

١٣٢٥ ـ فَأَمَّا مَنْ لَيْسَ لَهُ كَسْبٌ ـ كالعُلَمَاءِ والمُتَزَهِّدِيْنَ ـ؛ فَسَلامَتُهُمْ ظَرِيْفَةٌ؛ إِذْ قَدِ انْقَطَعَتْ مَوَارِدُ السَّلَاطِيْنَ [عَنْهُم]، وَمُرَاعَاةُ العَوَامِّ [لَهُم]؛ فَإِذَا كَثُرَتْ عَائِلَتُهُم؛ لَمْ يُؤْمَنْ عَلَيْهِم شَرُّ مَا يَجْرِي عَلىٰ الجُهَّالِ.

فَمَنْ قَدَرَ مِنْهُم عَلىٰ كَسْبٍ بِالنَّسْخِ وَغَيْرِهِ؛ فَلْيَجْتَهِدْ فِيْهِ، مَعَ تَقْلِيْلِ النَّفَقَةِ، وَالقَنَاعَةِ بِاليَسِيْرِ؛ فَإِنَّهُ مَنْ تَرَخَّصَ مِنْهُمُ اليَوْمَ؛ أَكَلَ الحَرَامَ؛ لِأَنَّهُ يَأْخُذُ مِنَ الظَّلَمَةِ، خُصُوْصًا بِحُجَّةِ التَّنَمُّسِ[1] وَالتَّزَهُّدِ.

وَمَنْ كَانَ لَهُ مِنْهُم مَالٌ؛ فَلْيَجْتَهِدْ فِي تَنْمِيَتِهِ وَحِفْظِهِ؛ فَمَا بَقِيَ مَنْ يُؤْثِرُ، وَلَا مَنْ يُقْرِضُ، وَقَدْ صَارَ الجُمْهُوْرُ ـ بَلْ الكُلُّ ـ كَأَنَّهُم يَعْبُدُوْنَ المَالَ؛ فَمَنْ حَفِظَهُ؛ حَفِظَ دِيْنَهُ. وَلَا يُلْتَفَتُ إِلىٰ قَوْلِ الجَهَلَةِ الَّذِيْنَ يَأْمُرُوْنَ بِإِخْرَاجِ المَالِ؛ فَمَا هٰذَا وَقْتُهُ.

١٣٢٦ ـ وَاعْلَمْ أَنَّهُ إِذَا لَمْ يَجْتَمِعِ الهَمُّ؛ لَمْ يَحْصُلِ العِلْمُ، وَلا العَمَلُ، وَلَا التَّشَاغُلُ بِالفِكْرِ فِي عَظَمَةِ اللهِ. وَقَدْ كَانَ هَمُّ القُدَمَاءِ يَجْتَمِعُ بِأَشْيَاءَ؛ جُمْهُوْرُهَا أَنَّه كَانَ لَهُمْ مِنْ بَيْتِ المَالِ نَصِيْبٌ فِي كُلِّ عَامٍ، وَكَانَ يَصِلُهُم، فَيَفْضُلُ عَنْهُم. وَفِيْهِم مَنْ كَانَ لَهُ مَالٌ يَتَّجِرُ بِهِ؛ كَسَعِيْدِ بْنِ المُسَيَّبِ، وسُفْيَانَ، وابْنِ المُبَارَكِ، وَكَانَ هَمُّهُ مُجْتَمِعًا. وَقَدْ قَالَ **سُفْيَانُ** فِي مَالِهِ: لَوْلَاكَ لَتَمَنْدَلُوْا بِي! وَفُقِدَتْ بِضَاعَةٌ **لِابْنِ المُبَارَكِ**، فَبَكَىٰ، وَقَالَ: هُوَ قِوَامُ دِيْنِي! وَكَانَ جَمَاعَةٌ يَسْكُنُوْنَ إِلىٰ عَطَاءِ الإِخْوَانِ الَّذِيْنَ لا يَمُنُّونَ.

وَكَانَ **ابْنُ المُبَارَكِ** يَبْعَثُ إِلىٰ **الفُضَيْلِ** وَغَيْرِهِ. وَكَانَ **اللَّيْثُ بْنُ سَعْدٍ** يَتَفَقَّدُ الأَكَابِرَ؛ فَبَعَثَ إِلىٰ **مَالِكٍ** أَلْفَ دِيْنَارٍ، وَإِلىٰ **ابْنِ لَهِيعَةَ** أَلْفَ دِيْنَارٍ، وَأَعْطَى **مَنْصُوْرَ بْنَ عَمَّارٍ** أَلْفَ دِيْنَارٍ وَجَارِيَةً بِثَلَاثِ مِئَةِ دِيْنَارٍ.

---

(١) **التنمس**: الاحتيال والمخادعة.

١٣٢٧ ـ وَمَا زَالَ الزَّمَانُ عَلىٰ هٰذَا إِلَىٰ أَنْ آلَ الأَمْرُ إِلى ٱنْمِحَاقِ ذٰلِكَ؛ فَقَلَّتْ عَطَايَا السَّلاطِيْنِ، وَقَلَّ مَنْ يُؤْثِرُ مِنَ الإِخْوَانِ. إِلَّا أَنَّهُ كَانَ فِي ذٰلِكَ القَلِيْلِ مَا يَدْفَعُ الزَّمَانَ، فَأَمَّا زَمَانُنا هٰذَا؛ فَقَدِ انْقَبَضَتِ الأَيْدِي كُلُّهَا، حَتَّىٰ قَلَّ مَنْ يُخْرِجُ الزَّكَاةَ الوَاجِبَةَ!

فَكَيْفَ يَجْتَمِعُ هَمُّ مَنْ يُرِيْدُ مِنَ العُلَمَاءِ وَالزُّهَادِ أَنْ يُعْمِلَ هَمَّهُ لَيْلًا وَنَهَارًا فِي وُجُوْهِ الكَسْبِ، وَلَيْسَ مِنْ شَأْنِهِ [هٰذَا]، وَلا يَهْتَدِي لَهُ؟!

فَقَدْ رَأَيْنَا الأَمْرَ أَحْوَجَ إِلىٰ التَّعَرُّضِ لِلسَّلاطِيْنِ، وَالتَّرَخُّصِ فِي أَخْذِ مَا لَا يَصْلُحُ، وَأَخْرَجَ المُتَزَهِّدِيْنَ إِلىٰ التَّصَنُّعِ لِتَحْصِيْلِ الدُّنْيَا.

فَاللهَ اللهَ يا مَنْ يُرِيْدُ حِفْظَ دِيْنِهِ! قَدْ كَرَّرْتُ عَلَيْكَ الوَصِيَّةَ بِالتَّقْلِيْلِ جَهْدَكَ، وَخَفِّفِ العَلَائِقَ مَهْمَا أَمْكَنَكَ، وَٱحْتَفِظْ بِدِرْهَمٍ يَكُوْنُ مَعَكَ؛ فَإِنَّهُ دِيْنُكَ! وَافْهَمْ مَا قَدْ شَرَحْتُهُ!

١٣٢٨ ـ فَإِنْ ضَجَّتِ النَّفْسُ لِمُرَادَاتِهَا؛ فَقُلْ لَهَا: إِنْ كَانَ عِنْدَكِ إِيْمَانٌ؛ فَٱصْبِرِي، وَإِنْ أَرَدْتِ التَّحْصِيْلَ لِمَا يَفْنَىٰ بِبَذْلِ الدِّيْنِ؛ فَمَا يَنْفَعُكِ؛ **فَتَفَكَّرِيْ** فِي العُلَمَاءِ الَّذِيْنَ جَمَعُوا المَالَ مِنْ غَيْرِ وَجْهِهِ، وَفِي المُنَعِّمِيْنَ؛ ذَهَبَ دِيْنُهُم، وَزَالَتْ دُنْيَاهُم! **وَتَفَكَّرِي** فِي العُلَمَاءِ الصَّادِقِيْنَ؛ كَأَحْمَدَ وَبِشْرٍ؛ انْدَفَعَتِ الأَيَّامُ، وبَقِيَ لَهُم حُسْنُ الذِّكْرِ. **وَفِي الجُمْلَةِ**: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۝٢ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ [الطلاق: ٢ ـ ٣]. . . وَرِزْقُ الله [قَدْ يَكُوْنُ بِتَيْسِيْرِ] الصَّبْرِ عَلىٰ البَلَاءِ، وَالأَيَّامُ تَنْدَفِعُ، **وَعَاقِبَةُ الصَّبْرِ الجَمِيْلِ جَمِيْلَةٌ**.

٢٩٧ - فصل: الإحسان إلى الزوجة عمل الرجال

١٣٢٩ ـ شَكَا [لِي] رَجُلٌ مِنْ بُغْضِهِ لِزَوْجَتِهِ، **ثُمَّ قَالَ**: مَا أَقْدِرُ عَلىٰ فِرَاقِهَا؛ لِأُمُوْرٍ؛ **مِنْهَا**: كَثْرَةُ دَيْنِها عَلَيَّ، وَصَبْرِي قَلِيْلٌ، وَلَا أَكَادُ أَسْلَمُ مِنْ فَلَتَاتِ لِسَانِي فِي الشَّكْوَىٰ، وَفِي كَلِمَاتٍ تَعْلَمُ بُغْضِي لَهَا.

فَقُلْتُ لَهُ: هٰذَا لا يَنْفَعُ، وَإِنَّمَا تُؤْتَىٰ البُيُوْتُ مِنْ أَبْوَابِهَا! فَيَنْبَغِي أَنْ تَخْلُوَ

بِنَفْسِكَ، فَتَعْلَمَ أَنَّهَا إِنَّمَا سُلِّطَتْ عَلَيْكَ بِذُنُوْبِكَ، فَتُبَالِغَ فِي الاَعْتِذَارِ والتَّوْبَةِ.

فَأَمَّا التَّضَجُّرُ والأَذَىٰ لَهَا؛ فَمَا يَنْفَعُ؛ كَمَا قَالَ الحَسَنُ بْنُ الحَجَّاجِ[1]: عُقُوْبَةٌ مِنَ اللهِ لَكُم؛ فَلَا تُقَابِلُوْا عُقُوْبَتَهُ بِالسَّيْفِ، وَقَابِلُوْهَا بِالاسْتِغْفَارِ.

وَاعْلَمْ أَنَّكَ فِي مَقَامِ مُبْتَلًى، وَلَكَ أَجْرٌ بِالصَّبْرِ، ﴿وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ [البقرة: ٢١٦]! فَعَامِلِ اللهَ سُبْحَانَه بِالصَّبْرِ عَلىٰ مَا قَضَىٰ، وَاسْأَلْهُ الفَرَجَ؛ فَإِذَا جَمَعْتَ بَيْنَ الاسْتِغْفَارِ وَبَيْنَ التَّوْبَةِ مِنَ الذُّنُوْبِ والصَّبْرِ عَلىٰ القَضَاءِ وَسُؤَالِ الفَرَجِ؛ حَصَّلْتَ ثَلَاثَةَ فُنُوْنٍ مِنَ العِبَادَةِ تُثَابُ عَلىٰ كُلٍّ مِنْهَا.

وَلا تُضَيِّعِ الزَّمَانَ بِشَيْءٍ لا يَنْفَعُ، وَلا تَحْتَلْ ظَانًّا مِنْكَ أَنَّكَ تَدْفَعُ مَا قُدِّرَ، ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ﴾ [الأنعام: ١٧].

وَقَدْ رُوِّيْنَا أَنَّ جُنْدِيًّا نَزَلَ يَوْمًا فِي دَارِ أَبِي يَزِيْدَ، فَجَاءَ أَبُو يَزِيْدَ، فَرَآهُ، فَوَقَفَ وَقَالَ لِبَعْضِ أَصْحَابِهِ: ادْخُلْ إِلىٰ المَكَانِ الفُلَانِيِّ؛ فَاقْلَعِ الطِّيْنَ الطَّرِيَّ؛ فَإِنَّهُ مِنْ وَجْهٍ فِيْهِ شُبْهَةٌ. فَقَلَعَهُ، فخَرَجَ الجُنْدِيُّ.

وَأَمَّا **أَذَاكَ لِلْمَرْأَةِ**؛ فَلَا وَجْهَ لَهُ؛ لأَنَّهَا مُسَلَّطَةٌ؛ فَلْيَكُنْ شُغْلُكَ بِغَيْرِ هٰذَا. وَقَدْ رُوِيَ عَنْ بَعْضِ السَّلَفِ أَنَّ رَجُلًا شَتَمَهُ، فَوَضَعَ خَدَّهُ عَلىٰ الأَرْضِ، وَقَالَ: اللَّهُمَّ! اغْفِرْ لِيَ الذَّنْبَ الَّذِي سَلَّطَتَ هٰذَا بِهِ عَلَيَّ.

١٣٣٠ ـ قَالَ الرَّجُلُ: وَهٰذِهِ المَرْأَةُ تُحِبُّنِي زَائِدًا فِي الحَدِّ، وَتُبَالِغُ فِي خِدْمَتِي؛ غَيْرَ أَنَّ البُغْضَ لَهَا مَرْكُوْزٌ فِي طَبْعِي.

قُلْتُ لَهُ: فَعَامِلِ اللهَ سُبْحَانَهُ بِالصَّبْرِ عَلَيْهَا؛ فَإِنَّكَ تُثَابُ. وَقَدْ قِيْلَ لِأَبِي عُثْمَانَ النَّيْسَابُوْرِيِّ: مَا أَرْجَىٰ عَمَلَكَ عِنْدَكَ؟ **قَالَ**: كُنْتُ فِي صَبْوَتِي يَجْتَهِدُ أَهْلِي أَنْ أَتَزَوَّجَ، فَأَبَىٰ، فَجَاءَتْنِي امْرَأَةٌ، **فَقَالَتْ**: يَا أَبَا عُثْمَانَ! إِنِّي قَدْ هَوِيْتُكَ، وَأَنَا أَسْأَلُكَ بِاللهِ أَنْ تَتَزَوَّجَنِي. فَأَحْضَرَتْ أَبَاهَا ـ وَكَانَ فَقِيْرًا ـ، فَزَوَّجَنِي، وَفَرِحَ بِذٰلِكَ. فَلَمَّا دَخَلَتْ إِلَيَّ؛ رَأَيْتُهَا عَوْرَاءَ عَرْجَاءَ مُشَوَّهَةً، وَكَانَتْ لِمَحَبَّتِهَا لِي تَمْنَعُنِي مِنَ الخُرُوْجِ، فَأَقْعُدُ حِفْظًا

---

(١) أبو السري السلمي الخراساني الواعظ البليغ الصالح. كان عديم النظير في الوعظ والتذكير، وفاته في حدود المئتين.

لِقَلْبِهَا، وَلا أُظْهِرُ لَهَا مِنَ البُغْضِ شَيْئًا، وَكَأَنِّي عَلىٰ جَمْرِ الغَضَا[1] مِنْ بُغْضِها. فَبَقِيْتُ هٰكذَا خَمْسَ عَشْرَةَ سَنَةً حَتَّى مَاتَتْ؛ فَمَا مِنْ عَمَلِي شَيْءٌ هُوَ أَرْجَىٰ عَنْدِي مِنْ حِفْظِي قَلْبَها.

قُلْتُ لَهُ: فَهٰذَا عَمَلُ الرِّجَالِ! وَأَيُّ شَيْءٍ يَنْفَعُ ضَجِيْجَ المُبْتَلَىٰ بِالتَّضَجُّرِ بِإِظْهَارِ البُغْضِ؟! وَإِنَّمَا طَرِيْقُهُ مَا ذَكَرْتُهُ لَكَ؛ مِنَ **التَّوْبَةِ، وَالصَّبْرِ، وَسُؤَالِ الفَرَجِ**.

وَتَذَكَّرْ ذُنُوبًا كَانَتْ هٰذِهِ عُقُوْبَتَها؛ فَإِنْ وَقَعَ فَرَجٌ فِي الحِسَابِ، وَإِلَّا؛ فَاسْتِعْمَالُ الصَّبْرِ عَلىٰ القَضَاءِ عِبَادَةٌ. وَتكَلَّفْ إِظْهَارَ المَوَدَّةِ لَهَا، وَإِنْ لَمْ تَكُنْ فِي قَلْبِكَ تَثْبُتُ عَلىٰ هٰذَا. وَلَيْسَ لِلْقَيْدِ ذَنْبٌ فَيُلَامَ، إِنَّمَا يَنْبَغِي التَّشَاغُلُ مَعَ مَنْ قَيَّدَهُ. وَالسَّلَامُ.

٢٩٨ - فصل: من أراد اجتماع همه فعليه بالعزلة

١٣٣١ - لا رَيْبَ أَنَّ القَلْبَ المُؤْمِنَ بِالإِلٰهِ سُبْحَانَهُ وَبِأَوَامِرِهِ يَحْتَاجُ إِلىٰ الانْعِكَافِ عَلىٰ ذِكرِهِ وطَاعتِهِ وَٱمْتِثَالِ أَوَامرِهِ، وهٰذَا يَفْتَقِرُ إِلىٰ جَمْعِ الهَمِّ، وَكَفَىٰ بِمَا وُضِعَ فِي الطَّبْعِ مِن المُنَازَعَةِ إِلىٰ الشَّهَوَاتِ مُشَتِّتًا لِلْهَمِّ المُجْتَمِع.

فَيَنْبَغِي لِلإِنْسَانِ أَنْ يَجْتَهِدَ فِي جَمْعِ هَمِّهِ؛ لِيَنْفَرِدَ قَلْبُهُ[2] بِذِكْرِ اللهِ ﷻ، [وَإِنْفَاذِ] أَوَامرِهِ، وَالتَّهَيُّؤِ لِلِقَائِهِ، وذٰلِكَ إِنَّمَا يَحْصُلُ بِقَطْعِ القَوَاطِعِ، والامْتِنَاعِ عَنِ الشَّوَاغِلِ، وَمَا يُمْكِنُ قَطْعُ القَوَاطِعِ جُمْلَةً؛ فَيَنْبَغِي أَنْ يَقْطَعَ مَا يُمْكِنُ منها.

١٣٣٢ - وَمَا رَأَيْتُ مُشَتِّتًا لِلْهَمِّ، مُبَدِّدًا لِلْقَلبِ مِثْلَ شَيْئَيْنِ:

أحدُهما: **أَنْ تُطَاعَ النَّفْسُ فِي طَلَبِ كُلِّ شَيْءٍ تَشْتَهِيْهِ**، وَذٰلِكَ لا يُوْقَفُ عَلىٰ حَدٍّ فِيْهِ، فَيَذْهَبُ الدِّيْنُ والدُّنْيَا، ولا يُنَالُ كُلُّ المُرَادِ؛ مِثْلُ أَنْ تَكُوْنَ الهِمَّةُ فِي المُسْتَحْسَنَاتِ، أَوْ فِي جَمْعِ المَالِ، أَوْ فِي طَلَبِ الرِّئَاسَةِ، وَمَا يُشْبِهُ هٰذِهِ الأَشْيَاءَ.

فَيَا لَهُ مِنْ شَتَاتٍ لا جَامِعَ لَهُ! يَذْهَبُ العُمُرُ، ولا يُنَالُ بَعْضُ المُرَادِ مِنْهُ.

والثاني: **مُخَالَطَةُ النَّاسِ** - خُصُوْصًا العَوامَّ - والمَشْيُ فِي الأَسْوَاقِ؛ فَإِنَّ الطَّبْعَ

---

(١) **الغضا**: شجر يوقد به، فيبقى جمره زمنًا طويلًا.

(٢) في الأصل: همه.

يَتَقَاضَىٰ[1] الشَّهَواتِ، وَيَنْسَى الرَّحِيْلَ عَنِ الدُّنيا، وَيُحِبُّ الكَسَلَ عَنِ الطَّاعَةِ والبَطالَةَ والغَفْلَةَ والرَّاحةَ، فَيَثْقُلُ عَلىٰ مَنْ أَلِفَ مُخَالَطَةَ النَّاسِ التَّشَاغُلُ بِالعِلْمِ، أَوْ بِالعِبَادَةِ، وَلا يَزَالُ يُخَالِطُهُم حَتَّى تَهُوْنَ عَلَيْهِ الغِيْبَةُ، وَتَضِيْعَ السَّاعَاتُ فِي غَيْرِ شَيْءٍ.

١٣٣٣ ـ فَمَنْ أَرَادَ اجْتِمَاعَ هَمِّهِ؛ فَعَلَيْهِ بِالعُزْلَةِ؛ بِحَيْثُ لا يَسْمَعُ صَوْتَ أَحَدٍ؛ فَحِيْنَئِذٍ يَخْلُوْ القَلْبُ بِمعَارِفِه، وَلا تَجِدُ النَّفْسُ رَفِيْقًا مِثْلَ الهَوَىٰ يُذَكِّرُهَا ما تَشْتَهِي؛ فَإِذا اضْطُرَّ إِلىٰ المُخَالَطَةِ؛ كَانَ عَلىٰ وِفَاقٍ؛ كَمَا تَتَهَوَّى[2] الضِّفْدَعُ لَحْظَةً، ثُمَّ تَعُوْدُ إِلى المَاءِ. فَهٰذِهِ طَرِيْقُ السَّلَامةِ؛ فَتَأَمَّلْ فَوَائِدَهَا؛ تَطِبْ لَكَ.

٢٩٩ - فصل: لا تسبوا الدهر

١٣٣٤ ـ مَا رَأَتْ عَيْنِي مُصِيْبَةً نَزَلَتْ بِالخَلْقِ أَعْظَمَ مِنْ سَبِّهِم لِلزَّمَانِ، وَعَيْبِهِم للدَّهْرِ. وَقَدْ كَانَ هٰذَا فِي الجَاهِلِيَّةِ، ثُمّ نَهَىٰ رَسُوْلُ اللهِ ﷺ عَنْ ذٰلِكَ، فَقَالَ: «**لَا تَسُبُّوا الدَّهْرَ؛ فَإِنَّ اللهَ هُوَ الدَّهْرُ**»[3]، وَمَعْنَاهُ أَنتُم تَسُبُّونَ مَنْ فَرَّقَ شَمْلَكُمْ، وَأَمَاتَ أَهَالِيَكُم، وَتَنْسِبُونَه إِلىٰ الدَّهْرِ، وَاللهُ تَعَالىٰ هُوَ الفَاعِلُ لذٰلِكَ.

فَتَعَجَّبْتُ؛ كَيْفَ أُعْلِمُ أَهْلَ الأَسْقَامِ بِهٰذِهِ الحَالِ، وَهُمْ عَلىٰ مَا كَانَ أَهْلُ الجَاهِلِيَّةِ عَلَيْهِ مَا يَتَغَيَّرُوْنَ؟! حَتَّى رُبَّمَا اجْتَمَعَ الفُطَنَاءُ الأُدَبَاءُ الظِّرَافُ ـ عَلىٰ زَعْمِهِم ـ فَلَمْ يَكُنْ لَهُم شُغْلٌ إِلَّا ذَمَّ الدَّهْرِ! وَرُبَّما جَعَلوا اللهَ الدُّنيا، وَيَقُوْلُوْنَ: فَعَلَتْ وصَنَعَتْ! وَحَتَّى رَأَيْتُ **لِأَبي قَاسم الحَرِيْرِيِّ**[4] يَقُوْلُ:

وَلَـمَّا تَعَامَىٰ الدَّهْرُ، وَهْوَ أَبُوْ الرَّدَى ... عَنِ الرُّشْدِ فِي أَنْحَائِهِ وَمَقَاصِدِهْ

تَعَامَيْتُ، حَتَّى قِيلَ إِنِّي أَخُو عَمًى ... ولا غَرْوَ أَنْ يَحْذو الفَتَى حَذْوَ والِدِهِ

---

(١) يستعمل المؤلف هذا الفعل بمعانٍ عدة منها: يقتضي ويستوجب ويتطلّب ونحو ذلك.

(٢) **تتهوى**: تعرض نفسها للهواء.

(٣) رواه البخاري (٦١٨٢)، ومسلم (٢٢٤٦) عن أبي هريرة رضي الله عنه.

(٤) هو أبو القاسم عبد الله بن القاسم الملقب بنجم الدين ابن صاحب المقامات المشهورة. ولم يشتهر أبو القاسم هذا كشهرة لأبيه أبي محمد القاسم العلامة البارع ذو البلاغتين والتصانيف البديعة (٤٤٦ ـ ٥١٦هـ)، مولده ووفاته بالبصرة فلعلّ الاسم تصحّف، والله أعلم.

وَقَدْ رَأَيْتُ خَلْقًا يَعْتَقِدُوْنَ أَنَّهُم فُقَهَاءُ وَفُهَمَاءُ، وَلا يَتَحَاشَوْن مِنْ هٰذَا!!

وَهٰؤلاءِ إِنْ أَرَادُوْا بِالدَّهْرِ مُرُوْرَ الزَّمانِ؛ فَذَاكَ لا اخْتِيَارَ لَهُ، ولا مُرَادَ، وَلَا يَعْرِفُ رُشْدًا مِنْ ضَلَالٍ، وَلا يَنْبَغِي أَنْ يُلامَ؛ فَإِنَّهُ زَمَانٌ مُدَبَّرٌ، لا مُدَبِّرٌ، فَيُتَصَرَّفُ فِيْهِ، ولا يَتَصَرَّفُ. وَمَا يُظَنُّ بِعَاقِلٍ أَنْ يُشِيْرَ إِلىٰ أَنَّ المَذْمُوْمَ، المُعْرِضَ عَنِ الرُّشْدِ، السيِّئَ الحُكْم، هُوَ الزَّمَانُ! فَلَمْ يَبْقَ إِلَّا أَنَّ القَوْمَ خَرَجُوا عَنْ رِبْقَةِ[1] الإِسْلَامِ، ونَسَبُوا هٰذِهِ القَبَائِحَ إِلى الصَّانِعِ، فَاعْتَقَدُوا فِيْهِ قُصُوْرَ الحِكْمَةِ، وَفِعْلَ مَا لَا يَصِحُّ؛ كَمَا اعْتَقَدَهُ إِبْلِيْسُ فِي تَفْضِيْلِ آدمَ.

وَهٰؤلاءِ لا يَنْفُعُهُم مَعَ هٰذا الزَّيْغِ اعْتِقَادُ إِسْلامٍ، وَلا فِعْلُ صَلَاةٍ، بَلْ هُمْ شَرٌّ مِنَ الكُفَّارِ، لا أَصْلَحَ اللهُ لَهُم شَأْنًا، وَلا هَدَاهُم إِلىٰ رَشَادٍ.

٣٠٠ - فصل: زيادة الثواب في الآخرة بقدر العمل في الدنيا

١٣٣٥ - مِنْ عَجَائِبِ مَا أَرَىٰ مِنْ نَفْسِي وَمِنَ الخَلْقِ كُلِّهِم: المَيْلُ إِلىٰ الغَفْلَةِ عَمَّا فِي أَيْدِيْنَا؛ مَعَ العِلْمِ بِقِصَرِ العُمُرِ، وَأَنَّ زِيَادَةَ الثَّوَابِ هُنَاكَ، بِقَدْرِ العَمَلِ هَا هُنَا.

فَيَا قَصِيْرَ العُمُرِ! اغْتَنِمْ يَوْمَي مِنَى[2]! وَانْتَظِرْ سَاعَةَ النَّفْرِ! وَإِيَّاكَ أَنْ تَشْغَلَ قَلْبَكَ بِغَيْرِ مَا خُلِقَ لَهُ! وَاحْمِلْ نَفْسَكَ عَلىٰ المُرِّ! واقْمَعْها إِذَا أَبَتْ، وَلا تُسَرِّحْ لَهَا فِي الطِّوَلِ[3]؛ فَمَا أَنْتَ إِلَّا فِي مَرْعًى، وَقَبِيْحٌ بِمَن كَانَ بَيْنَ الصَّفَّيْنِ[4] أَنْ يَتَشَاغَلَ بِغَيْرِ مَا هُوَ فيهِ.

٣٠١ - فصل: الأمر بحفظ السر

١٣٣٦ - قَدْ كَرَّرْتُ هٰذا المَعْنَى فِي هٰذَا الكِتَابِ، وَهُوَ الأَمْرُ بِحِفْظِ السِّرِّ، وَالحَذَرُ مِنَ الانْبِسَاطِ فِيْمَا لا يَصْلُحُ بَيْنَ يَدَي النَّاسِ. فَرُبَّ مُنْبَسِطٍ بَيْنَ يَدَي مَنْ يَظُنُّه

---

(١) حبل فيه عرًى.
(٢) الأول والثاني من أيام التشريق.
(٣) الطول: كعنب حبل تربط به رجل الدابة حتى لا تبتعد في المرعى.
(٤) أي في الصف الأول المواجه للعدو.

صَدِيقًا، يَقُوْلُ فِي صَدِيْقٍ، أَوْ فِي سُلْطَانٍ، أَنَّهُ لا يَهْتَمُّ فِي ذٰلِكَ، فَيَكُوْنُ سَبَبَ هَلاكِ ذاكَ.

فَأُوْصِي السَّلِيْمَ الصَّدْرِ الَّذِي يَظُنُّ فِي النَّاسِ الخَيْرَ: بِأَنْ يَحْتَرِزَ مِنَ النَّاسِ، وَأَلّا يَقُوْلَ فِي الخَلْقِ كَلِمَةً لا تَصْلُحُ لِلْخَلْقِ، وَلا يَغْتَرَّ بِمَنْ يُظْهِرُ الصَّدَاقَةَ أَوِ التَّدَيُّنَ؛ فَقَدْ عَمَّ الخَبَثُ.

٣٠٢ - فصل: تسبيح المتيقّظين

١٣٣٧ ـ تَأَمَّلْتُ عَلىٰ أَكْثَرِ النَّاسِ عِبَادَاتِهِم؛ فَإِذَا هيَ عَادَاتٌ، فَأَمَّا أَرْبَابُ اليَقَظَةِ؛ فعَادَاتُهُم عِبَادَةٌ حَقِيْقِيّةٌ. فَإِنَّ الغَافِلَ يَقُوْلُ: سُبْحَانَ اللهِ عَادَةً، وَالمُتَيَقِّظَ لَا يَزَالُ فِكْرُهُ فِي عَجَائِبِ المَخْلُوْقَاتِ أَوْ فِي عَظَمَةِ الخَالِقِ، فَيُحَرِّكُهُ الفِكْرُ في ذٰلِكَ، فَيَقُوْلُ: سُبْحَانَ اللهِ.

١٣٣٨ ـ وَلَوْ أَنَّ إِنْسَانًا تَفَكَّرَ فِي **رُمَّانَةٍ**، فَنَظَرَ فِي تَصْفِيْفِ حَبِّها، وَحِفْظِهِ بِالأَغْشِيَةِ لِئلَّا يَتَضَاءَلَ، وَإِقَامَةِ المَاءِ عَلىٰ عَظْمِ العَجَمِ[1]، وَجَعْلَ الغِشَاءِ عَلَيْهِ يَحْفَظُهُ. **وَتَصْوِيْرِ الفَرْخِ** في بَطْنِ البَيْضَةِ، **والآدَمِيِّ في حَشَا الأُمِّ**، إلى غيرِ ذٰلِكَ من المَخْلُوْقَاتِ: **أَزْعَجَهُ**[2] هٰذَا الفِكْرُ إلىٰ تَعْظِيْمِ الخَالِقِ، فَقَالَ: سُبْحَانَ اللهِ! وَكَانَ هٰذَا التَّسْبِيْحُ ثَمَرَةَ الفِكْرِ. فَهٰذَا تَسْبِيْحُ المُتَيَقِّظِينَ، وَمَا تَزَالُ أَفْكَارُهُم تَجُوْلُ، فَتَقَعُ عِبَادَاتُهُم بِالتَّسْبِيْحَاتِ مُحَقَّقَةً.

وكذٰلِكَ يَتَفَكَّرُوْنَ فِي قَبَائِحِ ذُنُوْبٍ قَدْ تَقَدَّمَتْ، فَيُوْجِبُ ذٰلِكَ الفِكْرُ حَرَكَةَ البَاطِنِ، وَقَلَقَ القَلْبِ، ونَدَمَ النَّفْسِ، فَيُثْمِرُ ذٰلِكَ أَنْ يَقُوْلَ قَائِلُهُم: أَسْتَغْفِرُ اللهَ. فهٰذا هُوَ التَّسْبِيْحُ وَالاَسْتِغْفَارُ. فَأَمَّا الغَافِلُوْنَ؛ فَيَقُوْلُوْنَ ذٰلِكَ عَادَةً. وَشَتَّانَ مَا بَيْنَ الفَرِيْقَيْنِ.

٣٠٣ - فصل: لا يصفو الاشتغال بالآخرة إلا بالانقطاع عن الخلق

١٣٣٩ ـ لا يَصْفُو التَّعَبُّدُ وَالتَّزَهُّدُ والاَشْتِغَالُ بِالآخِرَةِ إِلَّا بِالاَنْقِطَاعِ الكُلِّيِّ عَنِ

---

(١) **العجم**: النوى.

(٢) **أزعجه**: دفعه وحمله.

الخَلْقِ؛ بِحَيْثُ لا يُبْصِرُهُم، وَلا يَسْمَعُ كَلَامَهُم إِلَّا فِيْ وَقْتِ ضَرُوْرَةٍ؛ كَصَلَاةِ جُمُعَةٍ أَوْ جَمَاعَةٍ، وَيَحْتَرِزُ فِي تِلْكَ السَّاعَاتِ مِنْهُم. وَإِنْ كَانَ عَالِمًا يُرِيْدُ نَفْعَهُم؛ وَعَلَّمَهُم وَقْتًا مَعْرُوْفًا، وَٱحْتَرَزَ فِي الكَلَامِ مَعَهُم.

وَأَمَّا مَنْ يَمْشِي فِي الأَسْوَاقِ اليَوْمَ، وَيَبِيْعُ، وَيَشْتَرِي مَعَ هٰذَا العَالَمِ المُظْلِمِ، وَيَرَى المُنْكَرَاتِ وَالمُسْتَهْجَنَاتِ؛ فَمَا يَعُوْدُ إِلىٰ البَيْتِ إِلَّا وَقَدْ أَظْلَمَ القَلْبُ.

١٣٤٠ - فَلَا يَنْبَغِي لِلْمُرِيْدِ أَنْ يَكُوْنَ خُرُوْجُهُ إِلَّا إِلىٰ الصَّحْرَاءِ وَالمَقَابِرِ. وَقَدْ كَانَ جَمَاعَةٌ مِنَ السَّلَفِ يَبِيْعُوْنَ، وَيَشْتَرُوْنَ، وَيَحْتَرِزُوْنَ، وَمَعَ هٰذَا؛ مَا صَفَا لِصَافِيْهِم وَقْتٌ، حَتَّى قَاطَعَ الخَلْقَ.

قَالَ **أَبُو الدَّرداءِ**: زَاوَلْتُ العِبَادَةَ وَالتِّجَارَةَ فَلَمْ يَجْتَمِعا، فَٱخْتَرْتُ العِبَادَةَ.

وَقَدْ جَاءَ فِي الحَدِيْثِ: «**الأسواقُ تُلْهِي وتُلْغِي**»[1]. فَمَنْ قَدَرَ عَلىٰ الحِمْيَةِ النَّافِعَةِ، وَاضْطُرَّ إِلىٰ المُخَالَطَةِ وَالكَسْبِ لِلعَائِلَةِ؛ فَلْيَحْتَرِزِ ٱحْتِرَازَ المَاشِي فِي الشَّوْكِ، وَبَعِيْدٌ سَلَامَتُهُ.

٣٠٤ - فصل: يدوم طيب القلب بدوام التقوى

١٣٤١ - مَنْ رُزِقَ قَلْبًا طَيِّبًا، وَلَذَّةَ مُنَاجَاةٍ؛ فَلْيُرَاعِ حَالَهُ، وَلْيَحْتَرِزْ مِنَ التَّغْيِيرِ. وَإِنَّمَا تَدُومُ لَهُ حَالُهُ بِدَوَامِ التَّقْوىٰ.

١٣٤٢ - وَكُنْتُ قَدْ رُزِقْتُ قَلْبًا طَيِّبًا، وَمُنَاجَاةَ خَلْوَةٍ[2]، فَأَحْضَرَنِي بَعْضُ أَرْبَابِ المَنَاصِبِ إِلَىٰ طَعَامِهِ، فَمَا أَمْكَنَ خِلَافُهُ، فَتَنَاوَلْتُ، وَأَكَلْتُ مِنْهُ، فَلَقِيْتُ الشَّدَائِدَ، وَرَأَيْتُ العُقُوبَةَ فِي الحَالِ، وَٱسْتَمَرَّتْ مُدَّةً، وَغَضِبْتُ عَلَىٰ قَلْبِي، وَفَقَدْتُ كُلَّ مَا كُنْتُ أَجِدُهُ. فَقُلْتُ: وَا عَجَبًا! لَقَدْ كُنْتُ فِي هٰذَا كَالمُكْرَهِ!

---

(١) رواه أحمد في الزهد ص(١٦٨) موقوفًا من كلام أبي الدرداء رضي الله عنه، وروى النسائي عن قيس بن أبي غرزة قال: أتانا النبي ﷺ وكان في السوق فقال: «إن هذه السوق يخالطها اللغو والكذب، فشوبوها بالصدقة».

(٢) اقرأ: مناجاةً حلوةً.

فَتَفَكَّرْتُ، وَإِذَا بِهِ قَدْ يُمْكِنُ مُدَارَاةُ الأَمْرِ بِلُقَيْمَاتٍ يَسِيرَةٍ، وإنما التَّأْوِيلُ [جَعَلَ] تَنَاوُلَ هٰذَا الطَّعَامِ بِشَهْوَةٍ أَكْثَرَ مِمَّا يُدْفَعُ بِالْمُدَارَاةِ. **فَقَالَتِ النَّفْسُ**: وَمِنْ أَيْنَ لِي أَنَّ عَيْنَ هٰذَا الطَّعَامِ حَرَامٌ؟! **فَقَالَتِ اليَقَظَةُ**: وَأَيْنَ الوَرَعُ عَنِ الشُّبُهَاتِ؟! فَلَمَّا تَنَاوَلْتُ بِالتَّأْوِيلِ لُقْمَةً، وَاسْتَجْلَبْتُهَا بِالطَّبْعِ؛ لَقِيتُ الأَمَرَّيْنِ بِفَقْدِ القَلْبِ؛ ﴿فَٱعْتَبِرُوا۟ يَـٰٓأُو۟لِى ٱلْأَبْصَـٰرِ﴾! [الحشر: ٢]

٣٠٥ - فصل: همّة المؤمن متعلّقة بالآخرة

١٣٤٣ ـ هِمَّةُ المُؤْمِنِ مُتَعَلِّقَةٌ بِالآخِرَةِ؛ فَكُلُّ مَا فِي الدُّنْيَا يُحَرِّكُهُ إِلىٰ ذِكْرِ الآخِرَةِ، وَكُلُّ مَنْ شَغَلَهُ شَيْءٌ؛ فَهِمَّتُهُ شُغْلُهُ.

أَلَا تَرَىٰ أَنَّهُ لَوْ دَخَلَ أَرْبَابُ الصَّنَائِعِ إِلىٰ دَارٍ مَعْمُورَةٍ؛ رَأَيْتَ البَزَّازَ يَنْظُرُ إِلَىٰ الفَرْشِ، وَيَحْزِرُ قِيْمَتَهُ، وَالنَّجَّارَ إِلى السَّقْفِ، وَالبَنَّاءَ إِلىٰ الْحِيطَانِ، والحَائِكَ إِلىٰ النَّسْجِ[1].

١٣٤٤ ـ وَالْمُؤْمِنُ إِذَا رَأَىٰ ظُلْمَةً؛ ذَكَرَ ظُلْمَةَ القَبْرِ، وَإِنْ رَأَىٰ مُؤْلِمًا؛ ذَكَرَ العِقَابَ، وَإِنْ سَمِعَ صَوْتًا فَظِيعًا؛ ذَكَرَ نَفْخَةَ الصُّوْرِ، وَإِنْ رَأَىٰ النَّاسَ نِيَامًا؛ ذَكَرَ المَوْتىٰ فِي الْقُبُورِ، وَإِنْ رَأَىٰ لَذَّةً؛ ذَكَرَ الجَنَّةَ؛ فَهِمَّتُهُ مُتَعَلِّقَةٌ بِمَا ثَمَّ[2]، وَذٰلِكَ يَشْغَلُهُ عَنْ كُلِّ مَا تَمَّ.

١٣٤٥ ـ وَأَعْظَمُ مَا عِنْدَهُ أَنَّهُ يَتَخَايَلُ دَوَامَ البَقَاءِ فِي الجَنَّةِ، وَأَنَّ بَقَاءَهُ لا يَنْقَطِعُ، وَلَا يَزَالُ، وَلَا يَعْتَرِيهِ مُنَغِّصٌ[3]، فَيَكَادُ إِذَا تَخَايَلَ نَفْسَهُ مُتَقَلِّبًا فِي تِلْكَ اللَّذَّاتِ الدَّائِمَةِ، الَّتِي لا تَفْنَىٰ: يَطِيشُ فَرَحًا، وَيَسْهُلُ عَلَيْهِ مَا فِي الطَّرِيقِ إِلَيْهَا؛ مِنْ أَلَمٍ، وَمَرَضٍ، وَابْتِلَاءٍ، وَفَقْدِ مَحْبُوبٍ، وَهُجومِ المَوْتِ، وَمُعَالَجَةِ غُصَصِهِ؛ فَإِنَّ المُشْتَاقَ إِلَىٰ الكَعْبَةِ يَهُونُ عَلَيْهِ رَمْلُ **زَرُودَ**[4]، وَالتَّائِقُ[5] إلى العَافِيَةِ لا يُبَالِي بِمَرَارَةِ

---

(١) في الأصل: نسج الثياب.
(٢) هناك في الآخرة.
(٣) في الأصل: نغصة.
(٤) **زرود**: رمال كثيرة في طريق القادم من الكوفة إلى مكة.
(٥) **التائق**: المشتاق.

الدَّوَاءِ، وَيَعْلَمُ أَنَّ جَوْدَةَ الثَّمَرِ ثَمَّ علىٰ مِقْدَارِ جَوْدَةِ البِذْرِ هَاهُنَا؛ فَهُوَ يَتَخَيَّرُ الأَجْوَدَ، وَيَغْتَنِمُ الزَّرْعَ فِي تَشْرِينَ[1] العُمُرِ مِنْ غَيْرِ فُتُورٍ. ثُمَّ يَتَخَايَلُ المُؤْمِنُ دُخُولَ النَّارِ وَالْعُقُوبَة، فَيَتَنَغَّصُ عَيْشُهُ، وَيَقْوَىٰ قَلَقُهُ. فَعِنْدَهُ بِالْحَالَيْنِ شُغْلٌ عَنِ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا، فَقَلْبُهُ هَائِمٌ فِي بَيْدَاءِ الشَّوْقِ تَارَةً، وَفِي صَحْرَاءِ الخَوْفِ أُخْرَىٰ؛ فَمَا يَرَىٰ البُنْيَانَ.

فَإِذَا نَازَلَهُ المَوْتُ؛ قَوِيَ ظَنُّهُ بِالسَّلَامَةِ[2]، وَرَجَا لِنَفْسِهِ النَّجَاةَ، فَيَهُوْنُ عَلَيْهِ. فَإِذَا نَزَلَ إِلَىٰ الْقَبْرِ، وَجَاءَهُ مَنْ يَسْأَلُونَهُ؛ قَالَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ: دَعُوْهُ؛ فَمَا اسْتَرَاحَ إِلَّا السَّاعَةَ.

نَسْأَلُ اللهَ ﷻ يَقَظَةً تَامَّةً؛ تُحَرِّكُنا إِلَىٰ طَلَبِ الفَضَائِلِ، وَتَمْنَعُنَا مِنِ اخْتِيَارِ الرَّذَائِلِ؛ فَإِنَّهُ إِنْ وَفَّقَ، وَإِلَّا؛ فَلَا نَافِعَ.

٣٠٦ - فصل: كمال الصورة اعتدالها

١٣٤٦ ـ لَقَدِ اعْتَبَرْتُ علىٰ مَوْلَايَ ﷻ أَمْرًا عَجِيبًا، وَهُوَ أَنَّهُ تَعَالَىٰ لا يَخْتَارُ لِمحَبَّتِهِ؛ والقُرْبِ مِنْهُ: إِلَّا الكَامِلَ صُوْرَةً وَمَعْنًى. وَلَسْتُ أَعْنِي حُسْنَ التَخَاطِيْطِ[3]، وَإِنَّمَا كَمَالُ الصُّورَةِ اعْتِدَالُهَا، والمُعْتَدِلَةُ مَا تَخْلُو مِنْ حُسْنٍ، فَيَتْبَعُهَا حُسْنُ الصُّورَةِ البَاطِنَةِ، وَهُوَ كَمَالُ الأَخْلَاقِ، وَزَوَالُ الأَكْدَارِ، وَلَا يُرَىٰ فِي بَاطِنِهِ خَبَثًا وَلَا كَدَرًا، بَلْ قَدْ حَسُنَ بَاطِنُه كَمَا حَسُنَ ظَاهِرُهُ. وَقَدْ كَانَ مُوسَىٰ عليه السلام كُلُّ مَنْ رَآهُ يُحِبُّهُ. **وَكَانَ نَبِيُّنَا ﷺ كَالْقَمَرِ لَيْلَةَ البدرِ**[4].

١٣٤٧ ـ وَقَدْ يَكُونُ الوَلِيُّ أَسْوَدَ اللَّوْنِ، لٰكِنَّهُ حَسَنُ الصُّوْرَةِ، لَطِيفُ المَعَانِي. فَعَلَىٰ قَدْرِ مَا عِنْدَ الإِنْسَانِ مِنَ التَّمَامِ فِي كَمَالِ الخَلْقِ والخُلُقِ يَكُونُ عَمَلُهُ، وَيَكُونُ تَقْرِيبُهُ إِلَىٰ الحَضْرَةِ بِحَسَبِ ذٰلِكَ؛ فَمِنْهُمْ كَالخَادِمِ عَلَىٰ البَابِ، وَمِنْهُمْ حَاجِبٌ، وَمِنْهُمْ مُقَرَّبٌ، وَيَنْدُرُ مَنْ يَتِمُّ لَهُ الكَمَالُ، وَلَعَلَّهُ لا يُوجَدُ فِي مِئَةِ سَنَةٍ مِنْهُمْ غَيْرُ وَاحِدٍ، وَهٰذِهِ

---

(١) **تشرين**: موسم الزراعة الشتوية.
(٢) في الأصل: قوّى ظنّه الملائكةُ.
(٣) **التخاطيط**: القسمات والملامح.
(٤) أخرجه البخاري (٣٥٥٢) عن البراء رضي الله عنه.

حِكَايَةٌ مَا تَحْصُلُ بِالاجْتِهَادِ، بَلِ الاجْتِهَادُ يَحْصُلُ مِنْهَا؛ لِأَنَّهُ إِذَا وَقَعَ تَمَامٌ؛ حَثَّ عَلَىٰ الجِدِّ عَلَىٰ قَدْرِ نُقْصَانِهِ وَهٰذَا لا حِيْلَةَ فِي أَصْلِهِ، إِنَّمَا هُو جِبِلَّةٌ، وَإِذَا أَرَادَكَ لِأَمْرٍ؛ هَيَّأَكَ لَهُ.

٣٠٧ - فصل: الحقّ منزّهٌ عن العبث

١٣٤٨ - تَأَمَّلْتُ عَلَىٰ قَوْمٍ يَدَّعُوْنَ الْعُقُولَ، وَيَعْتَرِضُوْنَ عَلَىٰ حِكْمَةِ الخَالِقِ! فَيَنْبَغِي أَنْ يُقَالَ لَهُمْ: هٰذَا الفَهْمُ الَّذِي دَلَّكُمْ عَلَىٰ رَدِّ حِكْمَتِهِ؛ أَلَيْسَ هُوَ مَنْ مَنَحَهُ؟! فَأَعْطَاكُمُ الكَمَالَ، وَرِضَيَ لِنَفْسِهِ بِالنَّقْصِ؟! هٰذَا هُوَ الكُفْرُ المَحْضُ، الذي يَزِيدُ فِي القُبْحِ عَلَىٰ الجَحْدِ.

١٣٤٩ - فَأَوَّلُ القَوْمِ إِبْلِيسُ؛ فَإِنَّهُ رَأَىٰ بِعَقْلِهِ أَنَّ جَوْهَرَ النَّارِ أَشْرَفُ مِنْ جَوْهَرِ الطِّيْنِ، فَرَدَّ حِكْمَةَ الخَالِقِ. وَمَرَّ عَلَىٰ هٰذَا خَلْقٌ كَثِيرٌ مِنَ المُعْتَرِضِيْنَ؛ مِثلُ ابْنِ **الرَّاوَنْدِيِّ، والبصريِّ**[1] وهٰذَا **المَعَرِّيُّ** اللَّعِينُ يَقُولُ: كيفَ يُعابُ **ابنُ الحَجَّاجِ**[2] بالسُّخفِ، والدَّهْرُ أَقْبَحُ فِعْلًا مِنْهُ؟! أَتُرَىٰ يَعْنِي بِهِ الزَّمَانَ؟! كَلَّا؛ فَإِنَّ مَمَرَّ الأَوْقَاتِ لا يَفْعَلُ شَيْئًا، وَإِنَّمَا هُوَ تسفيف[3]! وَكَانَ يَسْتَعْجِلُ المَوْتَ؛ ظَنًّا مِنْهُ أَنَّهُ يَسْتَرِيحُ! وَكَانَ يُوْصِي بِتَرْكِ النِّكَاحِ، والنُّسْكِ! وَلَا يَرَىٰ فِي الإِيجَادِ حِكْمَةً إِلَّا العَنَاءَ والتَّعَبَ! وَمَصِيْرَ الْأَبْدَانِ إِلَىٰ البِلَىٰ!!

وَهٰذَا لَوْ كَانَ كَمَا ظَنَّ؛ كَانَ الْإِيجَادُ عَبَثًا، وَالحَقُّ مُنَزَّهًا عَنِ العَبَثِ؛ قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًا﴾ [ص: ٢٧]. فَإِذَا كَانَ مَا خُلِقَ لَنَا لَمْ يُخْلَقْ عَبَثًا؛ أَفَنَكُونُ نَحْنُ - وَنَحْنُ مَواطِنُ مَعْرِفَتِهِ وَمَحَالُّ تَكْلِيفِهِ - قَدْ وُجِدْنَا عَبَثًا؟!

---

(١) العلوي البصري صاحب الزنج، ذكر بعض الناس أنه كان قبل خروجه يذكر أنه من عبد قيس، ثم من أنمار وكان اسمه أحمد، فلما خرج سنة (٢٥٥)هـ تسمّى عليًا، وانتسب إلى الحسين بن علي بن أبي طالب، قتل سنة (٢٧٠هـ).

(٢) الحسين بن أحمد بن الحجاج البغدادي، شاعر سفيه، أمير الفحش، له باع من الغزل، أما الزطاطة والتفحش فهو حامل لوائها، توفي سنة (٣٩١هـ). ولعل الصواب الحجاج بن يوسف، لأن فساده أكبر.

(٣) تهافت وفساد.

١٣٥٠ ـ وَمِثْلُ هٰذَا الجَهْلِ إِنَّمَا يَصْدُرُ مِمَّنْ يَنْظُرُ فِي قَضَايَا العُقُولِ الّتِي يُحْكَمُ بِهَا عَلَىٰ الظَّوَاهِرِ؛ مِثْلُ أَنْ يَرَىٰ مَبْنِيًّا يُنْقَضُ، وَالْعَقْلُ بِمُجَرَّدِهِ لا يَرَىٰ ذٰلِكَ حِكْمَةً، وَلَوْ كُشِفَتْ لَهُ حِكْمَةُ ذٰلِكَ؛ لَعَلِمَ أَنَّهُ صَوَابٌ؛ كَمَا كُشِفَ لِمُوسَىٰ مُرَادُ الخَضِرِ فِي خَرْقِ السَّفِينَةِ، وَقَتْلِ الغُلَامِ.

وَمَعْلُومٌ أَنَّ ذَبْحَ الحَيَوَانِ، وَتَقْطِيعَ الرَّغِيفِ، وَمَضْغَ الطَّعَامِ، لا يَظْهَرُ لَهُ فَائِدَةٌ عَلَىٰ الإِطْلَاقِ؛ فَإِذَا عُلِمَ أَنَّهُ غِذَاءٌ لِبَدَنِ مَنْ هُوَ أَشْرَفُ بَدَنًا مِنَ المَذْبُوحِ؛ حَسُنَ ذٰلِكَ الفِعْلُ.

وَاعَجَبًا! أَوَما تَقْضِي العُقُولُ بِوُجُوبِ طَاعَةِ الحَكِيمِ، الّذي تَعْجِزُ عَنْ مَعْرِفَةِ حِكَمِ مَخْلُوقَاتِهِ؟! فَكَيْفَ تُعَارِضُهُ فِي أَفْعَالِهِ؟! نَعُوذُ بِاللهِ مِنَ الخذْلَانِ.

٣٠٨ - فصل: من اضطر أن يعظ سلطانًا تلطّف معه

١٣٥١ ـ يَنْبَغِي لِمَنْ وَعَظَ سُلْطَانًا أَنْ يُبَالِغَ فِي التَّلَطُّفِ، وَلا يُوَاجِهَهُ بِمَا يَقْتَضِي أَنَّهُ ظَالِمٌ؛ فَإِنَّ السَّلَاطِينَ حَظُّهُمُ التَّفَرُّدُ بِالْقَهْرِ وَالْغَلَبَةِ؛ فَإِذَا جَرَىٰ نَوْعُ تَوْبِيخٍ لَهُمْ؛ كَانَ إِذْلَالًا، وَهُمْ لا يَحْتَمِلُونَ ذٰلِكَ، وَإِنَّمَا يَنْبَغِي أَنْ يَمْزُجَ وَعْظَهُ بِذِكْرِ شَرَفِ الوِلَايَةِ، وَحُصُولِ الثَّوَابِ فِي رِعَايَةِ الرَّعَايَا، وَذِكْرِ سِيَرِ العَادِلِينَ مِنْ أَسْلَافِهِمْ.

١٣٥٢ ـ ثُمَّ لِيَنْظُرِ الوَاعِظُ فِي حَالِ المَوْعُوظِ قَبْلَ وَعْظِهِ: فَإِنْ رَأَى سِيْرَتَهُ حَمِيدَةً ـ كَمَا كَانَ **مَنْصُورُ بْنُ عَمَّارٍ** وَغَيْرُهُ يَعِظُوْنَ **الرَّشِيدَ**[1] وَهُوَ يَبْكِي ـ وَقَصْدَهُ الخَيْرَ؛ زَادَ فِي وَعْظِهِ وَوَصِيَّتِهِ.

وَإِنْ رَآهُ ظَالِمًا، لا يَلْتَفِتُ إِلَىٰ الخَيْرِ؛ وَقَدْ غَلَبَ عَلَيْهِ الجَهْلُ؛ اجْتَهَدَ فِيْ أَلَّا يَرَاه وَلا يَعِظُهُ؛ لِأَنَّهُ إِنْ وَعَظَهُ؛ خَاطَرَ بِنَفْسِهِ، وَإِنْ مَدَحَهُ؛ كَانَ مُدَاهِنًا، فَإِنِ اضْطُرَّ إِلَىٰ مَوْعِظَتِهِ؛ كَانَتْ كالإِشَارَةِ[2].

---

(١) هارون بن محمد بن المنصور العباسي (١٤٩ ـ ١٩٣هـ) أشهر الخلفاء العباسيين، كان عالمًا بالأدب والتاريخ والحديث والفقه، وكان يحج عامًا ويغزو عامًا على الأغلب.

(٢) إن صدع بالحق وخاطر بنفسه فهو سيد الشهداء. قال ﷺ: «أفضل الجهاد كلمة حق عند سلطان جائر». وقال أيضًا: «سيد الشهداء حمزة بن عبد المطلب، ورجل قام إلى إمام جائر فأمره ونهاه فقتله» ومن هذا قصة الغلام وأصحاب الأخدود.

١٣٥٣ ـ وَقَدْ كَانَ أَقْوَامٌ مِنَ السَّلَاطِيْنِ يَلِينُونَ عِنْدَ المَوْعِظَةِ، وَيَحْتَمِلُونَ الوَاعِظِينَ، حَتَّى إِنَّهُ قَدْ كَانَ **المَنْصُورُ** يُوَاجَهُ بِأَنَّكَ ظَالِمٌ فَيَصْبِرُ... وَقَدْ تَغَيَّرَ الزَّمَانُ، وَفَسَدَ أَكْثَرُ الوُلَاةِ، وَدَاهَنَهُمُ العُلَمَاءُ، وَمَنْ لَا يُدَاهِنُ لا يَجِدُ قَبُولًا لِلصَّوَابِ، فَيَسْكُتُ.

١٣٥٤ ـ وَقَدْ كَانَتِ الوِلَايَاتُ لَا يَسْأَلُهَا إِلَّا مَنْ أَحْكَمَتْهُ العُلُومُ، وَثَقَّفَتْهُ التَّجَارِبُ، فَصَارَ أَكْثَرُ الوُلَاةِ يَتَسَاوَوْنَ فِي الْجَهْلِ، فَتَأْتِي الوِلَايَةُ عَلَىٰ مَنْ لَيْسَ مِنْ أَهْلِهَا.

وَمِثْلُ هٰؤُلَاءِ يَنْبَغِي الحَذَرُ مِنْهُمْ، وَالْبُعْدُ عَنْهُمْ؛ فَمَنِ ابْتُلِيَ بِوَعْظِهِمْ؛ فَلْيَكُنْ عَلَىٰ غَايَةِ التَّحَرُّزِ فِيْمَا يَقُوْلُ، وَلَا يَنْبَغِي أَنْ يَغْتَرَّ بِقَوْلِهِمْ: عِظْنا[1]! فَإِنَّهُ لَوْ قَالَ كَلِمَةً لا تُوَافِقُ أَغْرَاضَهُمْ؛ ثَارَتْ حَرَارَاتُهُمْ.

١٣٥٥ ـ وَلْيَحْذَرْ مُذَكِّرُ السُّلْطَانِ أَنْ يُعَرِّضَ لَهُ بِأَرْبَابِ الوِلَايَاتِ؛ فَإِنَّهُمْ إِذَا سَمِعُوا بِذٰلِكَ؛ صَارَ الوَاعِظُ مَقْصُودًا لَهُمْ بِالإِهْلَاكِ؛ خَوْفًا مِنْ أَنْ يَعْتَبِرَ السُّلْطَانُ أَحْوَالَهُمْ، فَتَفْسُدَ أُمُورُهُمْ. وَالْبُعْدُ فِي هٰذَا الزَّمَانِ عَنْهُمْ أَصْلَحُ، وَالسُّكُوتُ عَنِ الْمَوَاعِظِ لَهُمْ أَسْلَمُ؛ فَمَنِ اضْطُرَّ؛ تَلَطَّفَ غَايَةَ التَّلَطُّفِ، وَجَعَلَ وَعْظَهُ لِلْعَوَامِّ، وَهُمْ يَسْمَعُوْنَ، وَلا يَعْنِيْهِم مِنْهُ بِشَيْءٍ. واللهُ المُوَفِّقُ.

٣٠٩ - فصل: الحق لا يشتبه بباطل

١٣٥٦ ـ الحَقُّ لا يَشْتَبِهُ بِبَاطِلٍ، إِنَّمَا يُمَوَّهُ البَاطِلُ عِنْدَ مَنْ لا فَهْمَ لَهُ. وَهٰذَا فِي حَقِّ مَنْ يَدَّعِي النُّبوَّاتِ، وَفِي حَقِّ مَنْ يَدَّعِي الكَرَامَاتِ.

١٣٥٧ ـ أَمّا **النبوَّاتُ**؛ فَإِنَّهُ قَدِ ادَّعَاهَا خَلْقٌ كَثِيرٌ؛ ظَهَرَتْ قَبَائِحُهُمْ، وَبَانَتْ فَضَائِحُهُمْ، وَمِنْهَا مَا توجِبُهُ خِسَّةُ الهِمَّةِ، وَالتَّهَتُّكُ فِي الشَّهَوَاتِ، وَالتَّهَافُتُ فِي الْأَقْوَالِ وَالأَفْعَالِ، حَتَّى افتُضِحُوا.

١٣٥٨ ـ فَمِنْهُمُ **الأَسْوَدُ العَنْسِيُّ**: ادَّعَىٰ النُّبُوَّةَ، وَلَقَّبَ نَفْسَهُ ذَا الخِمَارِ؛ لِأَنَّهُ

---

(١) في الأصل: ظنًا، وهو تصحيف.

كَانَ يَقُولُ: يَأْتِينِي ذُو الخِمَارِ[1]، وَكَانَ أَوَّلَ أَمْرِهِ كَاهِنًا يُشَعْوِذُ، فَيُظْهِرُ الأَعَاجِيبَ، فَخَرَجَ فِي أَوَاخِرِ حَيَاةِ النَّبِيِّ ﷺ، فَكَاتَبَتْه مَذْحِجٌ وواعد وَنَجْرَانُ، وَأَخْرَجُوا عَمْرَو بْنَ حَزْمٍ[2]، وَخَالِدَ بْنَ سَعِيدٍ[3] صَاحِبَيْ رَسُولِ اللهِ ﷺ، وَصَفَا لَهُ اليَمَنُ، وَقَاتَلَ شَهْرَ بْنَ بَاذَامٍ، فَقَتَلَهُ، وَتَزَوَّجَ ابْنَتَهُ[4]، فَأَعَانَتْ عَلَىٰ قَتْلِهِ، فَهَلَكَ فِي حَيَاةِ رَسُولِ اللهِ ﷺ، وَبَانَ لِلْعُقَلَاءِ أَنَّهُ كَانَ يُشَعْبِذُ.

١٣٥٩ ـ وَمِنْهُمْ **مُسَيْلِمَةُ**؛ ٱدَّعَىٰ النُّبُوَّةَ، وَتَسَمَّىٰ رَحْمَانَ اليَمَامَةِ؛ لِأَنَّهُ كَانَ يَقُولُ: الَّذِي يَأْتِينِي رَحْمَانٌ! فَآمَنَ **بِرَسُولِ اللهِ** ﷺ، وَٱدَّعَىٰ أَنَّهُ قَدْ أُشْرِكَ مَعَهُ! فَالْعَجَبُ أَنَّهُ يُؤْمِنُ بِرَسُولٍ، وَيَقُولُ: إِنَّهُ كَذَّابٌ! ثُمَّ جَاءَ بِقُرْآنٍ يُضْحِكُ النَّاسَ؛ مِثْلَ قَوْلِهِ: يَا ضِفْدَعُ بِنْتُ ضِفْدَعَيْنِ! نُقِّي[5] مَا تَنُقِّينَ، أَعْلَاكِ فِي المَاءِ، وَأَسْفَلُكِ فِي الطِّيْنِ! وَمِنَ العَجَائِبِ شَاةٌ سَوْدَاءُ، تَحْلِبُ لَبَنًا أَبْيَضَ! فَانْهَتَكَ سَتْرُهُ فِي هٰذِهِ الفَصَاحَةِ، ثُمَّ مَسَحَ بِيَدِهِ عَلَىٰ رَأْسِ صَبِيٍّ، فَذَهَبَ شَعْرُهُ! وَبَصَقَ فِي بِئْرٍ، فَيَبِسَتْ.

وَتَزَوَّجَ **سَجَاحَ**[6] الَّتِي ادَّعَتِ النُّبُوَّةَ، فَقَالُوا: لَا بُدَّ لَهَا مِنْ مَهْرٍ. فَقَالَ: مَهْرُهَا أَنِّي قَدْ أَسْقَطْتُ عَنْكُمْ صَلَاتَيِ الفَجْرِ وَالعَتَمَةِ!

١٣٦٠ ـ وَكَانَتْ **سَجَاحُ** هٰذِهِ قَدِ ادَّعَتِ النُّبُوَّةَ بَعْدَ مَوْتِ رَسُولِ اللهِ ﷺ، فَٱسْتَجَابَ لَهَا جَمَاعَةٌ، فَقَالَتْ: أَعِدُّوا الرِّكَاب، وَٱسْتَعِدُّوا لِلنِّهَاب، ثُمَّ ٱعْبُرُوا عَلَىٰ الرِّبَاب؛ فَلَيْسَ دُوْنَهُمْ حِجَاب؛ فَقَاتِلُوْهُمْ!

---

(١) وقيل: لأنه كان يعتم بخمار. وقد وقع في الأصل: ذا الحمارة، وهو تصحيف.

(٢) عمرو بن حزم بن زيد بن لوذان الأنصاري، توفي سنة (٥٣هـ).

(٣) خالد بن سعيد بن العاص الأموي، الصحابي من الولاة الغزاة، توفي سنة (١٤هـ).

(٤) كان باذان أميرًا على صنعاء من قِبل النبيِّ ﷺ، فلما مات تزوّج العنسي امرأته المرزبانة، التي سقته الخمر حتى سكر، فدخل عليه فيروز، واحتزّ رأسه. انظر فتح الباري (٨/ ٧٦).

(٥) في الأصل: تنقي، وهو تصحيف.

(٦) سجاح بنت الحارث التميمية من بني يربوع، متنبئة كانت شاعرة عالمة بالأخبار، تزوجت مسيلمة الكذاب، وبعد قتله عادت إلى الإسلام، وهاجرت إلى البصرة وحسن إسلامها، توفيت سنة (٥٥هـ).

ثُمَّ قَصَدَتِ **اليَمَامَةَ**[1]، فَهَابَهَا **مُسَيْلِمَةُ**، فَرَاسَلَهَا، وَأَهْدَىٰ لَهَا، فَحَضَرَتْ عِنْدَهُ، **فَقَالَتْ**: أَقْرَأُ عَلَيَّ مَا يَأْتِيكَ بِهِ **جِبْرِيلُ! فَقَالَ**: إِنَّكُنَّ مَعْشَرَ النِّسَاءِ خُلِقْتُنَّ أَفْوَاجًا، وَجُعِلْتُنَّ لَنَا أَزْوَاجًا، نُوْلِجُهُ فِيكُنَّ إِيلاجًا. **فَقَالَتْ**: صَدَقْتَ؛ أَنْتَ نَبِيٌّ. **فَقَالَ لَهَا**:

[أَلَا] قُومِي إِلَىٰ المَخْدَعْ ... فَقَدْ هُيِّيَ لَكِ المَضْجَعْ
فَإِنْ شِئْتِ سَلَقْنَاكِ ... وَإِنْ شِئْتِ عَلَىٰ أَرْبَعْ[2]
وَإِنْ شِئْتِ بِثُلْثَيْهِ ... وَإِنْ شِئْتِ بِهِ أَجْمَعْ

فَقَالَتْ: بَلْ بِهِ أَجْمَعْ؛ فَهُو لِلشَّمْلِ أَجْمَعْ!

فَافْتُضِحَتْ عِنْدَ العُقَلَاءِ مِنْ أَصْحَابِهَا، فَقَالَ مِنْهُمْ **عُطَارِدُ بْنُ حَاجِبٍ**[3]:

أَضْحَتْ نَبِيَّتُنَا أُنْثَىٰ يُطَافُ بِهَا ... وَأَصْبَحَتْ أَنْبِيَاءُ النَّاسِ ذُكْرَانَا
فَلَعْنَةُ اللهِ رَبِّ النَّاسِ كُلِّهِمُ ... عَلَىٰ سَجَاحٍ وَمَنْ بِالإِفْكِ أَغْوَانَا
أَعْنِي مُسَيْلِمَةَ الكَذَّابَ لا سُقِيَتْ ... أَصْدَاؤُهُ مِنْ رَعِيثٍ حَيْثُمَا كَانَا[4]

ثُمَّ إِنَّهَا رَجَعَتْ عَنْ غِيِّهَا، وَأَسْلَمَتْ. وَمَا زَالَتْ تَبِيْنُ فَضَائِحُ مُسَيْلِمَةَ حَتَّى قُتِلَ.

١٣٦١ ـ وَمِنْهُمْ **طُلَيْحَةُ بْنُ خُوَيْلِدٍ**[5]؛ خَرَجَ بَعْدَ دَعْوَىٰ مُسَيْلِمَةَ النُّبُوَّةَ، وَتَبِعَه عَوَامُّ، وَنَزَلَ سَمِيْرَاءَ[6]، فَتَسَمَّى بِذِي النُّونِ؛ يَقُولُ: إِنَّ الَّذِي يَأْتِيهِ، يُقَالُ لَهُ: ذو النُّونِ، وَكَانَ مِنْ كَلَامِهِ: إِنَّ اللهَ لا يَصْنَعُ بِتَعْفِيرِ وُجُوهِكُمْ، وَلا قُبْحِ أَدْبَارِكُمْ شَيْئًا؛ فَاذْكُرُوا اللهَ أَعِفَّةً قِيَامًا! وَمِنْ قُرآنِهِ: وَالحَمَامُ واليَمَامْ، والصُّرَدِ[7] الصَّوَّامْ، لَيَبْلُغَنَّ

---

(١) اليمامة منطقة الرياض في نجد.

(٢) في الأصل: مستلقاة، والتصويب من الأغاني (٢١/ ٢٩) والسلق الإلقاء على الظهر.

(٣) خطيب شاعر من سراة بني تميم، وفد على النبي ﷺ، ثم ارتد، واتبع سجاح، ثم عاد إلى الإسلام، توفي سنة (٢٠هـ)، ونسبت الأبيات إلى قيس بن عاصم كما في الأغاني (١٤/ ٥٧).

(٤) كذا في الأصل، وفي ثمار القلوب (ماء مزن).

(٥) الأسدي من الفصحاء، الشجعان، وفد على النبي ﷺ سنة (٩هـ)، ثم ارتد وادعى النبوة، فقاتله خالد، وفرّ إلى الشام، ثم رجع إلى الإسلام، وبايع عمر في المدينة، وحسن إسلامه، وشهد القادسية، وأبلى فيها بلاءً حسنًا، واستشهد بنهاوند سنة (٢١هـ).

(٦) **سميراء**: منزل من منازل الطريق من الوافد إلى مكة، ويقع في ديار بني أسد.

(٧) **الصرد**: طائر ضخم الرأس والمنقار، أبيض البطن، أخضر الظهر، له برثن، ويصطاد صغار الطير، وكانوا يتشاءمون به.

مُلْكُنَا العِرَاقَ والشَّامْ!! وَتَبِعَهُ عُيَيْنَةُ بْنُ حِصْنٍ[1]، فَقَاتَلَهُ خَالِدُ بْنُ الوَلِيدِ، فَجَاءَ عُيَيْنَةُ إِلَىٰ طُلَيْحَةَ، **فَقَالَ**: وَيْحَكَ! أَجَاءَكَ المَلَكُ؟ **قَالَ**: لَا؛ فَٱرْجِعْ فَقَاتِلْ. فَقَاتَلَ، ثُمَّ عَادَ، **فَقَالَ**: أَجَاءَكَ؟ **فَقَالَ**: لا. فَعَادَ فَقَاتَلَ، [ثُمَّ عَادَ، **فَقَالَ**: أَجَاءَكَ؟ **فَقَالَ**: لا. فَعَادَ فَقَاتَلَ، ثُمَّ عَادَ]، **فَقَالَ**: أَجَاءَكَ؟ قَالَ: نَعَمْ. **قَالَ**: مَا قَالَ لَكَ؟ **قَالَ**: قَالَ: إِنَّ لَكَ [رَحًى كَرَحَاهُ][2] وحَدِيثًا[3] لا تَنْسَاهُ. **فَصَاحَ عُيَيْنَةُ**: الرَّجُلُ واللهِ كَذَّابٌ. فَانْصَرَفَ النَّاسُ مُنْهَزِمِينَ، وَهَرَبَ طُلَيْحَةُ إلى الشَّامِ، ثُمَّ أَسْلَمَ، وَصَحَّ إِسْلَامُهُ، وَقُتِلَ بِنَهَاوَنْدَ.

١٣٦٢ ـ وَذَكَرَ **الوَاقِدِيُّ**[4]: أَنَّ رَجُلًا مِنْ بَنِي يَرْبُوعَ يُقَالُ لَهُ: **جُنْدَبُ بْنُ كُلْثُومٍ**[5]، كانَ يُلقَّبُ كردانًا، ادَّعىٰ النُّبُوَّةَ عَلَىٰ عَهْدِ رَسُولِ اللهِ ﷺ، وَكَانَ يَزْعُمُ أَنَّ دَلِيلَهُ عَلَىٰ نُبُوَّتِهِ أَنَّهُ يُسْرِجُ[6] مَسَامِيرَ الْحَدِيدِ وَالطِّينِ!! وَهٰذَا لِأَنَّهُ كَانَ يَطْلِي ذٰلِكَ بِدُهْنِ البَيْلَسَانِ[7]، فَتَعْمَلُ فِيْهِ النَّارُ.

١٣٦٣ ـ وَقَدْ تَنَبَّأَ رَجُلٌ يُقَالُ لَهُ **كَهْمَسٌ الكِلَابِيُّ**[8]، وَكَانَ يَزْعُمُ أَنَّ اللهَ تَعَالَىٰ أَوْحَىٰ إِلَيْهِ: يَا أَيُّهَا الجَائِعُ! ٱشْرَبْ لَبَنًا تَشْبَعْ، وَلا تَضْرِبِ الَّذِي لا يَنْفَعْ؛ فَإِنَّهُ لَيْسَ بِمَقْنَعٍ!! وَزَعَمَ أَنَّ دَلِيلَهُ علَىٰ نُبُوَّتِهِ أَنَّهُ يُطْرَحُ بَيْنَ السِّبَاعِ الضَّارِيَةِ فَلَا تَأْكُلُه، وَحِيلَتُهُ فِي ذٰلِكَ: أَنَّهُ يَأْخُذُ دُهْنَ الغَارِ[9].....

---

(١) أسلم قبل الفتح، وشهد حنينًا والطائف، وكان من المؤلفة قلوبهم، ثم ارتد بعد وفاة النبي ﷺ، ثم عاد إلى الإسلام، وعاش إلى خلافة عثمان رضي الله عنه، وقد وقع في الأصل: (حصين) وهو تصحيف.

(٢) زيادة من تاريخ الطبري (٢/ ٢٦١)، والكامل لابن الأثير (٢/ ٢٠٨). و(**الرحى**): الطاحون.

(٣) في الأصل: جيشًا، وهو تصحيف، والتصويب من المصادر السابقة.

(٤) محمد بن عمر بن واقد الأسلمي (١٣٠ ـ ٢٠٧هـ) العلامة صاحب التصانيف والمغازي، طبق ذكره شرق الأرض وغربها، وسارت بكتبه الركبان إلا أنه خلط الغث بالسمين، والخرز بالدر الثمين فاطرحوه لذلك.

(٥) لم أجد ترجمته.

(٦) **يسرج**: يضيء.

(٧) البيلسان: شجر له زهر أبيض صغير بهيئة العناقيد، وهو من الفصيلة البخورية، ويستخرج من بعض أنواعه عطر.

(٨) لم أجد ترجمته. وقد وقع في الأصل: كهمش بالشين المعجمة، وهو تصحيف، وكهمس بالسين المهملة من أسماء الأسد.

(٩) **الغار**: شجر ينبت بريًا في سواحل الشام وجبالها، طيب الرائحة، ورقه دائم الاخضرار، =

وَحَجَرِ البُرْسَانِ[1]، وَقُنْفُذًا مُحْرَّقًا، وَزَبْدَ البَحْرِ، وَصَدَفًا مُحْرَّقًا مَسْحُوقًا، وَشَيْئًا مِنَ الصَّبْرِ[2] والخَبَطِ[3]، فَيَطْلِي بِهِ جِسْمَهُ، فَإِذَا قَرُبَتْ مِنْهُ السباعُ، فَشَمَّتْ تِلْكَ الأَرْيَاحَ[4] وَذُفُوْرَتَهَا[5]؛ نَفَرَتْ.

١٣٦٤ -وَتَنَبَّأَ بِالطَّائِفِ رَجُلٌ يُقَالُ لَهُ: أَبُو **جَعْوَانَة العَامِرِيُّ**، وَزَعَمَ أَنَّ دَلِيلَهُ أَنَّهُ يَطْرَحُ النَّارَ فِي القُطْنِ فَلا يَحْتَرِقُ! وَهٰذَا لِأَنَّهُ يَدْهَنُهُ بِدُهْنٍ مَعْرُوفٍ.

١٣٦٥ -وَمِنْهُمْ **هُذَيْلُ بْنُ يَعْفُورٍ**، مِنْ بَنِي سَعْدِ بْنِ زُهَيْرٍ، حَكَى عَنْهُ الأَصْمَعِيُّ[6] أَنَّهُ عَارَضَ سُورَةَ الإِخْلَاصِ، فَقَالَ: قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدْ، إِلٰهٌ كَالْأَسَدْ، جَالِسٌ عَلَىٰ الرَّصَدْ، لا يَفُوتُهُ أَحَدْ!

١٣٦٦ -وَمِنْهُمْ **هُذَيْلُ بْنُ وَاسِع**، كَانَ يَزْعُمُ أَنَّهُ مِنْ وَلَدِ النَّابِغَةِ الذُّبْيَانِيِّ[7]، عَارَضَ سُورَةَ الكَوْثَرِ، فَقَالَ لَهُ رَجُلٌ: مَا قُلْتَ؟ **فَقَالَ**: إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الجَوَاهِرْ، فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَجَاهِرْ، فَمَا يُؤْذِيْكَ إِلَّا كُلُّ فَاجِرْ. فَظَهَرَ عَلَيْهِ القَسْرِي[8]، فَقَتَلَهُ، وَصَلَبَهُ عَلَىٰ العَمُودِ، فَعَبَرَ عَلَيْهِ الرَّجُلُ[9]، **فَقَالَ**: إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ العَمُودْ، فَصَلِّ لِرَبِّكَ مِنْ قُعُودْ، بِلا رُكُوعٍ وَلا سُجُودْ؛ فَمَا أَرَاكَ تَعُودْ.

١٣٦٧ -وَمِمَّنْ ظَهَرَ فَادَّعَىٰ أَنَّهُ يُوْحَىٰ إِلَيْهِ **المُخْتَارُ بْنُ أَبِي عُبَيْدٍ**[10]، وَكَانَ

= وخشبه صلب، وعَطِر، وله حمل أصغر من البندق أسود يستخرج منه زيت، وكانوا يضفرون أوراقه أكاليل يتوجون بها المنتصرين في الحروب.

(١) حجر البرسان: . . .

(٢) **الصبر**: عصارة شجر مر تستعمل في الطب.

(٣) **الخبط**: وهو ورق مطحون ومخلوط بالدقيق (القاموس).

(٤) **الأرياح**: الروائح.

(٥) **ذفورتها**: رائحتها.

(٦) عبد الملك بن قريب بن علي بن أصمع الباهلي البصري أبو سعيد (١٢٢ ـ ٢١٦هـ) راوية العرب، وأحد أئمة العلم باللغة والشعر.

(٧) زياد بن معاوية الذبياني الغطفاني المضري أبو أمامة، شاعر جاهلي من الطبقة الأولى، توفي سنة (١٨) قبل الهجرة.

(٨) هو خالد بن عبد الله بن يزيد بن أسد القَسْري البَجَلي، أبو الهيثم (٦٦ ـ ١٢٦هـ) أمير العراقين للأمويين، وأحد خطباء العرب وأجوادهم، وقد جاء في الأصل (السنوي)، والتصويب من أخبار الظراف للمؤلف ص(١٣٣).

(٩) هو خلف بن خليفة الشاعر.

(١٠) الثقفي الكذاب، ادعى أن الوحي يأتيه، وأنه يعلم الغيب قتل سنة (٦٧هـ).

مُتَخَبِّطًا فِي دَعْوَاهُ، وَقَتَلَ خَلْقًا كَثِيرًا، وَكَانَ يَزْعُمُ أَنَّهُ يَنْصُرُ الحُسَيْنَ رِضْوَانُ اللهِ عَلَيْهِ، ثم قُتِلَ.

١٣٦٨ - وَمِنْهُمْ **حَنْظَلَةُ بْنُ يَزِيدَ الكُوْفِيُّ**، كَانَ يَزْعُمُ أَنَّ دَلِيلَهُ أَنَّهُ يُدْخِلُ البَيْضَةَ فِي القَنِّينَةِ، وَيُخْرِجُهَا مِنْهَا صَحِيحَةً! وَذَاكَ أَنَّهُ كَانَ يَنْقَعُ البَيْضَةَ فِي الخَلِّ الحَامِضِ، فَيَلِينُ قِشْرُها، ثُمَّ يَصُبُّ مَاءً فِي قَنِّينَةٍ، ثُمَّ يَدُسُّ البَيْضَةَ فِيهَا؛ فَإِذَا لَقِيتِ المَاءَ؛ صَلُبَتْ.

١٣٦٩ - وَقَدْ تَنَبَّأَ أَقْوَامٌ قَبْلَ نَبِيِّنَا ﷺ **كَزَرَادَشْتَ**[١] **وَمَانِي**[٢] وَافْتُضِحُوا. وَمَا مِنَ المُدَّعِيْنَ إِلَّا مَنْ خُذِلَ.

١٣٧٠ - وَقَدْ جَاءَتِ **القَرَامِطَةُ**[٣] بِحِيَلٍ عَجِيْبَةٍ، وَقَدْ ذَكَرْتُ جُمْهُورَ هٰؤلاءِ وَحِيَلَهُم فِي كِتَابِي التَّارِيخ المُسَمَّى بـ«**المُنْتَظَم**»، وَمَا فِيْهِم مَن يَتِمُّ لَهُ أمرٌ إِلَّا وَيُفْتَضَحُ.

١٣٧١ - **وَدَلِيْلُ صِحَّةِ نُبُوَّةِ نَبِيِّنَا** ﷺ أَجْلَىٰ مِنَ الشَّمْسِ: فَإِنَّهُ ظَهَرَ فَقِيرًا، والخَلْقُ أَعْدَاؤُهُ، فَوُعِدَ بالمُلكِ فَمَلَكَ، وَأَخْبَرَ بِمَا سَيَكُونُ فَكَانَ، وَصِيْنَ مِنْ زَمَنِ النُّبُوَّةِ عَنِ الشَّرَهِ، وَخَسَاسَةِ الهِمَّةِ، والكَذِبِ والكِبْرِ، وَأُيِّدَ بِالثِّقَةِ والأَمَانَةِ والنَّزَاهَةِ والعِفَّةِ، وَظَهَرَتْ مُعْجِزَاتُهُ لِلْبَعِيدِ وَالْقَرِيبِ.

وَأُنْزِلَ عَلَيْهِ الكِتَابُ العَزِيزُ، الَّذِي حَارَتْ فِيهِ عُقُولُ الفُصَحَاءِ، وَلَمْ يَقْدِرُوا عَلَىٰ الإِتْيَانِ بِآيَةٍ تُشْبِهُهُ، فَضْلًا عَنْ سُوْرَةٍ، وَقَدْ قَالَ قَائِلُهُمْ وَافْتُضِحَ. ثُمَّ أَخْبَرَ أَنَّهُ لا

---

(١) زرادشت: (٦٢٨ ـ ٥٥١ ق.م) مصلح ديني فارسي، نبي الزرادشتية ومؤسسها.

(٢) ماني (٢١٦ ـ ٢٧٤م) زعيم ديني فارسي، دعا إلى الإيمان بعقيدة الثنوية، وقوامها الصراع بين النور والظلام والخير والشر. انظر: إيران في عهد الساسانيين ص(١٦٨ ـ ١٩٥).

(٣) القرامطة: فرقة من الإسماعيلية الباطنية تنتسب إلى حمدان قرمط، نشطت في سواد العراق ابتداء من سنة ٢٥٨هـ، وجمع حوله كثيراً من الرعاع، وأظهر الكفر والإلحاد، واشتهر أمره حتى مقتله على يد المكتفي العباسي سنة (٢٩٣هـ). لكن بعض أتباعه رحل إلى البحرين فأسس دولة رأسها أبو سعيد الجنابيّ واجتاحوا مكة أثناء موسم الحج سنة (٣١٧هـ) فقتلوا الحجيج، وقلعوا الحجر الأسود، وأخذوه إلى البحرين حتى مزق الله دولتهم وشتت شملهم سنة (٣٣٩هـ) وأعيد الحجر الأسود إلى مكانه، وقد أفاض المؤلف في بيان أخبارهم في تاريخه (المنتظم) واستلَّها منه الدكتور محمد الصباغ وطبعها في رسالة مفردة.

يُعَارَضُ فِيْهِ، فَكَانَ كَمَا قَالَ، وَذٰلِكَ قَولُهُ تَعَالىٰ: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٣﴾ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا۟ وَلَن تَفْعَلُوا۟ فَٱتَّقُوا۟ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٤﴾﴾ [البقرة]. وكذٰلك قَوْلُه: ﴿قُلْ إِن كَانَتْ لَكُمُ ٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ عِندَ ٱللَّهِ خَالِصَةً مِّن دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُا۟ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٩٤﴾ وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًۢا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٩٥﴾﴾ [البقرة]؛ فَمَا تَمَنَّاهُ أَحَدٌ؛ إِذْ لَوْ قَالَ قَائِلٌ: قَدْ تَمَنَّيْتُهُ؛ لَبَطَلَتْ دَعْوَاهُ.

وَكَانَ يَقُوْلُ لَيْلَةَ غَزَاةِ بَدْرٍ: «**غَدًا مَصْرَعُ فِلَانٍ هَاهُنا**»، فَلَا يَتَعَدَّاهُ[1]. وَقَالَ: «**إِذَا هَلَكَ كِسْرَىٰ؛ فَلَا كِسْرَىٰ بَعْدَهُ، وَإِذَا هَلَكَ قَيْصَرُ؛ فَلَا قَيْصَرَ بَعْدَهُ**»[2]؛ فما مَلَكَ بَعدَهما مَن له كبيرُ قدرٍ، ولا مَن استتبَّ له حالٌ.

وَمِنْ أَعْظَمِ دَلِيلٍ عَلَىٰ صِدْقِهِ أَنَّهُ لم يُرِدِ الدُّنْيَا؛ فَكَانَ يَبِيتُ جَائِعًا[3]، وَيُؤْثِرُ إِذَا وَجَدَ، وَيَلْبَسُ الصُّوْفَ[4]، وَيَقُومُ اللَّيْلَ[5]. وَإِنَّمَا تُطْلَبُ النَّوَامِيسُ لاجْتِلَابِ الشَّهَوَاتِ، فَلَمَّا لم يُرِدْهَا؛ دَلَّ عَلى أنه يدلُّ على الآخرةِ التي هي حقٌّ.

ثُمَّ لَمْ يَزَلْ دِينُهُ يَعْلُو حَتَّى عَمَّ الدُّنْيَا، وَإِنْ كَانَ الكُفْرُ فِي زَوَايَا الأَرْضِ؛ إِلَّا أَنَّهُ مَخْذُولٌ.

١٣٧٢ ـ وَصَارَ فِي تَابِعِيْهِ مِنْ أُمَّتِهِ **الفُقَهَاءُ**، الَّذِينَ لَوْ سَمِعَ كَلَامَهُمُ الأَنْبِيَاءُ القُدَمَاءُ؛ تَحَيَّرُوا فِي حُسْنِ اسْتِخْرَاجِهِمْ، **والزُّهَّادُ** الَّذِينَ لَوْ رَآهُمُ الرُّهْبَانُ؛ تَحَيَّرُوا فِي صِدْقِ زُهْدِهِمْ، **والفُطَنَاءُ** الَّذِينَ لا نَظِيْرَ لَهُمْ فِي القُدَمَاءِ.

١٣٧٣ ـ أَوَلَيْسَ **قَوْمُ مُوسَىٰ** يَعْبُدُونَ بَقَرَةً، وَيَتَوَقَّفُونَ فِي ذَبْحِ بَقَرَةٍ، وَيَعْبُرُونَ البَحْرَ، ثُمَّ يَقُولُونَ: ٱجْعَلْ لَنَا إِلٰهًا؟! **وَقَوْمُ عِيسَىٰ** يَدَّخِرُونَ مِنَ المَائِدَةِ، وَقَدْ نُهُوا؟! **وَالْمُعْتَدُونَ فِي السَّبْتِ** يَعْصُوْنَ اللهَ لِأَجْلِ الحِيتَانِ؟! **وَأُمَّتُنا بِحَمْدِ اللهِ تَعَالىٰ** سَلِيمَةٌ مِنْ

---

(١) رواه مسلم (١٧٧٩) عن أنس رضي الله عنه.

(٢) رواه البخاري (٣١٢١)، ومسلم (٢٩١٩) عن جابر بن سمرة رضي الله عنه.

(٣) رواه مسلم (٢٩٧٨) عن النعمان بن بشير رضي الله عنه.

(٤) رواه البخاري (٥٧٩٩)، ومسلم (٢٧٤) عن المغيرة رضي الله عنه.

(٥) رواه البخاري (١٨٣ و١١٧)، ومسلم (٧٦٣) عن ابن عباس رضي الله عنه.

هٰذِهِ الْأَشْيَاءِ، وَإِنَّمَا فِي بَعْضِهَا مَيْلٌ إِلىٰ الشَّهَوَاتِ المَنْهِيِّ عَنْهَا، وذٰلِكَ مِنَ الفُرُوعِ لا مِنَ الأُصُولِ؛ فَإِذَا ذُكِّرُوا؛ بَكَوْا وَنَدِمُوا عَلَىٰ تَفْرِيطِهِمْ. فَنَحْمَدُ اللهَ عَلَىٰ هٰذَا الدِّيْنِ، وَعَلَىٰ أَنَّنَا مِنْ أُمَّةِ هٰذَا الرَّسُولِ ﷺ.

١٣٧٤ -وَقَدْ كَانَ جَمَاعَةٌ مِنَ المُتَصَنِّعِيْنَ بِالزُّهْدِ مَالُوا إِلىٰ طَلَبِ الدُّنْيَا والرِّئَاسَةِ، فَٱسْتَغْوَاهُمُ الهَوَىٰ، فَخَرَّقوا [١] بِإِظْهَارِ مَا يُشْبِهُ الكَرَامَاتِ؛ كالحَلَّاجِ وابْنِ الشَّبَّاسِ [٢] وَغَيْرِهِمَا مِمَّنْ ذَكَرْتُ حَالَ تَلْبِيسِهِ فِي كِتَابِ (تَلْبِيسِ إِبليس) [٣] وَإِنَّمَا فَعَلُوا ذٰلِكَ لِاخْتِلَافِ أَغْرَاضِهِمْ.

١٣٧٥ -وَلَمْ يَزَلِ اللهُ يُنْشِئُ فِي هٰذَا الدِّينِ مِنَ الفُقَهَاءُ مَنْ يُظْهِرُ مَا أَخْفَاهُ القَاصِرُونَ؛ كَمَا يُنْشِئُ مِنْ عُلَمَاءِ الحَدِيثِ مَنْ يَهْتِكُ مَا أَشَاعَهُ الوَاضِعُونَ؛ حِفْظًا لِهٰذَا الدِّيْنِ، وَدَفعًا للشُّبُهَاتِ عَنْهُ؛ فَلَا يَزَالُ الفَقِيهُ وَالْمُحَدِّثُ يُظْهِرَانِ عُوَارَ كُلِّ مُلَبِّسٍ بِوَضْعِ حَدِيثٍ، أَوْ بِإِظْهَارِ دَعْوَى تَزَهُّدٍ وَتَنْمِيسٍ، فَلَا يُؤَثِّرُ مَا ادَّعَيَاهُ؛ إِلَّا عِنْدَ جَاهِلٍ بَعِيدٍ مِنَ العِلْمِ والعَمَلِ. ﴿لِيُحِقَّ ٱلْحَقَّ وَيُبْطِلَ ٱلْبَٰطِلَ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ [الأنفال: ٨].

٣١٠ - فصل: السعيدُ من انتبه لنفسه

١٣٧٦ -وَا عَجَبًا مِنْ مَوْجُودٍ لا يَفْهَمُ مَعْنَى الوُجُودِ؛ فَإِنْ فَهِمَ؛ لَمْ يَعْمَلْ بِمُقْتَضَىٰ فَهْمِهِ!! يَعْلَمُ أَنَّ العُمُرَ قَصِيْرٌ، وَهُوَ يُضَيِّعُهُ بِالنَّوْمِ وَالْبَطَالَةِ والحَدِيْثِ الفَارِغِ وَطَلَبِ اللَّذَّاتِ، وَإِنَّمَا أَيَّامُهُ أَيَّامُ عَمَلٍ لا زَمَانُ فَرَاغٍ.

وَقَدْ كُلِّفَ بَذْلَ المَالِ بِمُخَالَفَةِ الطَّبْعِ مِنَ الشَّرْعِ، فَبَخِلَ بِهِ، إِلىٰ أَنْ تَضَايَقَ الخِنَاقُ، فَيَقُولَ حِينَئِذٍ: فَرِّقُوا عَنِّي بَعْدَ مَوْتِي! وَٱفْعَلُوا كَذَا! فَأَيْنَ يَقَعُ هٰذَا لَوْ فُعِلَ؟! وَبَعِيدٌ أَنْ يُفْعَلَ، وَإِنَّمَا يُرَادُ بِإِنْفَاقِكَ فِي صِحَّتِكَ مُخَالَفَةُ الطَّبْعِ فِي تَكَلُّفِ مَشَاقِّ

---

(١) **خرقوا**: كذبوا.

(٢) **ابن الشباس**: أبو عبد الله بن علي الحسين البغدادي توفي في البصرة سنة (٤٤٤هـ) أخباره في المنتظم، وقد وقع في الأصل: (ابن الشاش) والتصويب من تلبيس إبليس.

(٣) تلبيس إبليس، ص(٥١١ ـ ٥١٩).

الإِخْرَاجِ فِي زَمَنِ السَّلَامَةِ؛ فَٱفْرُقْ بَيْنَ الحَالَتَيْنِ إِنْ كَانَ لَكَ فَهْمٌ. فالسَّعِيْدُ مَنِ انْتَبَهَ لِنَفْسِهِ، وَعَمِلَ بِمُقْتَضَىٰ عَقْلِهِ، وَاغْتَنَمَ زَمَنًا نِهَايَتُهُ الزَّمَنُ[1]، وَٱنْتَهَبَ عُمُرًا، يَا قُرْبَ انْقِطَاعِهِ!

١٣٧٧ ـ وَيْحَكَ! مَا تَصْنَعُ بِادِّخَارِ مَالٍ لا يُؤْثِرُ حَسَنَةً فِي صَحِيفَةٍ، وَلَا مَكْرُمَةً فِي تَارِيخٍ؟! أَمَا سَمِعْتَ بِإِنْفَاقِ أَبِي بَكْرٍ، وَبُخْلِ ثَعْلَبَةَ[2]؟! أَمَا رَأَيْتَ تَأْثِيرَ مَدْحِ حَاتِمٍ[3]، وَبُخْلِ الحَبَاحِبِ[4]؟!

١٣٧٨ ـ وَيْحَكَ! لَوِ ابْتَلَاكَ فِي مَالِكَ فَقَلَّ؛ لاسْتَغَثْتَ، أَوْ فِي بَدَنِكَ لَيْلَةً بِمَرَضٍ؛ لَشَكَوْتَ؛ فَأَنْتَ تَسْتَوْفِي مَطْلُوبَاتِكَ مِنْهُ، وَلا تَسْتَوْفِي حَقَّهُ عَلَيْكَ، ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ﴾ [المطففين: ١]!

ولْتَعْلَمْ أَنَّ هٰذَا القَدْرَ المُفَرَّطَ فِيهِ، يُحِلُّ الخُلُودَ الدَّائِمَ فِي ثَوَابِ العَمَلُ فِيهِ، فَسُبْحَانَ مَنْ مَنَّ عَلَىٰ أقوامٍ فَهِمُوا المُرَادَ، فَأَتْعَبُوا الأَجْسَادَ، وَغَطَّى عَلَىٰ قُلُوبِ آخَرِينَ، فَوُجُودُهُمْ كَالْعَدَمِ.

وَكَيْفَ لا يُتْعِبُ العَاقِلُ بَدَنَهُ إِتْعَابَ البُدْنِ[5] والمَقْصُودُ مِنًى؟!

أَتَرَىٰ مَا بَالُ الحَقِّ مُتَجَلِّيًا فِي إِيْجادِكَ أَيُّها العَبْدُ؟!

بَلَىٰ واللهِ؛ إِنَّ وُجُودَكَ دَلِيلُ وُجُودِهِ، وَإِنَّ نِعمَهُ عَلَيْكَ دَلِيلُ جُودِهِ، فَكَمَا قَدَّمَكَ عَلَىٰ سائِرِ الحَيَوَاناتِ؛ فَقَدِّمْهُ فِي قَلْبِكَ عَلَىٰ كُلِّ المَطْلُوبَاتِ.

وَا خَيْبَةَ مَنْ جَهِلَهُ! وَافَقْرَ مَنْ أَعْرَضَ عَنْهُ! وَا ذُلَّ مَنِ اعْتَزَّ بِغَيْرِهِ! وَا حَسْرَةَ مَنِ اشْتَغَلَ بِغَيْرِ خِدْمَتِهِ!

---

(١) **الزَّمن**: المرض المقعد الذي لا يرجىٰ برؤه.

(٢) هو ثعلبة بن حاطب: أنصاري بدري، وقصة بخله واهية بالمرة كما ذكر جمع من أهل العلم كالحافظ العراقي والهيثمي وابن حجر، وقد رواه الطبري بأسانيد ضعيفة جدًا.

(٣) حاتم بن عبد الله بن سعد الطائي، أبو عدي أحد أجواد العرب في الجاهلية يضرب المثل بجوده، توفي سنة (٤٦) قبل الهجرة.

(٤) كان رجلًا بخيلًا لا يوقد نارًا بليل كراهية أن يلقاها من ينتفع بضوئها.

(٥) **البدن**، جمع بدنة: وهي الناقة.

٣١١ - فصل: ما يسلي عن الدنيا ويهون فراقها

١٣٧٩ - إنِّي أَعْجَبُ مِنْ عَاقِلٍ يَرَىٰ اسْتِيلَاءَ المَوْتِ عَلَىٰ أَقْرَانِهِ وَجِيرَانِهِ؛ كَيْفَ يَطِيبُ عَيْشُه؟! خُصُوْصًا إِذَا عَلَتْ سِنُّهُ!

وا عَجَبًا لِمَنْ يَرَىٰ الأَفَاعِيَ تَدِبُّ إِلَيْهِ، وَهُوَ لا يَنْزَعِجُ!! أَمَا يَرَىٰ الشَّيْخُ دَبِيبَ المَوْتِ فِي أَعْضَائِهِ، قَدْ أَخْرَجَ سِكِّيْنَ القُوَىٰ، وَأَنْزَلَ مُتَغَشْرِمَ[1] الضَّعْفِ، وَقَلَبَ السَّوَادَ بَيَاضًا، ثُمَّ فِي كُلِّ يَوْمٍ يَزِيْدُ النَّاقِصُ.

١٣٨٠ - فَفِي نَظَرِ العَاقِلِ إِلَىٰ نَفْسِهِ مَا يَشْغَلُهُ عَنِ النَّظَرِ إِلَىٰ خَرَابِ الدُّنْيَا، وَفِرَاقِ الإِخْوَانِ، وَإِنْ كَانَ ذٰلِكَ مُزْعِجًا، وَلٰكِنَّ شُغْلَ مَنِ احْتَرَقَ بَيْتُهُ بِنَقْلِ مَتَاعِهِ، يُلْهِيهِ عَنْ ذِكْرِ بُيُوتِ الجِيرَانِ.

١٣٨١ - وَإِنَّهُ لَمِمَّا يُسَلِّي عَنِ الدُّنْيَا، وَيُهَوِّنُ فِرَاقَها اسْتِبْدَالُ المَعَارِفِ بِمَنْ تُنْكِرُهُ، فَقَدْ رَأَيْنَا أَغْنِيَاءَ كَانُوا يُؤْثِرُونَ، وَفُقَرَاءَ كَانُوا يَصْبِرُونَ، وَمُحَاسِبِينَ لِأَنْفُسِهِمْ يَتَوَرَّعُونَ: فَاسْتُبْدِلَ السُّفَهَاءُ عَنِ العُقَلَاءِ، وَالْبُخَلَاءُ عَنِ الكُرَمَاءِ.

فَيَا سُهُولَةَ الرَّحِيلِ! لَعلَّ النَّفْسَ تَلْقَى مَنْ فَقَدَتْ، فَتَلْحَقَ بِمَنْ أَحبَّتْ.

٣١٢ - فصل: وهب الله تعالى العقل للإنسان ليثبت عليه الحجة

١٣٨٢ - نَظَرْتُ فِي قَوْلِ اللهِ تَعَالَىٰ: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلْجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾ ثم قال: ﴿وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ ٱلْعَذَابُ وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكْرِمٍ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ﴾ [الحج: ١٨]... فَرَأَيْتُ الجَمَادَاتِ كُلَّها قَدْ وُصِفَتْ بالسُّجُودِ، واسْتُثْنِيَ مِنَ العُقَلَاءِ! فَذَكَرْتُ قَوْلَ بَعْضِهِمْ:

مَا جَحَدَ الصَّامِتُ مَنْ أَنْشَأَهُ ... وَمِنْ ذَوِي النُّطْقِ أَتَىٰ الجُحُودُ

---

(١) **المتغشرم**: الجريء الماضي.

فَقُلْتُ: إِنَّ هٰذِهِ لَقُدْرَةٌ عَظِيْمَةٌ، يُوْهَبُ عَقْلٌ لِلشَّخْصِ، ثُمَّ تُسْلَبُ فَائِدَتُه! وَإِنَّ هٰذَا لَأَقْوَىٰ دَلِيلٍ عَلىٰ قَادِرٍ قَاهِرٍ، وَإِلَّا؛ فَكَيْفَ يَحْسُنُ مِنْ عَاقِلٍ أَلَّا يَعْرِفَ بِوُجُودِهِ وُجُوْدَ مَنْ أَوْجَدَهُ؟! وَكَيْفَ يَنْحِتُ صَنَمًا بِيَدِهِ ثُمَّ يَعْبُدُهُ؟!

غَيْرَ أَنَّ الحَقَّ ﷻ وَهَبَ لِأَقْوَامٍ مِنَ الْعَقْلِ مَا يُثْبِتُ عَلَيْهِمُ الحُجَّةَ، وَأَعْمَىٰ قُلُوبَهُمْ كَمَا شَاءَ عَنِ المَحَجَّةِ[1].

٣١٣ - فصل: ليتزود العبد على قدر طول السفر

١٣٨٣ ـ مَا رَأَيْتُ أَكْثَرَ أَذًى لِلْمُؤْمِنِ مِنْ مُخَالَطَةِ مَنْ لا يَصْلُحُ؛ فَإِنَّ الطَّبْعَ يَسْرِقُ؛ فَإِنْ لَمْ يَتَشَبَّهْ بِهِمْ، وَلَمْ يَسْرِقْ مِنْهُمْ؛ فَتَرَ عَنْ عَمَلِهِ.

فَإِنَّ رُؤْيَةَ الدُّنْيَا تَحُثُّ عَلَىٰ طَلَبِهَا؛ وَقَدْ رَأَىٰ رَسُولُ اللهِ ﷺ سِتْرًا على بابِهِ، فَهَتَكَهُ[2]، وَقَالَ: «**مَا لِي وللدُّنْيَا؟!**»، وَلَبِسَ ثوبًا له طرازٌ، فرماهُ، وقالَ: «**شَغَلَتْنِي أعلامُهُ**»، ولَبِسَ خَاتَمًا، ثُمَّ رَمَاهُ، وَقَالَ: «**نَظْرَةٌ إِلَيْكُمْ، وَنَظْرَةٌ إِلَيْهِ**». وَكَذٰلِكَ رُؤْيَةُ أَرْبَابِ الدُّنْيَا، وَدُوْرِهِمْ وَأَحْوَالِهِمْ، خُصُوصًا لِمَنْ لَهُ نَفْسٌ تَطْلُبُ الرِّفْعَةَ.

١٣٨٤ ـ وَكَذَا سَمَاعُ الْأَغَانِي، وَمُخَالَطَةُ **الصُّوْفِيَّةِ**، الّذِينَ لا نَظَرَ لَهُمُ اليَوْمَ إِلَّا فِي الرِّزْقِ الحَاصِلِ، لَوْ كَانَ مِنْ أَيِّ كَانَ؛ قَبِلُوهُ، وَلا يَتَوَرَّعُونَ أَنْ يَأْخُذُوا مِنْ ظَالِمٍ، وَلَيْسَ عِنْدَهُمْ خَوْفٌ كَمَا كَانَ أَوَائِلُهُمْ؛ فَقَدْ كَانَ سَرِيٌّ السَّقَطِيُّ يَبْكِي طُوْلَ اللَّيْلِ، وَكَانَ يُبَالِغُ فِي الوَرَعِ، وَهُمْ لَيْسَ لَهُمْ وَرَعُ سَرِيٍّ، وَلَا لَهُمْ تَعَبُّدُ الجُنَيْدِ، وَإِنَّمَا ثَمَّ أَكْلٌ وَرَقْصٌ، وبَطَالَةٌ، وَسَمَاعُ أغانٍ مِنَ المُرْدَانِ، حَتَّى قَالَ بَعْضُ مَنْ يُعْتَبَرُ قَوْلُه: حَضَرْتُ مَعَ رَجُلٍ كَبِيرٍ، يُوْمَأُ إِلَيْهِ مِنْ مَشَايِخِ الرُّبُطِ، وَمُغَنِّيهم أَمْرَدُ، فَقَامَ الشَّيْخُ، وَنَقَّطَهُ بِدِيْنَارٍ عَلَىٰ خَدِّهِ[3]. وَادِّعاؤُهم أَنَّ سَمَاعَ هٰذِهِ الأَشْيَاءِ يَدْعُوْ إِلَىٰ الآخِرَةِ فَوْقَ الكَذِبِ! وَلَيْسَ العَجَبُ مِنْهُمْ، إِنَّمَا العَجَبُ مِنْ جُهَّالٍ يَنْفُقُونَ عَلَيْهِمْ[4]، فَيُنْفِقُونَ عَلَيْهِمْ.

---

(١) **المحجة**: الطريق المبينة الواضحة. (٢) رواه البخاري (٢٧٩) عن عائشة رضي الله عنها.
(٣) وهبه دينارًا وألصقه على خده كفعل المجان. (٤) يروج عليهم دجلهم.

١٣٨٥ ـ وَلَقَدْ كَانَ جَمَاعَةٌ مِنَ الْقُدَمَاءِ يَرَوْنَ أَوَائِلَ الصُّوفِيَّةِ يَتَعَبَّدُونَ، وَيَتَوَرَّعُونَ، فَيُعْجِبُهُمْ حَالُهُمْ، وَهُمْ مَعْذُورُونَ فِي إِعْجَابِهِمْ بِهِمْ، وَإِنْ كَانَ أَكْثَرُ القَوْمِ فِي تَعَبُّدِهِمْ عَلَىٰ غَيْرِ الجَادَّةِ؛ كَمَا ذَكَرْتُ فِي كِتَابِي المُسَمَّى بـ(تلبيس إبليس). فَأَمَّا اليَوْمَ؛ فَقَدْ بَرِحَ[1] الخَفَاءُ؛ أَحَدُهُمْ يَتَرَدَّدُ إِلَىٰ الظَّلَمَةِ، وَيَأْكُلُ أَمْوَالَهُم، وَيُصَافِحُهُمْ بِقَمِيصٍ لَيْسَ فِيهِ طِرَازٌ! وَهٰذَا هُوَ التَّصَوّفُ فَحَسْبُ!!

أَوَلا يَسْتَحِيي مِنَ اللهِ مَنْ زَهِدَ رَفِيْعَ الأَثْوَابِ لِأَجْلِ الخَلَائِقِ، لا لِأَجْلِ الحَقِّ، ولا يَزْهَدُ فِي مَطْعَمٍ، وَلا فِي شُبْهَةٍ؟! فَالْبُعْدُ عَنْ هٰؤلاءِ لَازِمٌ.

١٣٨٦ ـ وَيَنْبَغِي لِلْمُنْفَرِدِ لِطَاعَةِ اللهِ تَعَالَىٰ عَنِ الخَلْقِ **أَلَّا يَخْرُجَ إِلَىٰ سُوقٍ** جَهْدَهُ؛ فَإِنْ خَرَجَ ضَرُورَةً؛ غَضَّ بَصَرَهُ، **وَأَلّا يَزُورَ صَاحِبَ** مَنْصِبٍ، وَلَا يَلْقَاهُ؛ فَإِنِ اضْطُرَّ؛ دَارَىٰ الأَمْرَ، **وَلَا يُخَالِطَ عَامِّيًا** إِلَّا لِضَرُورَةٍ مَعَ التَّحَرُّزِ، **وَلا يَفْتَحَ عَلَىٰ نَفْسِهِ بَابَ التَّزَوُّجِ**، بَلْ يَقْنَعَ بِامْرَأَةٍ فِيهَا دِيْنٌ؛ فَقَدْ قَالَ الشَّاعِرُ:

وَالْمَرْءُ مَا دَامَ ذَا عَيْنٍ يُقَلِّبُهَا ... فِي أَعْيُنِ العِيْنِ مَوْقُوفٌ عَلَىٰ الخَطَرِ
يَسُرُّ مُقْلَتَهُ مَا ضَرَّ مُهْجَتَهُ ... لا مَرْحَبًا بِسُرورٍ عَادَ بِالضَّرَرِ

١٣٨٧ ـ فَإِنْ كَانَ يَغْلِبُ عَلَيْهِ العِلْمُ؛ انْفَرَدَ بِدِرَاسَتِهِ، وَاحْتَرَزَ مِنَ الأَتْبَاعِ المُتَعَلِّمِينَ، وَإِنْ غَلَبَتْ عَلَيْهِ العِبَادَةُ؛ زَادَ فِي احْتِرَازِهِ! وَلْيَجْعَلْ خَلْوَتَهُ أَنِيْسَهُ، والنَّظَرَ فِي سِيَرِ السَّلَفِ جَلِيْسَه! وَلْتَكُنْ لَهُ وَظِيفَةٌ مِنْ زِيَارَةِ قُبُورِ الصَّالِحِينَ وَالْخُلْوَةِ بِهَا! وَلَا يَنْبَغِي أَنْ يَفُوتَهُ وِرْدُ قِيَامِ اللَّيْلِ، وَلْيَكُنْ بَعْدَ النِّصْفِ الأَوَّلِ؛ فَلْيُطِلْ مَهْمَا قَدَرَ؛ فَإِنَّهُ زَمَانٌ بَعِيدُ المِثْلِ! وَلْيُمَثِّلْ رَحِيْلَهُ عَنْ قُرْبٍ؛ لِيَقْصُرَ أَمَلُهُ! وَلْيَتَزَوَّدْ فِي الطَّرِيقِ عَلَىٰ قَدْرِ طُوْلِ السَّفَرِ!

نَسْأَلُ اللهَ ﷻ يَقَظَةً مِنْ فَضْلِهِ، وَإِقْبَالًا عَلَىٰ خِدْمَتِهِ، وَأَلَّا يَخْذِلَنا بِالْالْتِفَاتِ عَنْهُ؛ إِنَّهُ قَرِيْبٌ مُجِيبٌ.

---

(١) **برح**: ظهر.

٣١٤ - فصل: وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها

١٣٨٨ ـ كُلَّمَا نَظَرْتُ فِي تَوَاصِلِ النِّعَمِ عَلَيَّ؛ تَحَيَّرْتُ فِي شُكْرِهَا! وَأَعْلَمُ أَنَّ الشُّكْرَ مِنَ النِّعَمِ؛ فَكَيْفَ أَشْكُرُ[١] ؟! لٰكِنِّي مُعْتَرِفٌ بِالتَّقْصِيرِ، وَأَرْجُو أَنْ يَكُونَ اعْتِرَافِي قَائِمًا بِبَعْضِ الحُقُوقِ.

وَعِنْدِي خَلَّةٌ[٢] أَرْجُو بِهَا كُلَّ خَيْرٍ، وَهِيَ أَنَّ مَنْ يَصُومُ أَوْ يُصَلِّي يَرَىٰ أَنَّهُ تَعَبَّدَ، وَيَخْدُمُ كَأَنَّهُ يَقْضِي حَقَّ المَخْدُومِ، وَأَنَا أَرَىٰ أَنِّي إِذَا صَلَّيْتُ رَكْعَتَيْنِ؛ فَإِنَّمَا قُمْتُ أَكْدِي[٣] ؛ فَلِنَفْسِيَ أَعْمَلُ؛ إِذِ المَخْدُومُ غَنِيٌّ عَنْ طَاعَتِي.

وَكَانَ بَعْضُ المَشَايِخِ يَقُولُ: جَاءَ فِي الحَدِيثِ: «**الدُّعاءُ عبادةٌ**»[٤] ، وَأَنَا أَقُولُ: العِبَادَةُ دُعَاءٌ.

١٣٨٩ ـ فَالْعَجَبُ مِمَّنْ يَقِفُ لِلْخِدْمَةِ يَسْأَلُ حَظَّ نَفْسِهِ؛ كَيْفَ يَرَىٰ أَنَّهُ قَدْ فَعَلَ شَيْئًا؟! إِنَّمَا أَنْتَ فِي حَاجَتِكَ، وَمِنَّةُ مَنْ أَيْقَظَكَ، لا تُقَاوِمُهَا خِدْمَتُكَ؛ فَأَنَا أَقُولُ كَمَا قَالَ الأَوَّلُ:

يَا مُنْتَهَىٰ الآمَالِ أَنْـ ... ـتَ كَفَلْتَنِي وَحَفِظْتَنِي
وَعَدَا الزَّمَانُ عَلَيَّ كَيْ ... يَجْتَاحَنِي فَمَنَعْتَنِي
فَانْقَادَ لِي مُتَخَشِّعًا ... لَمَّا رَآكَ نَصَرْتَنِي
وَكَسَوْتَنِي ثَوْبَ الغِنَىٰ ... وَمِنَ المُغَالِبِ صُنْتَنِي
فَإِذَا سَكَتُّ بَدَأْتَنِي ... وَإِذَا سَأَلْتُ أَجَبْتَنِي
فَإِذَا شَكَرْتُكَ زِدْتَنِي ... فَمَنَحْتَنِي وَبَهَرْتَنِي
أَوْ إِنْ أَجُدْ بِالْمَالِ فَالْـ ... ـأَمْوَالُ أَنْتَ أَفَدْتَنِي

---

(١) شكر الله تعالى في امتثال أوامره واجتناب نواهيه.

(٢) **الخلة**: الخصلة. (٣) **أكدي**: أستجدي.

(٤) رواه أبو داود (١٤٧٩)، والترمذي (٣٢٤٧)، وابن ماجه (٣٨٢٨) عن النعمان بن بشير بلفظ: «الدعاء هو العبادة».

٣١٥ - فصل: النفس لا بد لها مما تتشاغل به

١٣٩٠ - رَأَيْتُ أَكْثَرَ العُلَمَاءِ يَتَشَاغَلُونَ بِصُوْرَةِ العِلْمِ؛ **فَهَمُّ** الفَقِيْهِ التَدْرِيسُ، **وَهَمُّ** الوَاعِظِ الوَعْظُ.

فَهٰذَا يُرَاعِي دَرْسَهُ، فَيَفْرَحُ بِكَثْرَةِ مَنْ يَسْمَعُهُ، وَيَقْدَحُ فِي كَلَامِ مَنْ يُخَالِفُهُ، وَيَمْضِي زَمَانُهُ فِي التَّفَكُّرِ فِي المُنَاقَضَاتِ؛ لِيَقْهَرَ مَنْ يُجَادِلُهُ، وَعَيْنُهُ إِلَىٰ التَّصَدُّرِ وَالارْتِفَاعِ فِي المَجَالِسِ، وَرُبَّمَا كَانَتْ هِمَّتُه جَمْعَ الحُطَامِ وَمُخَالَطَةَ السَّلَاطِينِ!.

وَالوَاعِظُ هِمَّتُهُ مَا يُزَوِّقُ بِهِ كَلَامَهُ، وَيُكَثِّرُ [به] جَمْعَهُ، وَيَجْلِبُ بِهِ قُلُوبَ النَّاسِ إِلَىٰ تَعْظِيمِهِ؛ فَإِنْ كَانَ لَهُ نَظِيرٌ فِي شُغْلِهِ؛ أَخَذَ يَطْعَنُ فِيْهِ.

وَهٰذِهِ قُلُوبٌ غَافِلَةٌ عَنِ اللهِ ﷻ؛ إِذْ لَوْ كَانَتْ لَهَا بِهِ مَعْرِفَةٌ؛ لاشْتَغَلَتْ بِهِ، وَكَانَ أُنْسُهَا بِمُنَاجَاتِهِ، وَإِيثَارُهَا لِطَاعَاتِهِ، وَإِقْبَالُهَا عَلَىٰ الخُلْوَةِ بِهِ. لٰكِنَّهَا لَما خَلَتْ مِنْ هٰذَا؛ تَشَاغَلَتْ بِالدُّنْيَا، وَذَاكَ دُنْيَا مِثْلُهَا؛ فَإِذَا خَلَتْ بِخِدْمَةِ اللهِ تَعَالَىٰ؛ لَمْ تَجِدْ لَهَا طَعْمًا، وَكَانَ جَمْعُ النَّاسِ أَحَبَّ إِلَيْهَا، وَزِيَارَةُ الخَلْقِ لَهَا آثَرَ عِنْدَهَا. وَهٰذِهِ عَلامةُ الخِذْلَانِ.

١٣٩١ - وَعَلَىٰ ضِدِّ هٰذَا؛ مَتَىٰ كَانَ العَالِمُ مُقْبِلًا عَلَىٰ اللهِ سُبْحَانَه، مَشْغُولًا بِطَاعَتِهِ؛ كَانَ أَصْعَبَ الأَشْيَاءِ عِنْدَهُ لِقَاءُ الخَلْقِ وَمُحَادَثَتُهُمْ، وَأَحَبَّ الأَشْيَاءِ إِلَيْهِ الخَلْوَةُ، وَكَانَ عِنْدَهُ شُغْلٌ عَنِ القَدْحِ فِي النُّظَرَاءِ[1]، أَوْ عَنْ طَلَبِ الرِّئَاسَةِ؛ فَإِنَّ مَا عَلَّقَ بِهِ هِمَّتَهُ مِنَ الآخِرَةِ أَعْلَىٰ مِنْ ذٰلِكَ.

١٣٩٢ - وَالنَّفْسُ لا بُدَّ لَهَا مِمَّا تَشَّاغَلُ بِهِ؛ فَمَنِ اشْتَغَلَ لِخِدْمَةِ الخَلْقِ، وَأَعْرَضَ عَنِ الحَقِّ؛ فَإِنَّمَا يُرَبِّي رِئَاسَتَهُ، وَذٰلِكَ يُوجِبُ الإِعْرَاضَ عَنِ الحَقِّ، وَ﴿مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِى جَوْفِهِۦ﴾ [الأحزاب: ٤].

---

(١) في الأصل: النظر، وهو تصحيف.

٣١٦ - فصل: اللهم أرنا الأشياء كما هي

١٣٩٣ ـ قَدْ جَاءَ فِي الأَثَرِ: **اللَّهُمَّ! أَرِنَا الأَشْيَاءَ كَمَا هِيَ!** وَهٰذَا كَلَامٌ حَسَنٌ غَايَةً، وَأَكْثَرُ النَّاسِ لَا يَرَوْنَ الأَشْيَاءَ بِعَيْنِهَا؛ فَإِنَّهُمْ يَرَوْنَ الفَانِي كَأَنَّهُ بَاقٍ، وَلا يَكَادُوْنَ يَتَخَايَلُونَ زَوَالَ مَا هُمْ فِيهِ؛ وَإِنْ عَلِمُوا ذٰلِكَ؛ إِلَّا أَنَّ عَيْنَ الحِسِّ مَشْغُولَةٌ بِالنَّظَرِ إِلَىٰ الحَاضِرِ. أَلَا تَرَىٰ زَوَالَ اللَّذَّةِ، وَبَقَاءَ إِثْمِهَا؟! وَلَوْ رَأَىٰ اللِّصُّ قَطْعَ يَدِهِ؛ هَانَ عِنْدَهُ المَسْرُوقُ.

فَمَنْ جَمَعَ الأَمْوَالَ، وَلَمْ يُنْفِقْهَا؛ فَمَا رَآهَا بِعَيْنِهَا؛ إِذْ هِيَ آلَةٌ لِتَحْصِيلِ الأَغْرَاضِ، لا تُرَادُ لِذَاتِهَا.

وَمَنْ **رَأَىٰ المَعْصِيَةَ** بِعَيْنَيِ الشَّهْوَةِ؛ فَمَا رَآهَا؛ إِذْ فِيْهَا مِنَ الْعُيُوبِ مَا شِئْتَ، ثُمَّ ثَمَرَتُهَا عُقُوبَةٌ آجِلَةٌ، وَفَضِيحَةٌ عَاجِلَةٌ.

١٣٩٤ ـ وَانْظُرْ إِلَىٰ أَكْبَرِ شَهَوَاتِ الحِسِّ، وَهُوَ الوَطْءُ! فَإِنَّ المَاءَ لا يَحْصُلُ إِلَّا بَعْدَ مَطْعَمٍ وَمَشْرَبٍ. وَمَنْ تَفَكَّرَ فِي المَطْعَمِ؛ نَظَرَ إِلَى حَرْثِ الأَرْضِ، وَأَنَّهَا تَفْتَقِرُ إِلَىٰ بَقَرٍ لِلْحِرَاثَةِ عَلَيْهِنَّ بِالْمِحْرَاثِ، وَهُوَ حَدِيدٌ، وَمَعَهُ خَشَبٌ، وَتَتَعَلَّقُ بِهِ حِبَالٌ، فَمَنْ تَفَكَّرَ فِي عَمَلِ الحِبَالِ؛ نَظَرَ فِي زَرْعِ القِنَّبِ وَتَسْرِيحِهِ وَفَتْلِهِ، وَالْحَدِيدِ وَجَلْبِهِ وَضَرْبِهِ، وَالْخَشَبِ وَنَبَاتِهِ وَنِجَارَتِهِ، وَدَوَرَانِ الدُّولَابِ وَعَمَلِهِ، ثُمَّ اسْتِحْصَادِ الزَّرْعِ، وَحَصْدِهِ، وَتَذْرِيَتِهِ، وَطَحْنِهِ، وَعَجْنِهِ، وَخَبْزِهِ، وَمِنْ عَمَلِ التَّنُّورِ، وَجَلْبِ الشَّوْكِ. وَمِنْ هٰذَا الْجِنْسِ إِذَا نَظَرَ فِيْهِ كَثُرَ جِدًّا، حَتَّى قَالُوا: **لَا تُنَالُ لُقْمَةٌ إِلَّا وَقَدْ عَمِلَ فِيهَا ثَلَاثُ مِئَةِ نَفْسٍ أَوْ نَحْوِهِمْ**. فَإِذَا أَكَلَ تِلْكَ اللُّقْمَةَ؛ فَلْيُفَكِّرْ فِي خَلْقِ الْأَسْنَانِ لِقَطْعِهَا، وَالْأَضْرَاسِ لِطَحْنِهَا، وَعُذُوبَةِ مَاءِ الفَمِ لِخَلْطِهَا، وَاللِّسَانِ لِيَقْلِبَهَا، وَعَضَلَاتِ الفَمِ يَصْعَدُ مِنْهَا شَيْءٌ، وَيَبْقَىٰ شَيْءٌ، حَتَّى يَصْلُحَ البَلْعُ، ثُمَّ يَتَنَاوَلُهَا المَعِيُ، فَيُوْصِلُها إِلى الكَبِدِ، فَيَقُومُ طَابِخًا لَهَا؛ فَإِذَا صَارَتْ دَمًا؛ نَفَتْ رُسُوبَها إِلىٰ الطِّحَالِ، وَمَائِيَّتَها إِلَىٰ المَثَانَةِ، وَاسْتَخْلَصَتْ مِنْ أَخْلَصِ الدَّمِ وَأَصْفَاهُ لِلْكَبِدِ وَالدِّمَاغِ وَالْقَلْبِ، وَأَخَذَتْ أَجْوَدَ ذٰلِكَ، فَحَدَرَتْهُ إِلىٰ الأُنْثَيَيْنِ مُعَدًّا لِخَلْقِ آدَمِيٍّ.

فَإِذَا تَحَرَّكَتْ نِيْرَانُ الشَّهْوَةِ؛ تَدَفَّقَتْ تِلْكَ النُّطْفَةُ، وَقَدْ حَكَمَ الشَّرْعُ بِطَهَارَتِهَا،

وَحَكَمَ لَهَا بِطَهَارَةِ الرَّحِمِ، وَالمَحَلِّ الَّذِي يُبَاشِرُهُ الذَّكَرُ، فَيُخْلَقُ مِنْهَا الآدَمِيُّ المُوَحِّدُ.

فَمَا جَاءَ هٰذَا الشَّخْصُ إِلَّا بِأَعْلَىٰ الغَلاءِ، وَبَعْدَ عَجَائِبَ أَشَرْنَا إِلَيْهَا، لَا أَنَّا عَدَدْنَاهَا!!

١٣٩٥ ـ أَفَمَنْ فَهِمَ هٰذَا يَحْسُنُ مِنْهُ أَنْ يُبَدِّدَ تِلْكَ النُّطْفَةَ فِي حَرَامٍ؟ أَوْ أَنْ يَطَأَ فِي مَحَلٍّ نَجِسٍ فَتَضِيعَ؟! فَكَمْ يَتَعَلَّقُ بِالزِّنا مِنْ مِحَنٍ لا يَفِي مِعْشَارُ عُشْرِهَا بِلَذَّةِ لَحْظَةٍ! **مِنْهَا**: هَتْكُ العِرْضِ بَيْنَ النَّاسِ، وَكَشْفُ العَوْرَاتِ المُحَرَّمَةِ، وَخِيَانَةُ الأَخِ المُسْلِمِ فِي زَوْجَتِهِ إِنْ كَانَتْ مُتَزَوِّجَةً، وَفَضِيحَةُ المَزْنِيِّ بِهَا، وَهِيَ كَأُخْتٍ لَهُ أَوْ بِنْتٍ. فَإِنْ عَلِقَتْ مِنْهُ وَلَهَا زَوْجٌ؛ أَلْحَقَتْهُ بِذٰلِكَ الزَّوْجِ، وَكَانَ هٰذَا الزَّانِي سَبَبًا فِي مِيْرَاثِ مَنْ لا يَسْتَحِقُّ، وَمَنْعِ مَنْ يَسْتَحِقُّ، ثُمَّ يَتَسَلْسَلُ ذٰلِكَ مِنْ وَلَدٍ إِلَىٰ وَلَدٍ.

وَأَمَّا سَخَطُ الحَقِّ سُبْحَانَهُ؛ فَمَعْلُومٌ: قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلزِّنَىٰٓ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا﴾ [الإسراء: ٣٢]. وَقَالَ ﷺ: «**مَا مِنْ ذَنْبٍ بَعْدَ الشِّرْكِ أَعْظَمُ عِنْدَ اللهِ تَعَالَىٰ مِنْ نُطْفَةٍ وَضَعَها رَجُلٌ فِي رَحِمٍ لا تَحِلُّ لَهُ**»[1].

١٣٩٦ ـ وَمَنْ لَهُ فَهْمٌ؛ فَهُوَ يَعْلَمُ أَنَّ المُرَادَ مِنَ النُّطْفَةِ إِيْجَادُ المُوَحِّدِينَ. وَلَوْلَا تَرْكِيبُ الشَّهْوَةِ؛ لَمْ يَقَعِ الوَطْءُ؛ لِأَنَّهُ الْتِقَاءُ عُضْوَيْنِ غَيْرِ مُسْتَحْسَنَيْنِ، وَلَا صُوْرَتُهُمَا حَسَنَةٌ، وَلا رِيْحُهُمَا طَيِّبٌ، وَإِنَّمَا الشَّهْوَةُ تُغَطِّي عَيْنَ النَّاظِرِ؛ لِيَحْصُلَ الوَلَدُ أَصْلًا؛ فَهِيَ عَارِضٌ. فَمَنْ طَلَبَ الشَّهْوَةَ، وَنَسِيَ جِنَايَتَهُ بِالزِّنَا؛ فَمَا رَأَىٰ الأَشْيَاءَ عَلَىٰ مَا هِيَ[2]. وَقِسْ عَلَىٰ هٰذَا المَطْعَمَ وَالْمَشْرَبَ، وَجَمْعَ المَالِ وَغَيْرَ ذٰلِكَ.

٣١٧ - فصل الفائدة في خلق ما يؤذي

١٣٩٧ ـ **إِنْ قَالَ قَائِلٌ**: أَيُّ فَائِدَةٍ فِي خَلْقِ مَا يُؤْذِي؟! **فَالجَوَابُ**: أَنَّهُ قَدْ **ثَبَتَتْ حِكْمَةُ الخَالِقِ؛ فَإِذَا خَفِيَتْ فِيْ بَعْضِ الأُمُورِ؛ وَجَبَ التَّسْلِيمُ**، ثُمَّ إِنَّ المُسْتَحْسَنَاتِ فِي

---

(١) رواه ابن أبي الدنيا، وفي سنده بقية (ضعيف).

(٢) لذا قال رسول الله ﷺ: «لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمنٌ، ولا يسرقُ السارق حين يسرق وهو مؤمن، ولا يشرب الخمرَ حين يشربُها وهو مؤمن، والتوبة معروضة بعدُ» رواه مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه.

الجُمْلَةِ أُنْمُوْذَجُ مَا أُعِدَّ مِنَ الثَّوَابِ، وَالمُؤْذِيَاتِ أُنْمُوْذَجُ مَا أُعِدَّ مِنَ العقابِ. وَمَا خُلِقَ شَيْءٌ يَضُرُّ؛ إِلَّا وَفِيْهِ مَنْفَعَةٌ.

١٣٩٨ - **قِيْلَ لِبَعْضِ الأَطِبَّاءِ**: إِنَّ فُلَانًا يَقُوْلُ: أَنَا كَالْعَقْرَبِ أَضُرُّ وَلَا أَنْفَعُ؟ **فَقَالَ**: مَا أَقَلَّ عِلْمَهُ! إِنَّهَا لَتَنْفَعُ إِذَا شُقَّ بَطْنُهَا، ثُمَّ شُدَّتْ عَلَى مَوْضِعِ اللَّسْعَةِ. وَقَدْ تُوْضَعُ فِيْ جَوْفِ فَخَّارٍ مَسْدُوْدِ الرَّأْسِ، مُطْبَقِ الجَوَانِبِ، ثُمَّ يُوْضَعُ الفَخَّارُ فِي تنُّورٍ؛ فَإِذا صَارَتْ رَمَادًا؛ سُقِيَ مِنْ ذٰلِكَ الرَّمَادِ مِقْدَارَ نِصْفِ دَانِقٍ[1] أَوْ أَكْثَر مَنْ بِهِ الحَصَاةُ، فَيُفتِّتُها مِنْ غَيْرِ أَنْ يَضُرَّ بِشَيْءٍ مِنْ سَائِرِ الأَعْضَاءِ! وَقَدْ تَلْسَعُ العَقْرَبُ مَنْ بِهِ حُمَّى عَتِيْقَةٌ فَتَزُوْلُ. وَلَسَعَتْ رَجُلًا مَفْلُوْجًا، فَزَالَ عَنْهُ الفَالِجُ[2]. وَقَدْ تُلْقَىٰ فِي الدُّهْنِ، حَتَّى يَجْتَذِبَ قُوَاهَا، فَيُزِيْلُ ذٰلِكَ الدُّهنُ الأَوْرَامَ الغَلِيْظَةَ. وَمِثْل هٰذَا كَثِيْرٌ.

فَالجَاهِلُ عَدُوٌّ لِمَا جَهِلَهُ، وَأَكْبَرُ الحَمَاقَةِ رَدُّ الجَاهِلِ عَلَىٰ العَالِمِ.

٣١٨ - فصل: كلما أوغلت الفهوم في معرفة الخالق تاهت في محبته

١٣٩٩ - كُلَّمَا أَوْغَلَتِ الفُهُوْمُ فِي مَعْرِفَةِ الخَالِقِ، فَشَاهَدَتْ عَظَمَتَهُ وَلُطْفَهُ وَرِفْعَتَهُ؛ تَاهَتْ فِي مَحَبَّتِهِ، فَخَرَجَتْ عَنْ حَدِّ الثُّبُوْتِ. وَقَدْ كَانَ **خَلْقٌ مِنَ النَّاسِ** غَلَبَتْ عَلَيْهِم مَحَبَّتُهُ، فَلَمْ يَقْدِرُوْا عَلَىٰ مُخَالَطَةِ الخَلْقِ، **وَمِنْهُم** مَنْ لَمْ يَقْدِرْ عَلَىٰ السُّكُوْتِ عَنِ الذِّكْرِ، **وَفِيْهِم** مَنْ لَمْ يَنَمْ إِلَّا غَلَبَةً، **وَفِيْهِمْ** مَنْ هَامَ فِي البَرَارِي، **وَفِيْهِمْ** مَن احْتَرَقَ فِي بَدَنِهِ. فَيَا حُسْنَ مَخْمُوْرِهِم مَا أَلَذَّ سُكْرَهُ! وَيَا عَيْشَ قَلقِهِمْ مَا أَحْسَنَ وَجْدَهُ!

١٤٠٠ - كَانَ **أَبُوْ عُبَيْدَةَ الخَوَّاصُ**[3] قَدْ غَلَبَهُ الوَجْدُ، فَكَانَ يَمْشِي فِي الأَسْوَاقِ يَقُوْلُ: وَاشَوْقاهُ إِلَىٰ مَنْ يَرَانِي وَلَا أَرَاهُ.

١٤٠١ - وَكَانَ **فَتْحُ بْنُ شَخْرف**[4] يَقُوْلُ: قَدْ طَالَ شَوْقِي إِلَيْكَ؛ فَعَجِّلْ قُدُوْمِي عَلَيْكَ.

---

(١) **الدانق**: سدسُ درهم، والدرهم = ٣,٢٢ غ.

(٢) **الفالج**: شلل يصيب أحد شقي البدن، وربما كان في الشقين، فيبطل الإحساس والحركة.

(٣) عباد بن عباد، واعظ له أقوال مأثورة.

(٤) أبو نصر الخراساني المروزي أحد العباد، توفي سنة (٢٧٣هـ).

١٤٠٢ ـ وَكَانَ **قَيْسُ بْنُ الرَّبِيْعِ**[١] كَأَنَّهُ مَخْمُوْرٌ مِنْ غَيْرِ شَرَابٍ.

١٤٠٣ ـ وَكَانَ **ابْنُ عَقِيْلٍ** يَقُوْلُ: إِنَّ التَّبَذُّلَ[٢] فِيْهِ سُبْحَانَهُ أَحْسَنُ مِنَ التَّجَمُّلِ فِي غَيْرِهِ.

١٤٠٤ ـ **هَلْ رَأَيْتَ** قَطُّ عُرَاةً أَحْسَنَ مِنَ المُحْرِمِيْنَ؟! **هَلْ رَأَيْتَ** لِلمُتَزَيِّنِيْنَ بِرِيَاشِ الدُّنيا [سَمْتًا] كَأَثْوَابِ الصَّالِحِيْنَ؟! **هَلْ رَأَيْتَ** خُمَارًا[٣] أَحْسَنَ مِنْ نُعَاسِ المُتَهَجِّدِيْنَ؟! **هَلْ رَأَيْتَ** سُكْرًا أَحْسَنَ مِنْ صَعَقِ الوَاجِدِيْنَ؟! **هَلْ شَاهَدْتَ** مَاءً صَافِيًا أَصْفَىٰ مِنْ دُمُوْعِ المُتَأَسِّفِيْنَ؟! **هَلْ رَأَيْتَ** رُؤُوْسًا مَائِلَةً كَرُؤُوْسِ المُنْكَسِرِيْنَ؟! **هَلْ لَصِقَ** بِالأَرْضِ شَيْءٌ أَحْسَنُ مِنْ جِبَاهِ المُصَلِّيْنَ؟! **هَلْ حَرَّكَ** نَسِيْمُ الأَسْحَارِ أَوْرَاقَ الأَشْجَارِ، فَبَلَغَ مَبْلَغَ تَحْرِيْكِهِ أَذْيَالَ المُتَهَجِّدِيْنَ؟! **هَلِ ارْتَفَعَتْ** أَكُفٌّ، وَانْبَسَطَتْ أَيْدٍ، فَضَاهَتْ أَكُفَّ الرَّاغِبِيْنَ؟! **هَلْ حَرَّكَ** القُلُوْبَ صَوْتُ تَرْجِيْعِ لَحْنٍ أَوْ رَنَّةُ وَتَرٍ كَمَا حَرَّكَ حَنِيْنُ المُشْتَاقِيْنَ؟! وَإِنَّمَا يَحْسُنُ التَبَذُّل فِي تَحْصِيْلِ أَوْفَىٰ الأَغْرَاضِ؛ فَلِذٰلِكَ حَسُنَ التَّبَذُّلُ فِي خِدْمَةِ المُنْعِمِ.

٣١٩ - فصل: في سبب تبذير الولاة

١٤٠٥ ـ الوُلَاةُ [أَكْثَرُهُم[٤] لَا يَعْرِفُ الدِّيْنَ، وَلا يَتَأَدَّبُ بِآدَابِهِ، فَإِذَا كَانَ أَصْلُ خِلْقَتِهِ سَيِّئَ العَقْلِ، وَلَمْ يُرْزَقْ مَعَ هَذَا السُّوْءِ مَا يُهَذِّبُ طَبْعَهُ، وَيُنْضِجُ فِكْرَهُ، فَكَيْفَ يُرْتَقَبُ الخَيْرُ؟ إِنَّ العَقْلَ يَنْمُو بِالتَّعْلِيْمِ وَالتَّحْصِيْلِ والدُّرْبَةِ، وَالمِرَانِ مَعَ دَوَامِ العَمَلِ.

أَجَلْ][٥] أَكْثَرُهُم لا يَعْرِفُ الدِّينَ، وَلا يَتَأَدَّبُ بِآدَابِهِ بمرّةٍ، تَتَّفِقُ لَهُ قلةُ العَقْلِ فِي أَصْلِ الوَضْعِ، ثُمَّ ذٰلِكَ القَلِيْلُ لا يُعاوَنُ، بَلْ يُعَانُ عَلَيْهِ، وَذَاكَ أَنَّ الجَارِحَةَ إِذا دَامَ تَعطُّلُهَا عَنْ عَمَلِهَا الَّذِي هُيِّئَتْ لَهُ؛ تَعَطَّلَتْ وَخَمَدَتْ، وَلِهٰذَا تَنْقُصُ أَبْصَارُ النُّسَّاخِ والرَّفَّائِيْنَ[٦]، وَتَحْتَدُّ أَبْصَارُ أَهْلِ البَوادِي؛ لِأَنَّهُ لا صَادَّ لِأَبْصَارِهِم.

---

(١) أبو محمد الأسدي الكوفي (٩٠ ـ ١٦٧هـ)، أحد أوعية العلم على ضعف فيه من قبل حفظه.

(٢) **التبذل**: أن يلبس الإنسان لباس الخدمة والعمل.

(٣) **الخمار**: بضم الخاء المعجمة: ما يعقب شرب الخمر من صداع وأذًى.

(٤) أي الولاة.

(٥) زيادة من حاشية (أ).

(٦) الذي يخيط الثياب ويصلحها.

وَشُغْلُ العَقْلِ التَّفَكُّرُ والنَّظَرُ فِي عَوَاقِبِ الأَحْوَالِ، وَالاَسْتِدْلَالُ بِالشَّاهِدِ عَلَى الغَائِبِ، وَهٰؤلاءِ يَمْتَلِئُوْنَ مِنَ الطَّعَامِ دَائِمًا، وَذٰلِكَ يُؤْذِي العَقْلَ، ثُمَّ يُطِيْلُوْنَ النَّوْمَ؛ فَإِذَا انْتَبَهوا؛ شَرِبُوْا المُسْكِرَ، فَاتَّفَقَ لِلْعَقْلِ تَعْطِيْلٌ وَتَغْطِيَةٌ، فَسَاءَ التَّدْبِيْرُ.

٣٢٠ - فصل: تحديث العوام بما لا تحتمله قلوبهم مخاطرة

١٤٠٦ ـ مِنَ المُخَاطَرَاتِ العَظِيْمَةِ تَحْدِيْثُ العَوَامِّ بِمَا لا تَحْتَمِلُهُ قُلُوْبُهُم أَوْ بِمَا قَدْ رَسَخَ فِي نُفُوْسِهِم ضِدُّهُ. مِثَالُهُ: أَنَّ قَوْمًا قَدْ رَسَخَ فِي قُلُوبِهِمُ التَّشْبِيْهُ، وَأَنَّ ذَاتَ الخَالِقِ سُبْحَانَه مُلَاصِقَةٌ لِلْعَرْشِ! وَهِيَ بِقَدْرِ العَرْشِ، وَيَفْضُلُ مِنَ العَرْشِ أَرْبَعُ أَصَابِعَ! وَسَمِعُوْا مَثَلَ هٰذَا مِنْ أَشْيَاخِهِم، وَثَبَتَ عَنْدَهُمْ أَنَّه إِذَا نَزَلَ وَانْتَقَلَ إِلىٰ السَّمَاءِ الدُّنيا، فَخَلَتْ مِنْهُ سِتُّ سَمَاوَاتٍ!!

١٤٠٧ ـ فَإِذَا دُعِيَ أَحَدُهُمْ إِلَىٰ التَّنْزِيْهِ، وَقِيْلَ لَهُ: لَيْسَ كَمَا خَطَرَ لَكَ، إِنَّمَا يَنْبَغِي أَنْ تُمِرَّ الأَحَادِيْثَ كَمَا جَاءَتْ؛ مِنْ غَيْرِ مُسَاكَنَةِ مَا تَوَهَّمْتَهُ؛ صَعُبَ هٰذَا عَلَيْهِ لِوَجْهَيْنِ: أَحَدُهُمَا: **لِغَلَبَةِ الحِسِّ عَلَيْهِ**، وَالحِسُّ عَلىٰ العَوَامِّ أَغْلَبُ. والثَّانِي: **لِمَا قَدْ سَمِعَهُ مِنْ ذٰلِكَ مِنَ الأَشْيَاخِ**، الَّذِيْنَ كَانُوْا أَجْهَلَ مِنْهُ. فَالمُخَاطِبُ بِهٰذَا مُخَاطِرٌ بِنَفْسِهِ.

١٤٠٨ ـ وَلَقَدْ بَلَغَنِي عَنْ بَعْضِ مَنْ كَانَ يَتَدَيَّنُ مِمَّنْ قَدْ رَسَخَ فِي قَلْبِهِ التَّشْبِيْهُ أَنَّهُ سَمِعَ مِنْ بَعْضِ العُلَمَاءِ شَيْئًا مِنَ التَّنْزِيْهِ، فَقَالَ: وَاللهِ؛ لَوْ قَدِرْتُ عَلَيْهِ؛ لَقَتَلْتُه.

فَاللهَ اللهَ أَنْ تُحَدِّثَ مُخْلُوْقًا مِنَ العَوَامِّ بِمَا لا يَحْتَمِلُه [دُوْنَ احْتِيَالٍ وَتَلَطُّفٍ][1]؛ فَإِنَّهُ لا يَزُوْلُ مَا فِي نَفْسِهِ، وَيُخَاطِرُ المُحَدِّثُ لَهُ بِنَفْسِهِ. فَكَذٰلِكَ كُلُّ ما يَتَعَلَّقُ بِالأُصُوْلِ.

٣٢١ - فصل: الرجل هو الذي يحفظ الحدود ويخلص العمل

١٤٠٩ ـ لا يَغُرَّكَ مِنَ الرَّجُلِ طَنْطَنَتُهُ[2]، وَمَا تَرَاهُ يَفْعَلُ مِنْ صَلَاةٍ وَصَوْمٍ وَصَدَقَةٍ وَعُزْلَةٍ! إِنَّمَا الرَّجُلُ هُوَ الذي يُرَاعِي شَيْئَيْنِ: **حِفْظَ الحُدُوْدِ، وَإِخْلَاصَ العَمَل**.

---

(١) زيادة من (أ).

(٢) **طنطنته**: شهرته.

فَكَمْ قَدْ رَأَيْنَا مُتَعَبِّدًا يَخْرِقُ الحُدُوْدَ بِالغِيْبَةِ، وَفِعْلِ مَا لا يَجُوْزُ مِمَّا يُوَافِقُ هَوَاهُ، وَكَمْ قَدِ اعْتَبَرْنا عَلىٰ صَاحِبِ دِيْنٍ أَنَّه يَقْصِدُ بِفِعْلِهِ غَيْرَ اللهِ تَعَالَىٰ! وَهٰذِهِ الآفَةُ تَزِيْدُ وتَنْقُصُ فِي الخَلْقِ.

فَرُبَّ[1] خَاشِعٍ لِيُقَال: نَاسِكٌ! وَصَامِتٍ لِيُقَالَ: خَائِفٌ! وَتَارِكٍ للدُّنْيَا لِيُقَالَ: زَاهِدٌ!

فالرَّجُلُ كُلُّ الرَّجُلِ هُوَ الّذي يُراعِي حُدُودَ اللهِ، وهِيَ ما فُرِضَ عليه، وَأُلْزِمَ بِهِ، ويُحْسِنُ القَصْدَ، فيكونُ عَمَلُهُ وقولُهُ خالصًا للهِ تعالى، لَا يُرِيْدُ الخَلْقَ ولا تَعْظِيْمَهُم لَهُ.

١٤١٠ ـ وَعَلَامَةُ المُخْلِصِ أَنْ يَكُوْنَ فِي جَلْوَتِهِ كَخَلْوَتِهِ، وَرُبَّمَا تَكَلَّفَ بَيْنَ النَّاسِ التَّبَسُّمَ وَالانْبِسَاطَ، لِيَنْمَحِيَ عَنْهُ اسْمُ الزَّاهِدِ؛ فَقَدْ كَانَ ابنُ سِيْرِيْنَ يَضْحَكُ بِالنَّهَارِ؛ فَإِذَا جُنَّ اللَّيْلُ؛ فَكَأَنَّهُ قَتَلَ أَهْلَ القَرْيَةِ.

وَاعْلَمْ أَنَّ المَعْمُوْلَ[2] مَعَهُ لا يُرِيْدُ الشُّرَكَاءَ؛ فَالمُخْلِصُ مُفْرِدٌ لَهُ بِالقَصْدِ، وَالمُرَائِي قَدْ أَشْرَكَ لِيَحْصُلَ لَهُ مَدْحُ النَّاسِ، وَذٰلِكَ يَنْقَلِبُ؛ لِأَنَّ قُلُوْبَهُمْ بِيَدِ مَنْ أَشْرَكَ مَعَهُ؛ فَهُوَ يُقَلِّبُهَا عَلَيْهِ لا إِلَيْهِ.

فَالمُوَفَّقُ مَنْ كَانَتْ مُعَامَلَتُهُ بَاطِنَةً، وَأَعْمَالُهُ خَالِصَةً، وَذَاكَ الّذِيْ تُحِبُّهُ النَّاسُ، وَإِنْ لَمْ يُبَالِهِم[3]؛ كَمَا يَمْقُتُوْنَ المُرَائِيَ، وَإِنْ زَادَ تَعَبُّدُهُ.

ثُمَّ إِنَّ الرَّجُلَ المَوْصُوْفَ بِهٰذِهِ الخِصَالِ لا يَتَنَاهَىٰ عَنْ كَمَالِ العُلُوْمِ، وَلا يُقَصِّرُ عَنْ طَلَبِ الفَضَائِلِ؛ فَمَلَأُ الزَّمَانَ أَكْثَرَ مَا يَسَعُهُ مِنَ الخَيْرِ، وَقَلْبُهُ لا يَفْتُرُ عَنِ العَمَلِ القَلْبِيِّ، إِلىٰ[4] أَنْ [يَصِيْرَ] شُغْلُهُ بِالحَقِّ سُبْحَانَه وَتَعَالَىٰ.

٣٢٢ - فصل: حبّ الصِّيت

١٤١١ ـ رَأَيْتُ خَلْقًا يُفَرِّطُوْنَ فِي أَدْيَانِهِم، **ثُمَّ يَقُوْلُوْنَ**: احْمِلُوْنَا إِذَا مِتْنا إِلىٰ

---

(١) في الأصل: فربما، وهو تصحيف.
(٢) يعني: الله سبحانه وتعالى.
(٣) في الأصل: وإن كرهوا أن يقلّدوا به.
(٤) في الأصل: إلّا.

مَقْبَرَةِ أَحْمَدَ[1]، أَتُرَاهُمْ مَا سَمِعُوْا أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ **امْتَنَعَ مِنَ الصَّلَاةِ عَلَىٰ مَنْ عَلَيْهِ دَيْنٌ**[2] وَعَلَىٰ **الغَالِّ**، وَقَالَ: «**مَا يَنْفَعُهُ صَلَاتِي عَلَيْهِ**»[3]؟

١٤١٢ ـ وَلَقَدْ رَأَيْتُ أَقْوَامًا مِنَ العُلَمَاءِ حَمَلَهُم حُبُّ الصِّيْتِ عَلَىٰ أَنِ اسْتَخْرَجُوْا إِذنًا مِنَ السُّلْطَانِ، فَدُفِنُوْا فِي دَكَّةٍ[4] أَحْمَدَ بْنِ حَنْبَل، وَهُمْ يَعْلَمُوْنَ أَنَّ هُنَاكَ خَلْقًا [رُفَاتُ] بَعْضِهِمْ عَلَى بَعْضٍ، وَمَا فِيْهِم إِلَّا مَنْ يَعْلَمُ أَنَّهُ مَا يَسْتَحِقُّ القُرْبَ مِنْ مِثْلِ ذٰلِكَ! فَأَيْنَ احْتِقَارُ النُّفُوْسِ؟! أَمَا سَمِعُوْا أَنَّ عُمَرَ بْنَ عَبْدِ العَزِيْزِ. **قِيْلَ لَهُ**: تُدْفَنُ فِي الحُجْرَةِ[5]؟! فَقَالَ: لَأَنْ أَلْقَىٰ اللهَ بِكُلِّ ذَنْبٍ ـ مَا خَلَا الشِّرْكَ ـ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ أَرَىٰ نَفْسِي أَهْلًا لِذٰلِكَ؟!

لَكِنَّ العَادَاتِ وَحُبَّ الرِئَاسَةِ غَلَبَتْ عَلَىٰ هٰؤلاءِ، فَبَقِيَ العِلْمُ يَجْرِي عَلَى الأَلْسُنِ عَادَةً، لا لِلْعَمَلِ بِهِ.

١٤١٣ ـ ثُمَّ آلَ الأَمْرُ إِلَىٰ جَمَاعَةٍ خَالَطُوا السَّلَاطِيْنَ، وَبَاشَرُوْا الظُّلْمَ، يُزَاحِمُوْنَ عَلَىٰ الدَّفْنِ بِمَقْبَرَةِ أَحْمَدَ، وَيُوْصُوْنَ بِذٰلِكَ!!

فَلَيْتَهُم أَوْصَوا بِالدَّفْنِ فِي مَوْضِعٍ فَارِغٍ، إِنَّمَا يُدْفَنونَ عَلَىٰ مَوْتَىٰ، وَتُخْرَجُ عِظَامُ أولئك، فَيُحْشَرُوْنَ عَلَىٰ مَا أَلِفُوْا مِنَ الظُّلْمِ، حَتَّى فِي مَوْتِهِم، وَيَنْسَوْنَ أَنَّهُم كَانُوْا مِنْ أَعْوَانِ الظَّلَمَةِ. أَتُرَىٰ مَا عَلِمُوا أَنَّ مُسَاعِدَ الظَّالِمِ ظَالِمٌ؟! وفِي الحَدِيْثِ: «**كَفَى بِالمَرْءِ خِيَانَةً أَنْ يَكُوْنَ أَمِيْنًا لِلْخَوَنَةِ**»[6].

قَالَ السَّجَّانُ لِأَحْمَدَ بْنِ حَنْبَل: هَلْ أَنَا مِنْ أَعْوَانِ الظَّلَمَةِ؟ **فَقَالَ**: لا؛ أَنْتَ مِنَ الظَّلَمَةِ، إِنَّمَا أَعْوَانُ الظَّلَمَةِ مَنْ أَعَانَكَ فِي أَمْرٍ.

---

(١) أحمد بن حنبل.

(٢) رواه البخاري (٢٢٨٩) عن سلمة بن الأكوع رضي الله عنه.

(٣) رواه النسائي (١٩٥٩)، وابن ماجه (٢٨٤٨) عن زيد بن خالد الجهني رضي الله عنه عدا قوله: (ما ينفعه صلاتي عليه) (ضعيف).

(٤) **الدكة**: المقبرة.

(٥) حجرة عائشة رضي الله عنها التي دفن فيها النبي ﷺ وأبو بكر وعمر رضي الله عنهما.

(٦) من كلام مالك بن دينار. وقد ذكره البيهقي في الشعب برقم ٩٤٣٠.

٣٢٣ - فصل: خلق الإنسان ومعه الحسد

١٤١٤ ـ رَأَيْتُ النَّاسَ يَذُمُّوْنَ الحَاسِدَ، وَيُبَالِغُوْنَ، وَيَقُوْلُوْنَ: لا يَحْسُدُ إِلَّا شِرِّيْرٌ؛ يُعادِي نِعْمَةَ اللهِ، ولا يَرْضَىٰ بِقَضَائِهِ، وَيَبْخَلُ عَلَىٰ أَخِيْهِ المُسْلِمِ. فَنَظَرْتُ فِي هٰذَا؛ فَمَا رَأَيْتُهُ كَمَا يَقُوْلُوْنَ.

وَذَاكَ أَنَّ الإِنْسَانَ لا يُحِبُّ أَنْ يَرْتَفِعَ عَلَيْهِ أَحَدٌ؛ فَإِذَا رَأَىٰ صَدِيْقَهُ قَدْ عَلَا عَلَيْهِ؛ تَأَثَّرَ هُوَ، وَلَمْ يُحِبَّ أَنْ يَرْتَفِعَ عَلَيْهِ، وَوَدَّ لَوْ لَمْ يَنَلْ صَدِيْقُهُ مَا يَنَالُ، أَوْ أَنْ يَنَالَ هُوَ مَا نَالَ ذَاكَ؛ لِئَلَّا يَرْتَفِعَ عَلَيْهِ. وَهٰذَا مَعْجُوْنٌ فِي الطَّبْعِ[1]، وَلا لَوْمَ عَلَىٰ ذٰلِكَ، **إِنَّمَا اللَّوْمُ أَنْ يَعْمَلَ بِمُقْتَضَاهُ مِنْ قَوْلٍ أَوْ فِعْلٍ.**

وَكُنْتُ أَظُنُّ أَنَّ هٰذَا قَدْ وَقَعَ لِي عنْ سَبْرِي[2] وَفَحْصِي، فَرَأَيْتُ الحَدِيْثَ[3] عَنِ الحَسَنِ البَصْرِيِّ قَدْ سَبَقَنِي إِلَيْهِ؛ قَالَ: أَخْبَرَنَا عَبْدُ الخَالِقِ بْنُ عَبْدِ الصَّمَدِ؛ قَالَ: أَخْبَرَنَا ابْنُ النَّقُّوْرِ[4]؛ قَالَ: أَخْبَرَنَا المُخلِّصُ[5]؛ قَالَ: حَدَّثَنَا البَغَوِيُّ؛ قَالَ: حَدَّثنا أَبُوْ رَوحٍ؛ قَالَ: حَدَّثَنَا مَخْلَدُ بْنُ الحُسَيْنِ، عنْ هِشَامٍ، عَنِ الحَسَنِ؛ قَالَ: **لَيْسَ مِنْ وَلَدِ آدَمَ أَحَدٌ إِلَّا وَقَدْ خُلِقَ مَعَهُ الحَسَدُ؛ فَمَن لَمْ يُجَاوِزْ ذٰلِكَ بِقَوْلٍ وَلا بِفِعْلٍ؛ لَمْ يَتْبَعْهُ شَيْءٌ.**

٣٢٤ - فصل: أعظم الضرر كثرة النساء

١٤١٥ ـ مِنْ أَعْظَمِ الضَّرَرِ الدَّاخِلِ عَلَىٰ الإِنْسَانِ كَثْرَةُ النِّسَاءِ.

إِنَّهُ **أَوَّلًا** يَتَشَتَّتُ هَمُّهُ فِي مَحَبَّتِهِنَّ، وَمُدَارَاتِهِنَّ، وَغَيْرَتِهِنَّ، وَالإِنْفَاقِ عَلَيْهِنَّ. وَلا

---

(١) في الأصل: الطين. أي: أصل الخلقة.

(٢) في الأصل: سري، وهو تصحيف.

(٣) يستعمل المؤلف كلمة الحديث بمعناه اللغوي لا بمعناه الاصطلاحي، وقد ورد أكثر من مرة بهذا المعنى.

(٤) أحمد بن محمد أبو الحسين البغدادي البزّار (٣٨١ ـ ٤٧٠هـ) مسند العراق.

(٥) محمد بن عبد الرحمٰن البغدادي الذهبي (٣٠٥ ـ ٣٩٣هـ) المحدث المعمر، سمّي المخلّص لأنه كان يخلّص الذهب من الغش.

يَأْمَنُ إِحْدَاهُنَّ أَنْ تَكْرَهَهُ، وَتُرِيْدَ غَيْرَهُ؛ فَلَا تَتَخَلَّصَ إِلَّا بِقَتْلِهِ! وَلَوْ سَلِمَ مِنْ جَمِيْعِ ذٰلِكَ؛ لَمْ يَسْلَمْ فِي الكَسْبِ لَهُنَّ، فَإِنْ سَلِمَ؛ لَمْ يَنْجُ مِنَ السَّآمَةِ لَهُنَّ، أَو لِبَعْضِهِنَّ، ثُمَّ يَطْلُبُ مَا لَا يَقْدِرُ عَلَيْهِ مِنْ غَيْرِهِنَّ، حَتَّىٰ إِنَّهُ لَوْ قَدَرَ عَلىٰ نِسَاءِ بَغْدَادَ كلِّهِنَّ، فقَدِمَتِ ٱمْرَأَةٌ مُسْتَتِرَةٌ مِنْ غَيْرِ البَلَدِ؛ ظَنَّ أَنَّهُ يَجِدُ عِنْدَهَا مَا لَيْسَ عِنْدَهُنَّ!

وَلَعَمْرِي؛ إِنَّ فِي الجِدَّةِ لَذَّةً، وَلٰكِنْ؛ رُبَّ مَسْتُوْرٍ إِذَا انْكَشَفَ افْتُضِحَ.

وَلَوْ أَنَّه سَلِمَ مِنْ كُلِّ أَذًى يَتَعَلَّقُ بِهِنَّ؛ أَنْهَكَ بَدَنَهُ فِي الجِمَاعِ، فَيَكُوْنُ طَلَبُهُ لِلالْتِذَاذِ مَانِعًا مِنْ دَوَامِ الالْتِذَاذِ، وَرُبَّ لُقْمَةٍ مَنَعَتْ لُقَمَاتٍ! وَرُبَّ لَذَّةٍ كَانَتْ سَبَبًا فِي انْقِطَاعِ لَذَّاتٍ!!

١٤١٦ ـ والعَاقِلُ مَنْ يَقْتَصِرُ عَلىٰ الوَاحِدَةِ؛ إِذَا وَافَقَتْ غَرَضَهُ، وَلَا بُدَّ أَنْ يكُوْنَ فِيْهَا شَيْءٌ لا يُوَافِقُ، إِنَّمَا العَمَلُ عَلىٰ الغَالِبِ، فَتُوْهَبُ الخَلَّةُ الرديَّةُ للجَيِّدَةِ[1].

وَيَنْبَغِي أَنْ يَكُوْنَ النَّظَرُ إِلى بَابِ الدِّيْنِ قَبْلَ النَّظَرِ إِلىٰ الحُسْنِ؛ فَإِنَّهُ إِذَا قَلَّ الدِّيْنُ؛ لَمْ يَنْتَفِعْ ذُوْ مُرُوْءَةٍ بِتِلْكَ المَرْأَةِ.

١٤١٧ ـ وَمِمَّا يُهْلِكُ الشَّيْخَ سَرِيْعًا الجِمَاعُ؛ فَلَا يَغْتَرَّ بِمَا يَرَىٰ مِن انْبِسَاطِ الآلةِ، وحُصُوْلِ الشَّهْوَةِ، فَإِنَّ ذٰلكَ مُسْتَخْرِجٌ مِنْ قُوَّتِهِ، مَا لَا يَعُوْدُ مِثْلُهُ؛ فَلَا يَنْبَغِي أَنْ يَغْتَرَّ بِحَرَكَةٍ وَشَهْوَةٍ، وَلا يَقْرَبَ مِنَ النِّسَاءِ؛ إِنْ كَانَ لَهُ رَأْيٌ فِي البَقَاءِ.

٣٢٥ - فصل: قليل العقل لا يرجى خيره

١٤١٨ ـ إِذَا رَأَيْتَ قَلِيْلَ العَقْلِ فِي أَصْلِ الوَضْعِ؛ فَلَا تَرْجُ خَيْرَهُ! فَأَمَّا إِنْ كَانَ **وَافِرَ العَقْلِ**، لٰكِنَّهُ يَغْلِبُ عَلَيْهِ الهَوَىٰ؛ فَٱرْجُه! **وَعَلَامَةُ ذٰلِكَ** أَنَّه يُدَبِّرُ أَمْرَهُ فِي جَهْلِهِ؛ فَيَسْتَتِرُ مِنَ النَّاسِ إِذَا أَتَىٰ فَاحِشَةً، وَيُرَاقِبُ فِي بَعْضِ الأَحْوَالِ، وَيَبْكِي عِنْدَ المَوْعِظَةِ، وَيَحْتَرِمُ أَهْلَ الدِّيْنِ. فَهٰذَا **عَاقِلٌ مَغْلُوْبٌ بِالهَوَى**؛ فَإِذَا انْتَبَهَ بِالنَّدَمِ؛ خَنَسَ شَيْطَانُ الهَوَىٰ، وَجَاءَ مَلِكُ العَقْلِ.

---

(١) في الأصل: للمجيدة، وهو تصحيف.

١٤١٩ ـ فَأمّا إِذَا كَانَ **قَلِيْلُ العَقْل** فِي الوَضْعِ ـ **وَعلامَتُهُ** أَلّا يَنْظُرَ فِي عَاقِبَةٍ عَاجِلَةٍ وَلا آجِلَةٍ، وَلا يَسْتَحِيَ مِنَ النَّاسِ أَنْ يَرَوْهُ عَلىٰ فَاحِشَةٍ، وَلا يُدَبِّرَ أَمْرَ دُنْياه: فَذَاكَ بِعِيْدُ الرَّجَاءِ، وَقَدْ يَنْدُرُ مِنْ هٰؤلاءِ مَنْ يُفْلِحُ. وَيَكُوْنُ السَّبَبُ فِيْهِ[1] خَمِيْرَةً مِنَ العَقْلِ غَطَّى عَلَيْهَا الهَوَىٰ، ثُمَّ تُكْشَفُ قَلِيْلًا لِيَعُوْدَ؛ فَمَثَلُهُم كَمَثَلِ مَصْرُوْعٍ أَفَاقَ.

٣٢٦ - فصل: النظر في العواقب شأن العقلاء

١٤٢٠ ـ يَنْبَغِي الاحْتِرَازُ مِنْ كُلِّ مَا يَجُوْزُ أَنْ يَكُوْنَ، وَلا يَنْبَغِي أَنْ يُقَالَ: الغَالِبُ السَّلَامَةُ. وَقَدْ رَأَيْنا مَنْ نَزَلَ مَعَ الخَيْلِ فِي سَفِيْنَةٍ، فَاضْطَرَبَتْ، فَغَرِقَ مَنْ فِي السَّفِيْنَةِ، وَإِنْ كَانَ الغَالِبُ فِي هٰذِهِ السَّلَامَةَ.

١٤٢١ ـ وَكَانَ يَنْبَغِي أَنْ يَقْدِرَ[2] الإِنْسَانُ فِي نَفَقَتِهِ، وَإِنْ رَأَىٰ الدُّنْيَا مُقْبِلَةً؛ لِجَوَازِ أَنْ تَنْقَطِعَ تِلْكَ الدُّنْيَا[3]، وَحَاجَةُ النَّفْس لا بُدَّ مِنْ قَضَائِهَا؛ فَإِذَا بَذَّرَ وَقْتَ السَّعَةِ، فَجَاءَ وَقْتُ الضِّيْقِ؛ لَمْ يَأْمَنْ أَنْ يَدْخُلَ فِي مَدَاخِلِ سَوْءٍ، وَأَنْ يَتَعَرَّضَ بِالطَّلَبِ مِنَ النَّاسِ، وَكَذٰلِكَ يَنْبَغِي لِلْمُعَافَى أَنْ يُعِدَّ لِلْمَرَضِ، وَلِلْقَوِيِّ أَنْ يَتَهَيَّأَ لِلْهَرَمِ.

١٤٢٢ ـ وَفِي الجُمْلَةِ؛ **فَالنَّظَرُ** فِي العَوَاقِبِ، وَفِيْمَا يَجُوْزُ أَنْ يَقَعَ: **شَأْنُ العُقَلَاءِ**.

فَأَمَّا النَّظَرُ فِي الحَالَةِ الرَّاهِنَةِ فَحَسْبُ؛ **فَحَالَةُ الجَهَلَةِ الحَمْقَىٰ**؛ مِثْلُ أَنْ يَرَىٰ نَفْسَهُ مُعَافًى، وَيَنْسَى المَرَضَ، أَوْ غَنِيًّا، وَيَنْسَى الفَقْرَ، أَوْ يَرَىٰ لَذَّةً عَاجِلَةً، وَيَنْسَىٰ مَا تَجْنِي عَوَاقِبُهَا. وَلَيْسَ لِلْعَقْلِ شُغْلٌ إِلَّا النَّظَرَ فِي العَوَاقِبِ، وَهُوَ يُشِيْرُ بِالصَّوَابِ مِنْ أَيْنَ يُقْبِلُ.

٣٢٧ - فصل: يظهر إيمان المؤمن عند الابتلاء

١٤٢٣ ـ يَبِيْنُ إِيْمَانُ المُؤْمِنِ عِنْدَ الابْتِلَاءِ؛ فَهُوَ يُبَالِغُ فِي الدُّعَاءِ، وَلَا يَرَىٰ أَثَرًا لِلْإِجَابَةِ، وَلا يَتَغَيَّرُ أَمَلُهُ وَرَجَاؤُه، وَلَوْ قَوِيَتْ أَسْبَابُ اليَأْسِ؛ لِعِلْمِهِ أَنَّ الحَقَّ أَعْلَمُ

---

(١) أي: عدم الفلاح.

(٢) **يقدر**: يقتصد.

(٣) في الأصل: الأسباب.

بِالْمَصَالِحِ، أَوْ لِأَنَّ المُرَادَ مِنْهُ الصَّبْرُ أَوْ الإِيْمَانُ؛ فَإِنَّهُ لَمْ يَحْكُمْ عَلَيْهِ بِذٰلِكَ إِلَّا وَهُوَ يُرِيْدُ مِنَ القَلْبِ التَّسْلِيْمَ؛ لِيَنْظُرَ كَيْفَ صَبْرُهُ، أَوْ يُرِيْدُ كَثْرَةَ اللَّجَأ والدُّعَاءِ.

١٤٢٤ ـ فَأَمَّا مَنْ يُرِيْدُ تَعْجِيْلَ الإِجَابَةِ، وَيَتَذَمَّرُ إِنْ لَمْ تَتَعَجَّلْ؛ فَذَاكَ ضَعِيْفُ الإِيْمَانِ، يَرَىٰ أَنَّ لَهُ حَقًّا فِي الإِجَابَةِ، وَكَأَنَّهُ يَتَقَاضَىٰ أُجْرَةَ عَمَلِهِ.

١٤٢٥ ـ أَمَا سَمِعْتَ قِصَّةَ يَعْقُوْبَ عليه السلام؛ بَقِيَ ثَمَانِيْنَ سَنَةً فِي البَلَاءِ، وَرَجَاؤُهُ لا يَتَغَيَّرُ، فَلَمَّا ضُمَّ إِلَىٰ فَقْدِ يُوْسُفَ فَقْدُ **بن يامينَ**؛ لَمْ يَتَغَيَّرْ أَمَلُهُ، وَقَالَ: ﴿عَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا﴾ [يوسف: ٨٣]؟.

١٤٢٦ ـ وَقَدْ كَشَفَ هٰذَا المَعْنَىٰ قَوْلُه تَعَالَىٰ: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُم ۖ مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلْزِلُوا۟ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ ۗ أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ﴾ [البقرة: ٢١٤].

وَمَعْلُوْمٌ أَنَّ هٰذَا لا يَصْدُرُ مِنَ الرَّسُوْلِ ﷺ والمُؤْمِنِيْنَ إِلَّا بَعْدَ طُوْلِ البَلَاءِ، وَقُرْبِ اليَأْسِ مِنَ الفَرَجِ. وَمِنْ هٰذَا قَوْلُ رَسُوْلِ اللهِ ﷺ: «**لا يَزَالُ العَبْدُ بِخَيْرٍ مَا لَمْ يَسْتَعْجِلْ**». قِيْلَ لَهُ: وَمَا يَسْتَعْجِلُ؟ قَالَ: «**يَقُوْلُ: دَعَوْتُ فَلَمْ يُسْتَجَبْ لِي**».

فَإِيَّاكَ إِيَّاكَ أَنْ تَسْتَطِيْلَ زَمَانَ البَلَاءِ، وَتَضْجَرَ مِنْ كَثْرَةِ الدُّعَاءِ؛ فَإِنَّكَ مُبْتَلًى بِالبَلَاءِ، **مُتَعَبَّدٌ بِالصَّبْرِ وَالدُّعَاءِ**، وَلا تَيْأَسْ مِنْ رَوْحِ اللهِ؛ وَإِنْ طَالَ البَلَاءُ.

٣٢٨ - فصل: لذات الدنيا في ضمنها أكدار

١٤٢٧ ـ **تَفَكَّرْتُ** فِي سَبَبِ دُخُوْلِ جَهَنَّمَ؛ فَإِذَا هُوَ المَعَاصِي، **فَنَظَرْتُ** فِي المَعَاصِي؛ فَإِذَا هَيَ حَاصِلَةٌ مِنْ طَلَبِ اللَّذَّاتِ، **فَنَظَرْتُ** فِي اللَّذَّاتِ، فَرَأَيْتُهَا خِدَعًا لَيْسَتْ بِشَيْءٍ، وَفِي ضِمْنِهَا مِنَ الأَكْدَارِ مَا يُصَيِّرُها نَغَصًا، فَتَخْرُجُ عَنْ كَوْنِهَا لَذَّاتٍ. فَكَيْفَ يَتْبَعُ العَاقِلُ نَفْسَهُ، وَيَرْضَىٰ بِجَهَنَّمَ، لِأَجْلِ هٰذِهِ الأَكْدَارِ؟!

١٤٢٨ ـ فَمِنَ اللَّذَّاتِ **الزِّنا**؛ فَإِنْ كَانَ المُرَادُ إِرَاقَةَ المَاءِ؛ فَقَدْ يُرَاقُ فِي حَلَالٍ، وَإِنْ كَانَ فِي مَعْشُوْقٍ؛ فَمُرَادُ النَّفْسِ دَوَامُ البَقَاءِ مَعَ المَعْشُوْقِ؛ فَإِذَا هِيَ مَلَكَتْهُ؛ فَالمَمْلُوْكُ مَمْلُوْلٌ، وَإِنْ هُوَ قَارَبَهُ سَاعَةً ثُمَّ فَارَقَهُ؛ فَحَسْرَةُ الفِرَاقِ تَرْبُوْ عَلَىٰ لَذَّةِ

القُرْبِ، وَإِنْ كَانَ وُلِدَ لَهُ مِنَ الزِّنا؛ فَالفَضِيْحَةُ الدَّائِمَةُ، والعُقُوْبَةُ التَّامَّةُ، وتَنْكِيْسُ الرَّأْسِ عِنْدَ الخَالِقِ وَالمَخْلُوْقِ.

وَأَمَّا **الجَاهِلُ**؛ فَيَرَىٰ لَذَّتَهُ فِي بُلُوْغِ ذٰلِكَ الغَرَضِ، وَيَنْسَىٰ مَا يَجْنِي مِمَّا يُكَدِّرُ عَيْشَ الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ.

١٤٢٩ - وَمِنْ ذٰلِكَ **شُرْبُ الخَمْرِ**؛ فَإِنَّهُ تَنْجِيْسٌ لِلْفَمِ وَالثَّوْبِ، وَإِبْعَادٌ لِلْعَقْلِ، وَتَأْثِيْرَاتُهُ مَعْلُوْمَةٌ عِنْدَ الخَالِقِ والمَخْلُوْقِ؛ فَالعَجَبُ مِمَّنْ يُؤْثِرُ لَذَّةَ سَاعَةٍ تَجْني عِقَابًا، وذَهابَ جَاهٍ! وَرُبَّما خَرَجَ بِالعَرْبَدَةِ إِلىٰ القَتْلِ!!

١٤٣٠ - وَعَلَىٰ هٰذَا فَقِسْ جَمِيْعَ المَذُوْقَاتِ؛ فَإِنَّ لَذَّاتِهَا إِذَا وُزِنَتْ بِمِيْزَانِ العَقْلِ لا تَفِي بِمِعْشَارِ عُشَيْرِ عَوَاقِبِهَا القِبَاحِ في الدُّنْيا والآخِرَةِ، ثُمَّ هِيَ نَفْسُهَا لَيْسَتْ بِكَثِيْرِ شَيْءٍ فَكَيْفَ تُبَاعُ الآخِرَةُ بِمِثْلِ هٰذَا؟!

١٤٣١ - سُبْحَانَ **مَنْ أَنْعَمَ عَلىٰ أَقْوَامٍ**، كُلَّمَا لاحَتْ لَهُم لَذَّةٌ؛ نَصَبُوْا مِيْزَانَ العَقْلِ، وَنَظَرُوْا فِيْمَا يَجْني، وَتَلَمَّحُوْا مَا يُؤْثِرُ تَرْكَها، فَرَجَّحُوْا الأَصْلَحَ. **وَطَمَسَ عَلَىٰ قُلُوْبٍ**؛ فَهِيَ تَرَىٰ صُوْرَةَ الشَّيْءِ، وَتَنْسَىٰ جِنَاياتِهِ.

١٤٣٢ - ثُمَّ العَجَبُ أَنَّا نَرَىٰ مَنْ يَبْعُدُ عَنْ زَوْجَتِهِ، وَهُوَ شَابٌّ، لِيَغْدُوَ فِي الطَّرِيْقِ، فَيُقَالَ: سَاعٍ! فَيَغْلِبُ هَوَاهُ لِطَلَبِ مَا هُوَ أَعْلَىٰ، وَهُوَ **المَدْحُ**؛ كَيْفَ لا يَتْرُكُ مُحَرَّمًا لِيُمْدَحَ في الدُّنيا والأُخْرَىٰ؟!

١٤٣٣ - ثُمَّ قَدِّر حُصُوْلَ مَا طَلَبْتَ مِنَ اللَّذَّاتِ وذَهَابُهَا، وَٱحْسِبْ أَنَّها قَدْ كَانَتْ، وَقَدْ هَانَتْ، وَتَخَلَّصْتَ مِنْ مِحَنِهَا.

أَيْنَ أَنْتَ مِنْ غَيْرِكَ؟! أَيْنَ تَعَبُ عَالِمٍ قَدْ دَرَسَ العِلْمَ خَمْسِيْنَ سَنَةً؟! ذَهَبَ التَّعَبُ، وَحَصَلَ العِلْمُ، وَأَيْنَ لَذَّةُ البَطَّالِ[1]؟! ذَهَبَتِ الرَّاحَةُ، وَأَعْقَبَتِ النَّدَمَ.

٣٢٩ - فصل: من تبع العقل سَلِمَ

١٤٣٤ - مَنْ وَقَفَ عَلىٰ مُوْجِبِ الحِسِّ هَلَكَ، وَمَنْ تَبِعَ العَقْلَ سَلِمَ. لِأَنَّ مُجَرَّدَ

(١) **البطال**: من يتبع طريق اللهو والجهالة، ويشتغل بما لا ينفعه.

الحِسّ لا يَرَىٰ إِلَّا الحَاضِرَ، وَهُوَ الدُّنيا. وَأَمَّا **العَقْلُ**؛ فَإِنَّهُ يَنْظُرُ إِلَى المَخْلُوْقَاتِ، فَيَعْلَمُ وُجُوْدَ خَالِقٍ قَدْ مَنَعَ وَأَبَاحَ، وَأَطْلَقَ وحَظَرَ، وَأَخْبَرَ أَنِّي سَائِلُكُم وَمُبْتَلِيْكُم؛ لِيَظْهَرَ دَلِيْلُ وُجُوْدِي عِنْدَكُمْ، بِتَرْكِ مَا تَشْتَهُوْنَ، طَاعةً لِي، وَأَنِّي قَدْ بَنَيْتُ لَكُمْ دَارًا غَيْرَ هٰذِهِ؛ لإِثَابَةِ مَنْ يُطِيْعُ، وَعُقُوْبَةِ مَنْ يُخَالِفُ.

١٤٣٥ ـ ثُمَّ لَوْ تُرِكَ **الحِسُّ** وَمَا يَشْتَهِي مَعَ أَغْرَاضِهِ؛ قَرُبَ الأَمْرُ! إِنَّمَا يَزْنِي فيُجْلَدُ، وَيَشْرَبُ الخَمْرَ فَيُعَاقَبُ، وَيَسْرِقُ فيُقْطَعُ، وَيَفْعَلُ زَلَّةً، فيُفْضَحُ بَيْنَ الخَلْقِ، ويُعْرِضُ عَنِ العِلْمِ إِلىٰ البَطَالَةِ فَيَقَعُ النَّدَمُ عِنْدَ حُصُوْلِ الجَهْلِ.

١٤٣٦ ـ ثُمَّ إِنَّا نَرَىٰ الكَثِيْرَ مِمَّنْ عَمِلَ بِمُقْتَضَىٰ عَقْلِهِ قَدْ سَلِمَتْ دُنْيَاهُ وَآخِرَتُهُ، وَمَيَّزَ بَيْنَ الخَلْقِ بِالتَّعْظِيْمِ، وَكَانَ عَيْشُه فِي لَذَّاتِهِ غَالِبًا خَيْرًا مِنْ عَيْشٍ مُوَافِقٍ لِلْهَوَىٰ. فَلْيَعْتَبِرْ ذُوْ الفَهْمِ بِمَا قُلْتُ، وَلْيَعْمَلْ بِمُقْتَضَىٰ الدَّلِيْلِ، وَقَدْ سَلِمَ.

٣٣٠ - فصل: العجب لمؤثر شهوات الدنيا

١٤٣٧ ـ العَجَبُ لِمُؤْثِرِ شَهَواتِ الدُّنْيَا! أَلَا يَتَدَبَّرُ أَمْرَهَا بِالعَقْلِ، قَبْلَ أَنْ يَصِيْرَ إِلىٰ مَنْقُوْلَاتِ الشَّرْعِ؟! إِنَّ أَعْظَمَ لَذَّاتِ الحِسِّ الوَطْءُ؛ فَالمَرْأَةُ المُسْتَحْسَنَةُ إِنَّمَا يَكُوْنُ حَالُ كَمَالِهَا مِنْ وَقْتِ بُلُوْغِهَا إِلى الثَّلَاثِيْنَ؛ فَإِذَا بَلَغَتْها؛ أَثَّرَ فِيْهَا، وَرُبَّمَا ٱبْيَضَّتْ شَعَراتٌ مِنْ رَأْسِهَا، فَيَنْفِرُ الإِنْسَانُ مِنْهَا، وَقَدْ يَقَعُ المَلَلُ قَبْلَ ذٰلِكَ، وَطُوْلُ الصُّحْبَةِ يَكْشِفُ العُيُوْبَ. وَمَا عِيبَ نَسَاءُ الدُّنْيا بِأَبْلَغَ مِنْ قَوْلِهِ: ﴿وَلَهُمْ فِيهَآ أَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ﴾ [البقرة: ٢٥]؛ فَلَوْ تَفَكَّرَ الإِنْسَانُ فِي جَسَدٍ مَمْلُوْءٍ بِالنَّجَاسَةِ؛ مَا طَابَ لَهُ ضَمُّهُ؛ غَيْرَ أَنَّ الشَّهْوَةَ تُغَطِّي عَيْنَ الفِكْرِ.

١٤٣٨ ـ فَالعَاقِلُ مَنْ حَفِظَ دِيْنَهُ وَمُرُوْءَتَهُ بِتَرْكِ الحَرَامِ، وَحَفِظَ قُوَّتَهُ فِي الحَلَالِ، فَأَنْفَقَهَا فِي طَلَبِ الفَضَائِلِ مِنْ عِلْمٍ أَوْ عَمَلٍ، وَلَمْ يَسْعَ فِي إِفْنَاءِ عُمُرِهِ، وَتَشْتِيْتِ قَلْبِهِ فِي شَيْءٍ لا تَحْسُنُ عَاقِبَتُهُ.

مَا فِيْ هَوادِجِكُمْ مِنْ مُهْجَتِي عِوَضٌ ... إِنْ مِتُّ شَوْقًا وَلا فِيْهَا لَهَا ثَمَنُ

١٤٣٩ ـ وَعُمُوْمُ مَنْ **رَأَيْنَا مِنَ الكِبَارِ** غَلَبَتْ عَلَيْهِم شَهْوَةُ الوَطْءِ، فَانْهَدَمَتْ

أَعْمَارُهُمْ، ورَحَلُوْا سَرِيْعًا. وَقَدْ **رَأَيْنا مِنَ العُقَلاءِ** مَنْ زَجَرَ نَفْسَه عَنْ هٰذِهِ المِحْنَةِ، وَلَمْ يَسْتَعْمِلْها إلّا وَقْتَ الحَاجَةِ، فَبَقِيَ لَهُمْ سَوَادُ شُعُوْرِهِم وَقُوَّتُهُم، حَتَّىٰ تَمَتَّعُوا بِهَا فِي الحَيَاةِ، وَحَصَّلُوْا المَنَاقِبَ، وَعَرَفَتْ مِنْهُمُ النُّفُوْسُ قُوَّةَ العَزِيْمَةِ، فَلَمْ تُطَالِبْهُم بِمَا يُؤْذِي.

٣٣١ - فصل: رؤية النبي ﷺ في المنام

١٤٤٠ ـ قَدْ أَشْكَلَ عَلَىٰ بَعْضِ النَّاسِ رُؤْيَةُ النَّبِيِّ ﷺ وَقَوْلُهُ: «**مَنْ رَآنِي فِي المَنَامِ؛ فَقَدْ رَآنِي**»[1]، **فَقَالَ**: ظَاهِرُ الحَدِيْثِ أَنَّهُ يَرَاهُ حَقِيْقَةً! وَفِي النَّاسِ مَنْ يَرَاهُ شَيْخًا وَشَابًّا وَمَرِيْضًا وَمُعَافًى! **فَالجَوَابُ**: أَنَّه مَنْ ظَنَّ أَنَّ جَسَدَ رَسُوْلِ اللهِ ﷺ المُوْدَعَ فِي المَدِيْنَةِ خَرَجَ مِنَ القَبْرِ، وحَضَرَ فِي المكَانِ الّذِي رَآهُ فِيْهِ؛ فَهٰذَا جَهْلٌ لا جَهْلَ يُشْبِهُهُ؛ فَقَدْ يَرَاهُ فِي وَقْتٍ وَاحِدٍ أَلْفُ شَخْصٍ، فِي أَلْفِ مَكَانٍ، عَلَى صُوَرٍ مَخْتَلِفةٍ؛ فَكَيْفَ يُتَصَوَّرُ هٰذَا فِي شَخْصٍ وَاحِدٍ؟! وَإِنَمَا الّذِي يُرَىٰ مِثَالُه لا شَخْصُهُ. فَيَبْقَى «**مَنْ رَآنِي.. فَقَدْ رآني**»؛ مَعْنَاهُ: قَدْ رَأَىٰ مِثَالِيَ، الّذِي يُعَرِّفُهُ الصَّوَابَ، وَتَحْصُلُ بِهِ الفائِدَةُ المَطْلُوْبَةُ[2].

١٤٤١ ـ **فَإِنْ قِيْلَ**: فَمَا تَقُوْلُوْنَ فِي رُؤْيَةِ الحَقِّ سُبْحَانَهُ؟! **فَنَقُوْلُ**: يُرَىٰ مِثَالًا لَا مِثْلًا، وَالمِثَالُ لا يَفْتَقِرُ إِلىٰ المُسَاوَاةِ وَالمُشَابَهَةِ؛ كَمَا قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌۢ بِقَدَرِهَا﴾ [الرعد: ١٧]، فَضَرَبَهُ مِثَالًا لِلْقُرْآنِ وَٱنْتِفَاعِ الخَلْقِ بِهِ.

وَيُوَضِّحُ هٰذَا أَنَّهُ إِنَّما يَرَىٰ مَنْ رَأَىٰ الحَقَّ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَلَىٰ هَيْئَةٍ مَخْصُوْصَةٍ، وَالحَقُّ سُبْحَانَه وَتَعَالَىٰ مُنَزَّهٌ، قَدْ تَوَحَّدَ، فَوَضَحَ ما قُلْنا.

٣٣٢ - فصل عزيزُ الفائدةِ: العلم كثير والعمر قصير

١٤٤٢ ـ اعْلَمْ أَنَّهُ لَو اتَّسَعَ العُمُرُ؛ لَمْ أَمْنَعْ مِنَ الإِيْغَالِ فِي كُلِّ عِلْمٍ إِلىٰ مُنْتَهَاهُ؛

---

(١) رواه البخاري (٦٩٩٣)، ومسلم (٢٢٦٦) عن أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) قال ابن جُزي في (القوانين الفقهية) ص(٣٧٩): لا تصح رؤيا النبي ﷺ قطعًا إلا لصحابي رآه حافظًا صفته حتى يكون المثال الذي رآه في المنام مطابقًا لخلقته ﷺ. انظر: العقل والفقه في فهم الحديث للأستاذ مصطفى الزرقا ص(١٧ ـ ٣٤) ط. دار القلم.

غَيْرَ أَنَّ العُمُرَ قَصِيْرٌ، وَالعِلْمَ كَثِيْرٌ: فَيَنْبَغِي لِلإِنْسَانِ أَنْ يَقْتَصِرَ مِنَ **القِرَاءَاتِ** إِذَا حَفِظَ القُرْآنَ عَلَىٰ العَشْرِ. وَمِنَ **الحَدِيْثِ** عَلَىٰ الصِّحَاحِ وَالسُّنَنِ وَالمَسَانِيْدِ المُصَنَّفَةِ؛ فَإِنَّ عُلُوْمَ الحَدِيْثِ قَدِ انْبَسَطَتْ زَائِدَةً فِي الحَدِّ، [وَالمُتُوْنُ مَحْصُوْرَةٌ][1]، وَإِنَّمَا الطُّرُقُ تَخْتَلِفُ.

وَعِلْمُ الحَدِيْثِ يَتَعَلَّقُ بَعْضُه بِبَعْضٍ، وَهُوَ مُشْتَهًى، وَالفُقَهَاءُ يُسَمُّونَه عِلْمَ الكُسَالَىٰ؛ لِأَنَّهُم يَتَشَاغَلُوْنَ بِكِتَابَتِهِ وَسَمَاعِهِ، وَلا يَكَادُوْنَ يُعَانُوْنَ حِفْظَهُ، وَيَفُوْتُهُم المُهِمُّ، وَهُوَ الفِقْهُ.

وَقَدْ كَانَ المُحَدِّثُوْنَ قَدِيْمًا هُمُ الفُقَهَاء، ثُمَّ صَارَ الفُقَهَاءُ لا يَعْرِفُوْنَ الحَدِيْثَ، وَالمُحَدِّثونَ لا يَعْرِفُونَ الفِقْهَ!! فَمَنْ كَانَ ذَا هِمَّةٍ، وَنَصَحَ نَفْسَه؛ تَشَاغَلَ بِالمُهِمِّ مِنْ كُلِّ عِلْمٍ، وَجَعَلَ جُلَّ شُغْلِهِ الفِقْهَ، فَهُوَ أَعْظَمُ العُلُوْمِ، وَأَهَمُّهَا.

١٤٤٣ -وَقَدْ قَالَ **أَبُوْ زُرْعَةَ**[2]: كَتَبَ إِلَيَّ **أَبُوْ ثَوْرٍ**[3]: فَإِنَّ هٰذَا الحَدِيْثَ قَدْ رَوَاهُ ثَمَانِيَةٌ وَتِسْعُوْنَ رَجُلًا عَنْ **رَسُوْلِ اللهِ** ﷺ، وَالَّذِي صَحَّ مِنْهُ طُرُقٌ يَسِيْرَةٌ. فَالتَشَاغُلُ بِغَيْرِ مَا صَحَّ يَمْنَعُ التَّشَاغُلَ بِمَا هُوَ أَهَمُّ.

وَلَوِ اتَّسَعَ العُمُرُ؛ كَانَ اسْتِيْفَاءُ كُلِّ الطُّرُقِ فِي كُلِّ الأَحَادِيْثِ غَايَةً فِي الجَوْدَةِ، وَلٰكِنَّ العُمُرَ قَصِيْرٌ.

١٤٤٤ -وَلَمَّا تَشَاغَلَ بِالطُّرُقِ مِثْلُ **يَحْيَىٰ بْنِ مَعِيْنٍ**[4]؛ فَاتَهُ مِنَ الفِقْهِ كَثِيْرٌ، حَتَّى إِنَّه سُئِلَ عَنِ الحَائِضِ: أَيَجُوْزُ أَنْ تَغْسِلَ المَوْتَىٰ؟ فَلَمْ يَعْلَمْ، حَتَّىٰ جَاءَ أبو ثَوْرٍ، فَقَالَ: يَجُوْزُ؛ لِأَنَّ عَائِشَةَ رضي الله عنها قَالَتْ: **كُنْتُ أُرَجِّلُ رَأْسَ رَسُوْلِ اللهِ** ﷺ **وَأَنَا حَائِضٌ**[5]. فَيَحْيَىٰ أَعْلَمُ بِالحَدِيْثِ مِنْهُ، وَلٰكِنْ لَمْ يَتَشَاغَلْ بِفَهْمِهِ.

---

(١) في الأصل: وما في هذا الجزء، وما أثبت من (د).

(٢) عبيد الله بن عبد الكريم الرازي (٢٠٠ ـ ٢٦٤هـ): محدّث الري، وإمام الجرح والتعديل وسيد الحفاظ.

(٣) إبراهيم بن خالد الكلبي البغدادي (١٧٠ ـ ٢٤٠هـ): إمام حافظ فقيه مجتهد.

(٤) إمام الجرح والتعديل، الحافظ، الجهبذ، أحد الأعلام (١٥٨ ـ ٢٣٣هـ).

(٥) رواه البخاري (٢٩٥)، ومسلم (٢٩٧).

١٤٤٥ ـ فَأَنَا أَنْهَىٰ أَهْلَ الحَدِيْثِ أَنْ تَشْغَلَهُمْ كَثْرَةُ الطُّرُقِ. وَمِنْ أَقْبَحِ الأَشْيَاءِ أَنْ تَجْرِيَ حَادِثَةٌ، يُسْأَلُ عَنْهَا شَيْخٌ قَدْ كَتَبَ الحَدِيْثَ سِتِّيْنَ سَنَةً؛ فَلَا يَعْرِفُ حُكْمَ اللهِ ﷻ فِيْهَا! وَكذٰلِكَ أَنْهَى مَنْ يَتَشَاغَلُ بِالتَّزَهُّدِ والانْقِطَاعِ عَنِ النَّاسِ أَنْ يُعْرِضَ عَنِ العِلْمِ، بَلْ يَنْبَغِي أَنْ يَجْعَلَ لِنَفْسِهِ مِنْهُ حَظًّا؛ لِيَعْلَمَ إِنْ زَلَّ كَيْفَ يَتَخَلَّصُ.

٣٣٣ - فصل: العاقل العالم يسير بين رفيقين: العلم والعقل

١٤٤٦ ـ مَعْرِفَةُ اللهِ سُبْحَانَهُ لا تَحْصُلُ إِلَّا **لِكَامِلِ العَقْلِ**، صَحِيْحِ المِزَاجِ، وَالتَّرَقِّي إِلَىٰ مَحَبَّتِهِ بِذٰلِكَ يَكُوْنُ.

وَإِنَّ أَقْوَامًا **قَلَّتْ عُقُوْلُهُم**، وَفَسَدَتْ أَمْزِجَتُهُم، فَسَاءَتْ مَطَاعِمُهُم وَقَلَّتْ، فَتَخَايَلَتْ لَهُمُ الخَيَالَاتُ الفَاسِدَةُ، فَادَّعَوْا مَعْرِفَةَ الحَقِّ وَمَحَبَّتَهُ، وَلَمْ يَكُنْ عِنْدَهُم مِنَ العِلْمِ مَا يَصُدُّهُم عَمَّا ادَّعَوا، فَهَلَكُوا.

١٤٤٧ ـ وَلْيُعْلَمْ أَنَّ فِي المَأْكُولَاتِ مَا يُسَبِّبُ إِفْسَادَ العَقْلِ، وَفِيْهَا مَا يَزِيْدُ فِي السَّوْدَاءِ، فَيُوْجِبُ المَالِيْخُوْلِيَا، فَتَرَىٰ صَاحِبَها يُحِبُّ الخَلْوَةَ، وَيَهْرُبُ مِنَ النَّاسِ، وَقَد يُقَلِّلُ المَطْعَمَ، فَيَقْوَىٰ مَرَضُهُ، فَيَتَخَايَلُ خَيَالاتٍ يَظُنُّهَا حَقًّا؛ فَمِنْهُم مَنْ يَقُوْلُ: إِنِّي رَأَيْتُ المَلَائِكَةَ! وَفِيْهِم مَنْ يُخْرِجُهُ الأَمْرُ إِلَىٰ دَعْوَىٰ مَحَبَّةِ الحَقِّ، والوَلَهِ[1] فِيْهِ، وَلا يَكُوْنُ ذٰلِكَ عَنْ أَصْلٍ مُعْتَمَدٍ عَلَيْهِ.

١٤٤٨ ـ وَإِنَّمَا **العَاقِلُ العَالِمُ** يَسِيْرُ فِي الطَّرِيْقِ بَيْنَ الرَّفِيْقَيْنِ: **العِلْمُ وَالعَقْلُ**. فَإِنْ تَقَلَّلَ مِنَ الطَّعَامِ؛ فَبِعَقْلٍ، وَحَدُّ التَّقَلُّلِ: تَرْكُ فُضُوْلِ المَطْعَمِ، وَمَا يُخَافُ شَرُّهُ مِنْ شُبْهَةٍ، أَوْ شَهْوَةٍ يَحْذَرُ تَعَوُّدَها. وَأَمَّا زِيَادَةُ التَّقَلُّلِ مَعَ القُدْرَةِ؛ فَلَيْسَ لِعَقْلٍ وَلا شَرْعٍ؛ إِلَّا أَنْ يَكُوْنَ الفَقْرُ عَمَّ، فَيَتَقَلَّلُ ضَرُوْرَةً.

١٤٤٩ ـ وَمَنْ تَأَمَّلَ حَالَ رَسُوْلِ اللهِ ﷺ وَأَصْحَابِهِ؛ وَجَدَهُم يَأْخُذُوْنَ بِمِقْدَارٍ، وَلَا يَتْرُكُوْنَ حُظُوْظَ النَّفْسِ الَّتِي تُصْلِحُها. وَأَحْسَنُ الأَمْرِ وَأَعْدَلُهُ قَوْلُ **رَسُوْلِ اللهِ** ﷺ:

---

(١) **الوله**: ذهاب العقل والتحير من شدة الحب.

«**ثُلُثٌ طَعَامٌ، وثُلُثٌ شَرَابٌ، وَثُلُثٌ نَفَسٌ**». وَقَدْ قَالَ لِعَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ ﷺ، وَهُوَ مَرِيْضٌ: «**أَصِبْ مِنْ هٰذَا الطَّعَامِ؛ فَهُوَ أَوْفَقُ لَكَ مِنْ هٰذَا**».

وَكَانَ ﷺ **يُشَاوِرُ الأَطِبّاءَ، وَيَحْتَجِمُ**، وَيَحُثُّ عَلىٰ التَّدَاوِي، وَيَقُوْلُ: «**مَا أَنْزَلَ اللهُ دَاءً إِلَّا وَأَنْزَلَ لَهُ شِفَاءً؛ فَتَدَاوَوْا**».

١٤٥٠ - فَجَاءَ أَقْوَامٌ جَهِلُوْا العِلْمَ وَالْحِكْمَةَ فِي بُنْيَانِ الأَبْدَانِ؛ **فَمِنْهُم**: مَنْ أَقَامَ فِي الجِبَالِ يَأْكُلُ البَلُّوْطَ[1]، فَأَصابَهُ القُوْلَنْجُ[2]، **وَمِنْهُم**: مَنْ قَلَّلَ المَطْعَمَ، إِلىٰ أَنْ ضَعُفَتْ قُوَاهُ، **وَمِنْهُم**: مَن اقْتَصَرَ عَلىٰ نَبَاتِ الصَّحْرَاءِ، **وَمِنْهُم**: مَنْ كَانَ لا يَتَقَوَّتُ[3] إِلَّا البَاقِلَّاءَ[4] والشَّعِيْرَ: فَأَوْجَبَت هٰذِهِ الأَفْعَالُ أَمْرَاضًا فِي البَدَنِ، وَتَرَقَّتْ إِلىٰ إِفْسَادِ العَقْلِ.

وَاتَّفَقَ لَهُمْ قِلَّةُ العِلْمِ؛ إِذْ لَوْ عَلِموا لَفَهِموا أَنَّ الحِكْمَةَ تَنْهَىٰ عَنْ مِثْلِ هٰذَا؛ فَإِنَّ البَدَنَ مَبْنِيٌّ عَلَىٰ أَخْلَاطٍ، إِذَا اعْتَدَلَتْ وَافَقَتِ السَّلَامة، وَإِذا زَادَ بَعْضُهَا وَقَعَ المَرَضُ وَأَكْثَرُ هٰؤلاءِ مَرِضُوْا، وَتَعَجَّلَ لَهُمُ المَوْتُ، وَفِيْهِم مَنْ خَرَجَ إِلىٰ التَّسَوْدُنِ[5]، وَفِيْهِم مَنْ لَاحَتْ لَهُ لَوَائِحُ، فادَّعَىٰ رُؤْيَةَ المَلَائِكَةِ.. إِلَىٰ غَيْرِ ذٰلِكَ.

١٤٥١ - فَأَمَّا **أَهْلُ العِلْمِ وَالعَقْلِ**؛ فَهَرَبُهُم مِنَ الخَلْقِ لِخَوْفِ المَعَاصِي، وَرُؤْيَةِ المُنْكَرِ، وَفِيْهِم مَنْ قَوِيَتْ مَعْرِفَتُه، فَشَغَلَتْهُ مَعْرِفَةُ الحَقِّ وَمَحَبَّتُهُ عَنْ مُلَاقَاةِ الخَلْقِ.

فهٰذِهِ هِيَ الخَلَواتُ الصَّافِيَةُ؛ لِأَنَّها تَصْدُرُ عَنْ **عِلْمٍ وَعَقْلٍ**، فَتَحْفَظُ البَدَنَ؛ لِأَنَّهُ نَاقَةٌ تُوْصِلُ.

١٤٥٢ - وَلا يَنْبَغِي أَنْ يُتَهَاوَنَ بِالمَأْكُوْلاتِ، خُصُوْصًا مَنْ لَمْ يَعْتَدِ التَّقَشُّفَ، وَلَا يَلْبَسَ الصُّوْفَ عَلىٰ البَدَنِ مَنْ لَمْ يَعْتَدْهُ. **وَلْيَنْظُرْ فِي طَرِيْقِ رَسُوْلِ اللهِ ﷺ**

---

(١) **البلوط**: شجر حراجي غليظ الساق، متين الخشب، ثمرته تشبه الكستناء.

(٢) **القولنج**: المغص.

(٣) في الأصل: يقوت، وهو تصحيف.

(٤) **الباقلاء**: الفول عند أهل بغداد.

(٥) غلبت عليه السوداء، وهي اضطرابات مصحوبة بالحزن العميق والتشاؤم العام، وما زال هذا الحرف مستعملًا في بلاد الشام.

وَصَحَابَتِهِ؛ **فَإِنَّهُم القُدْوَةُ**، ولا يَلْتَفِتْ إِلىٰ بُنَيَّاتِ الطَّرِيْقِ[1]؛ فَيُقَالَ: فُلانٌ الزَّاهِدُ قَدْ أَكَلَ الطِّينَ! وَفُلَانٌ كَانَ يَمْشِي حَافِيًا! وَفُلانٌ بَقِي شَهْرًا مَا أَكَلَ! فَإِنَّ المُحَقِّقِيْنَ مِنْ هٰؤلاءِ المُخْلِصِيْنَ للهِ تَعَالَىٰ عَلَىٰ غَيْرِ الجَادَّةِ؛ **لِأَنَّ الجَادَّةَ اتِّبَاعُ رَسُوْلِ الله ﷺ وَأَصْحَابِهِ، وَمَا كَانُوْا يَفْعَلُوْنَ**.

هٰذَا؛ وَلَعَمْرِي؛ إِنَّهُ قَدْ كَانَ فِيْهِم مَنْ يَقْنَعُ بالمِذْقَةِ[2] مِنَ اللَّبْنِ، وَيَصْبِرُ الأَيَّامَ عَنِ الطَّعَامِ، وَلٰكِنْ إِمّا لِضَرُوْرَةٍ، أَوْ لِأَنَّهُ مُعْتَادٌ لذٰلِكَ؛ كَمَا يَعْتَادُ البَدَوِيُّ شُرْبَ اللَّبَنِ وَحْدَهُ، ولا يُؤْذِيْهِ ذٰلِكَ، وَفِي الحَدِيْثِ: عَوِّدُوا كُلَّ بَدَنٍ مَا اعْتَادَ[3].

١٤٥٣ -وَفِي **المُتَزَهِّدِيْنَ** مَنْ أَخرَجَ مَالَهُ كُلَّهُ عَنْ يَدِهِ زُهْدًا، وَمَعْلُوْمٌ أَنَّ الحَاجَاتِ لا تَنْقَضِي، فَلَمَّا احْتَاجَ؛ تَعَرَّضَ لِلطَّلَبِ، وَافْتَقَرَ إِلىٰ أَخْذِ مَالٍ مِنْ يدِ مَنْ يَعْلَمُ أَنَّهُ ظَالِمٌ، وَبَذْلِ وَجْهِهِ!

وَقَد كَانَتِ الصَّحَابَةُ تَتَّجِرُ وَتَحْفَظُ المَالَ، وَجُهَّالُ المُتَزَهِّدِيْنَ يَرَوْنَ جَمْعَ المَالِ يُنَافِي الزُّهْدَ!!

١٤٥٤ -**فَمَمْخَضَةُ[4] هٰذَا الفَصْلِ أَنْ أَقُوْلَ: يَنْبَغِي لِمَنْ رُزِقَ فَهْمًا أَنْ يَسْعَىٰ فِي صَلَاحِ بَدَنِهِ، وَلا يَحْمِلَ عَلَيْهِ مَا يُؤْذِيْهِ، وَلا يَنَاوِلَهُ مِنَ القُوْتِ مَا لَا يُوَافِقُهُ. وَلا يُضَيِّعَ مَالَه، وَلْيَجْتَهِدْ فِي اسْتِثْمَارِهِ لِئَلَّا يَحْتَاجَ؛ فَإِنَّهُ مَا نَافَقَ زَاهِدٌ إِلَّا لِأَجْلِ الدُّنْيا. وَلْيَنْظُرْ فِي سِيَرِ الكَامِلِيْنَ مِنَ السَّلَفِ، وَلْيَتَشَاغَلْ بِالعِلْمِ؛ فَإِنَّهُ الدَّلِيْلُ؛ فَحِيْنَئِذٍ يَحْمِلَهُ الأَمْرُ عَلَىٰ الخَلْوَةِ بِرَبِّهِ، وَالاشْتِغَالِ بِحُبِّهِ، فَيَكُوْنَ مَا ظَهَرَ مِنْهُ ثَمَرَةً نَضِيجَةً لا فَجَّةً. واللهُ المُوَفِّقُ.**

٣٣٤ - فصل: متى استقام باطنك استقامت لك الأمور

١٤٥٥ -مَا رَأَيْتُ أَظْرَفَ مِنْ لَعِبِ الدُّنيا بِالعُقُوْلِ. وَقَدْ سَمِعْنا وَرَأَيْنا جَمَاعَةً

---

(١) **بنيات الطريق**: الترهات. (٢) الجَرعة من اللبن الممزوج بالماء.

(٣) قال ابن قيم في زاد المعاد (٤/ ١٠٤): هو من كلام الحارث بن كلدة طبيب العرب، ولا يصح رفعه. يقصد المؤلف بكلمة (الحديث) المعنى اللغوي لا الاصطلاحي والدليل قوله في الفصل (٣٤٢): وقد قيل: عوِّدوا كل بدن ما اعتاد.

(٤) **الممخضة**: الخلاصة.

مِنَ الفُطَناءِ الكَامِلِي العَقْلِ، لَعِبَتْ بِهِمُ الُّدنيا، حَتَّى صَارُوا كالمَجَانِيْنِ، فَوَلُوا الوِلايَاتِ، فَخَرَجُوْا إِلىٰ القَتْلِ وَالضَّرْبِ، والحَبْسِ والشَّتْمِ، وذَهَابِ الدِّينِ، والمُبَاشَرَةِ لِلظُّلْمِ كُلِّه، لِأَجْلِ دُنيا تَذْهَبُ سَرِيْعًا، وَهِيَ فِي مُدَّةِ إقامَتِهَا مَعْجُونَةٌ بِالنَّغَصِ.

١٤٥٦ ـ فَيَا أَيُّهَا المَرْزُوْقُ عَقْلًا! لا تَبْخَسْهُ حَقَّه، وَلا تُطْفِئْ نُوْرَهُ، وَاسْمَعْ مَا نُشِيْرُ بِهِ، وَلا تَلْتَفِتْ إِلىٰ بُكَاءِ طِفْلِ الطَّبْعِ لِفَوَاتِ غَرَضِهِ؛ فَإِنَّكَ إِنْ رَحِمْتَ بُكَاءَهُ؛ لَمْ تَقْدِرْ عَلَىٰ فِطَامِهِ، وَلَمْ يُمْكِنْكَ تَأْدِيْبُهُ، فَيَبْلُغَ جَاهِلًا فَقِيْرًا:

لَا تَسْهُ عَنْ أَدَبِ الصَّغِيْـ ـرِ وَلَوْ شَكَا أَلَمَ التَّعَبْ
وَدَعِ الكَبِيْرَ لِشَأْنِهِ كَبُرَ الكَبِيْرُ عَنِ الأَدَبْ

١٤٥٧ ـ وَاعْلَمْ أَنَّ زَمَانَ الابْتِلَاءِ ضَيْفٌ، قِرَاهُ الصَّبْرُ[(١)]؛ كَمَا قَالَ أَحْمَدُ بْنُ حَنْبَل: إِنَّمَا هُوَ طَعَامٌ دُوْنَ طَعَام، وَلِبَاسٌ دُوْنَ لِباسٍ، وَإِنَّما أَيَّامٌ قَلائِلُ؛ فَلَا تَنْظُرْ إِلىٰ لَذَّةِ المُتْرَفِيْنَ، وَتَلَمَّحْ عَوَاقِبَهُم، وَلا تَضِقْ صَدْرًا بِضِيْقِ المَعَاشِ، وَعَلِّلِ[(٢)] النَّاقَةَ بالحَدْوِ تَسِرْ:

طَاوِلْ بِهَا اللَّيْلَ مَالَ النَّجْمُ أَمْ جَنَحَا وَمَاطِلِ النَّوْمَ ضَنَّ الجَفْنُ أَمْ سَمَحَا
فَإِنْ تَشَكَّتْ فَعَلِّلْهَا المَجَرَّةَ مِنْ ضَوْءِ الصَّبَاحِ، وَعِدْهَا بِالرَّوَاحِ ضُحَى

١٤٥٨ ـ وقد كانَ أُهْدِيَ إلى أحمدَ بن حَنْبلَ هديةٌ فردَّها. ثُمَّ قالَ بَعْدَ سَنَةٍ لأولادِهِ: لو كُنّا قَبِلْنَاهَا كانَتْ قَدْ ذَهَبَتْ.

١٤٥٩ ـ وَمَرَّ بِشْرٌ عَلَىٰ بِئْرٍ، فَقَالَ لَهُ صَاحِبُهُ: أَنَا عَطْشَانُ. فَقَالَ: البِئْرَ الأُخْرَى! فَمَرَّ عَلَيْهَا، **فَقَالَ لَهُ**: الأُخْرَىٰ! **ثُمَّ قَالَ**: كَذَا تُقْطَعُ الدُّنْيَا.

١٤٦٠ ـ وَدَخَلُوْا إِلىٰ **بِشْرٍ الحَافِي**، وَلَيْسَ فِي دَارِهِ حَصِيْرٌ، فَقِيْلَ لَهُ: أَلَا بِذَا تُؤْذَىٰ؟ **فَقَالَ**: هٰذَا أَمْرٌ يَنْقَضِي.

١٤٦١ ـ وَكَانَ لِدَاوُدَ الطَّائِيِّ دَارٌ يَأْوِي إِلَيْهَا، فَوَقَعَ سَقْفٌ، فَانْتَقَلَ إِلىٰ سَقْفٍ [آخر]، إِلىٰ أَنْ مَاتَ فِي الدِّهْلِيزِ. فَهٰؤلاءِ الَّذِيْنَ نَظَروا فِي عَوَاقِبِ الأُمُوْرِ.

---

(١) **القرى**: طعام الضيفان.

(٢) **علّل**: تشاغل وتلهّى.

١٤٦٢ ـ وَبَعْدَ هٰذَا؛ فَلا أُطَالِبُكَ بِهٰذِهِ الرُّتْبَةِ، بَلْ أَقُوْلُ لَكَ: إِنْ حَصَلَ لَكَ شَيْءٌ مِنَ المُبَاحِ، لا مَنٌّ فِيْهِ ولا أَذًى، وَلا نِلْتَهُ بِسُؤَالٍ، وَلا مِنْ يَدِ ظَالِمٍ، تَعْلَمُ أَنَّ مَالَهُ حَرَامٌ، أَوْ فِيْهِ شُبْهَةٌ؛ فَٱفْسَحْ لِنَفْسِكَ فِي مُبَاحَاتِهَا بِمِقْدَارِ مَا تَحْتَاجُ إِلَيْهِ، وَكُنْ مُقَدِّرًا لِلنَّفَقَةِ غَيْرَ مُبَذِّرٍ؛ فَإِنَّ الحَلَالَ لا يَحْتَمِلُ السَّرَفَ، وَمَتَىٰ أَسْرَفْتَ؛ احْتَجْتَ إِلَىٰ التَّعَرُّضِ لِلْخَلقِ، وَالتَّنَاوُلِ مِنَ الأَكْدَارِ.

١٤٦٣ ـ وَإِنْ ضَاقَ بِكَ أَمْرٌ؛ فَاصبِرْ؛ فَإِنْ ضَعُفَ الصَّبْرُ؛ فَسَلْ فَاتِحَ الأَبْوَابِ؛ فَهُوَ الكَرِيْمُ، وَعِنْدَهُ مفاتِحُ الغَيْبِ، وَإِيَّاكَ أَنْ تَبْذُلَ دِيْنَكَ بِتَصَنُّعٍ لِلْخَلْقِ، أَوْ بِتَقَرُّبٍ إِلَىٰ الأُمَرَاءِ، وَتَسْتَعْطِي أَمْوَالَهُمْ، وَٱذْكُرْ طَرِيْقَ السَّلَفِ.

١٤٦٤ ـ كانَ ابنُ سَمْعُوْنَ[1] لَهُ ثِيَابٌ يَجْلِسُ فِيْهَا لِلنَّاسِ، ثُمْ يَطْوِيْهَا إِلَىٰ المَجْلِسِ الآخَرِ، وَرِثَهَا عَنْ أَبِيْهِ، وَبَقِيْت أَرْبَعِيْنَ سَنَةً.

١٤٦٥ ـ وَكَانَتْ مَيْمُوْنَةُ بِنْتُ شَاقُوْلَةَ[2] تَعِظُ النَّاسَ، وَلَهَا ثِيَابٌ قَدْ بَقِيَتْ أَرْبَعِيْنَ سَنَةً.

١٤٦٦ ـ وَمَنْ صَفَا نَظَرُهُ، وَتَهَذَّبَ لَفْظُهُ؛ نَفَعَ وَعْظُهُ، وَمَنْ كَدَّرَ؛ كُدِّرَ عَلَيْهِ. وَالحَالَةُ العَالِيَةُ فِيْ هٰذَا: إِقْبَالُ القَلْبِ عَلَىٰ اللهِ ﷻ، وَالتَّوَكُّلُ عَلَيْهِ، وَالنَّظَرُ إِلَيْهِ، وَالْتِفَاتُ القَلْبِ عَنِ الخَلْقِ؛ فَإِنِ احْتَجْتَ؛ فَٱسْأَلْهُ، وَإِنْ ضَعُفْتَ؛ فَٱرْغَبْ إِلَيْهِ. وَمَتَىٰ سَاكَنْتَ الأَسْبَابَ؛ انْقَطَعْتَ عَنْهُ، وَمَتَىٰ اسْتَقَامَ بَاطِنُكَ؛ اسْتَقَامَتْ لَكَ الأُمُوْرُ.

٣٣٥ - فصل: المحق لا يطلب إلا الأرفع

١٤٦٧ ـ رَأَيْتُ نَفْسِي تَأْنَسُ بِخُلَطَاءَ نُسَمِّيْهِم أَصْدِقَاءَ، فَبَحَثْتُ بِالتَّجَارِبِ عَنْهُمْ؛ فَإِذَا أَكْثَرُهُمْ حُسَّادٌ عَلَىٰ النِّعَمِ، وَأَعْدَاءٌ؛ لا يَسْتُرُوْنَ زَلَّةً، وَلَا يَعْرِفُوْنَ لِجَلِيْسٍ حَقًّا، وَلا يُوَاسُوْنَ مِنْ مَالِهِم صَدِيْقًا. فَتَأَمَّلتُ الأَمْرَ؛ فَإِذَا الحَقُّ سُبْحَانَه يَغَارُ عَلَىٰ قَلْبِ المُؤْمِنِ أَنْ يَجْعَلَ لَهُ شَيْئًا يَأْنَسُ بِهِ؛ فَهُوَ يُكَدِّرُ عَلَيْهِ الدُّنْيَا وَأَهْلَهَا؛ لِيَكُوْنُ أُنسُهُ بِهِ.

---

(١) في حاشية الأصل: وفي نسخة ابن مسعود وهو تصحيف.

(٢) عابدة زاهدة، وواعظة بليغة، توفيت سنة (٣٩٣هـ).

١٤٦٨ ـ فَيَنْبَغِي أَنْ يَعُدَّ الخَلْقَ كُلَّهُم مَعَارِفَ، لَيْسَ فِيهِم صَدِيْقٌ، بَلْ تَحَسَبُهُم أَعْدَاءً، وَلا تُظْهِرُ سِرَّكَ لِمَخْلُوقٍ مِنْهُم، وَلا تُعِدَّنَّ مَنْ يَصْلُحُ لِشِدّةٍ لا وَلَدًا وَلَا أَخًا وَلَا صَدِيْقًا، بَلْ عَامِلْهُم بِالظَّاهِرِ، وَلا تُخَالِطْهُم إِلَّا حَالَةَ الضَّرُوْرَةِ بِالتَّوَقِّي لَحْظَةً، ثُمْ انْفِرْ عَنْهُم.

وَأَقْبِلْ عَلَى شَأْنِكَ؛ مُتَوَكِّلًا عَلَىٰ خَالِقِكَ؛ فَإِنَّهُ لا يَجْلِبُ الخَيْرَ سِوَاهُ، وَلَا يَصْرِفُ السُّوْءَ إِلّا إِيَّاهُ. فَلْيَكُنْ جَلِيْسَكَ وَأَنِيْسَكَ، وَمَوْضِعَ تَوَكُّلِكَ وَشَكْوَاكَ؛ فَإِنْ ضَعُفَ بَصَرُكَ؛ فَاسْتَغِثْ بِهِ، وَإِنْ قَلَّ يَقِيْنُكَ؛ فَسَلْهُ القُوَّةَ، وَإِيَّاكَ أَنْ تَمِيْلَ إِلَىٰ غَيْرِهِ؛ فَإِنَّهُ غَيُوْرٌ، وَأَنْ تَشْكُوَ مِنْ أَقْدَارِهِ، فَرُبَّمَا غَضِبَ وَلَمْ يُمْهِلْ[1].

١٤٦٩ ـ أَوْحَىٰ اللهُ ﷻ إِلَى **يُوْسُفَ** عليه السلام: مَنْ خَلَّصَكَ مِنَ الجُبِّ؟ مَنْ فَعَلَ؟ مَنْ فَعَلَ؟ **قَالَ**: أَنْتَ. **قَالَ**: فَلِمَ ذَكَرْتَ غَيْرِي؟ فَلَأُطِيْلَنَّ حَبْسَكَ! أَوْ كَمَا قَالَ.

هٰذَا، وَإِنَّما تَعَرَّضَ يُوْسُفُ عليه السلام بِسَبَبٍ مُبَاحٍ: ﴿اذْكُرْنِي عِندَ رَبِّكَ﴾ [يوسف: ٤٢]. ﴿وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ﴾ [التوبة: ٢٥].

١٤٧٠ ـ وَمَا أَعْرِفُ العَيْشَ إِلَّا لِمَنْ يَعْرِفُه [جَلَّ شَأْنُهُ]، وَيَعِيْشُ مَعَهُ، وَيَتَأَدَّبُ بَيْنَ يَدَيْهِ فِي حَرَكَاتِهِ وَكَلِمَاتِهِ، كَأَنَّهُ يَرَاهُ، وَيَقِفُ عَلَىٰ بَابِ طَرْفِهِ حَارِسًا مِنْ نَظْرَةٍ لا تَصْلُحُ، وعَلَى بَابِ لِسَانِهِ حَافِظًا لَهُ مِنْ كَلِمَةٍ لا تَحْسُنُ، وَعَلىٰ بَابِ قَلْبِهِ حِمَايةً لِمَسْكَنِهِ مِنْ دُخُوْلِ الأَغْيَارِ، وَيَسْتَوْحِشُ مِنَ الخَلْقِ شُغْلًا بِه. وهٰذَا يَكُوْنُ عَلَىٰ سِيْرَةِ الرُّوْحَانِيِّينَ. فَأَمَّا المُخَلِّطُ؛ فَالكَدَرُ غَالِبٌ عَلَيْهِ. وَالمُحِقُّ لا يَطْلُبُ إِلَّا الأَرْفَعَ. قال القائلُ:

أَلَا لَا أُحِبُّ السَّيْرَ إِلَّا مُصَاعِدًا ... وَلا البَرْقَ إِلَّا أَنْ يَكُوْنَ يَمَانِيا

٣٣٦ - فصل: الاشتغال بصورة العلم دون حقيقته ومقصوده

١٤٧١ ـ رَأَيْتُ أَكْثَرَ العُلَمَاءِ مَشْتَغِلِيْنَ بِصُوْرَةِ العِلْمِ دُوْنَ فَهْمِ حَقِيْقَتِهِ وَمَقْصُوْدِهِ: **فَالقَارِئُ** مَشْغُوْلٌ بِالرِّوَايَاتِ، عَاكِفٌ عَلَىٰ الشَّوَاذِّ، يُرَىٰ أَنَّ المَقْصُوْدَ نَفْسُ

(١) في الأصل: يحتمل، وهو تصحيف.

التِّلَاوَةِ، وَلا يَتَلَمَّحُ عَظَمَةَ المُتَكَلِّمِ، وَلا زَجْرَ القُرْآنِ وَوَعْدَه، وَرُبَّمَا ظَنَّ أَنَ حِفْظَ القُرْآنِ يَدْفَعُ عَنْهُ؛ فَتَرَاهُ يَتَرَخَّصُ فِي الذُّنُوْبِ، وَلَوْ فَهِمَ؛ لَعَلِمَ أَنَّ الحُجَّةَ عَلَيْهِ أَقْوَىٰ مِمَّنْ لَمْ يَقْرَأْ!

وَالمُحَدِّثُ يَجْمَعُ الطُّرُقَ، وَيَحْفَظُ الأَسَانِيْدَ، وَلا يَتَأَمَّلُ مَقْصُوْدَ المَنْقُوْلِ، وَيَرَىٰ أَنَّهُ قَدْ حَفِظَ عَلَىٰ النَّاسِ الأَحَادِيْثَ؛ فَهُوَ يَرْجُوْ بِذٰلِكَ السَّلَامَةَ، وَرُبَّمَا تَرَخَّصَ فِي الخَطَايَا؛ ظَنًّا مِنْهُ أَنَّ مَا فَعَلَ فِي الشَّرِيْعَةِ يَدْفَعُ عِنْهُ!

وَالفَقِيْهُ قَدْ وَقَعَ لَهُ أَنَّهُ بِمَا قَدْ عَرَفَ مِنَ الجِدَالِ، الَّذِي يُقَوِّي بِهِ خِصَامَهُ، أَوِ المَسَائِلِ الَّتي قَدْ عَرَفَ فِيْهَا المَذْهَبَ: **قَدْ حَصَّلَ** بِمَا يُفْتِي بِهِ النَّاسَ مَا يَرْفَعُ قَدْرَهُ، وَيَمْحُوْ ذَنْبَهُ؛ فَرُبَّمَا هَجَمَ عَلَىٰ الخَطَايَا؛ ظَنًّا مِنْهُ أَنَّ ذٰلِكَ يَدْفَعُ عَنْهُ! **وَرُبَّمَا لَمْ يَحْفَظِ القُرْآنَ، وَلَمْ يَعْرِفِ الحَدِيْثَ**، وَأَنَّهُمَا يَنْهَيَانِ عَنِ الفَوَاحِشِ بِزَجْرٍ وَرِفْقٍ، وَيَنضَافُ إِلَيْهِ مَعَ الجَهْلِ بِهِمَا حُبُّ الرِّئَاسَةِ، وَإِيثَارُ الغَلَبَةِ فِي الجَدَلِ، فَتَزِيْدُ قَسْوَةُ قَلْبِهِ!

وَعَلَىٰ هٰذَا أَكْثَرُ النَّاسِ؛ صُوَرُ العِلْمِ عِنْدَهُمْ صِنَاعَةٌ، فَهِيَ تُكْسِبُهُم الكِبْرَ والحَمَاقَةَ.

١٤٧٢ ـ وَقَدْ حَكَىٰ بَعْضُ المُعْتَبِرِيْنَ، عَنْ شَيْخٍ أَفْنَىٰ عُمُرَهُ فِي عُلُوْمٍ كَثِيْرَةٍ، أَنَّهُ فُتِنَ فِي آخِرِ عُمُرِهِ بِفِسْقٍ أَصَرَّ عَلَيْهِ، وَبَارَزَ اللهَ بِهِ، وَكَانَتْ حَالُهُ تُعْطِي بِمَضْمُوْنِهَا: أَنَّ عِلْمِي يَدْفَعُ عَنِّي شرَّ مَا أَنَا فِيْهِ، وَلَا يَبْقَىٰ لَهُ أَثَرٌ! وَكَانَ كَأَنَّهُ قَدْ قَطَعَ لِنَفْسِهِ بِالنَّجَاةِ؛ فَلَا يُرَىٰ عِنْدَهُ أَثَرٌ لِخَوْفٍ، وَلا نَدَمٌ عَلَىٰ ذَنْبٍ!! قَالَ: فَتَغَيَّرَ فِي آخِرِ عُمُرِهِ، وَلَازَمَهُ الفَقْرُ، فَكَانَ يَلْقَىٰ الشَّدَائِدَ، وَلا يَنْتَهِي عَنْ قُبْحِ حَالِهِ، إِلَىٰ أَنْ جُمِعَتْ لَهُ يَوْمًا قَرَارِيْطُ [1] عَلَىٰ وَجْهِ الكُدْيَةِ [2]، فَاستحيا مِنْ ذٰلِكَ، وَقَالَ: يَا رَبِّ! إِلَىٰ هٰذَا الحَدِّ؟! **قَالَ الحَاكِي**: فَتَعَجَّبْتُ مِنْ غَفْلَتِهِ؛ كَيْفَ نَسِيَ اللهَ ﷻ، وَأَرَادَ مِنْهُ حُسْنَ التَّدْبِيْرِ لَهُ، والصِّيَانَةَ، وَسَعَةَ الرِّزْقِ؟! وَكَأَنَّهُ مَا سَمِعَ قَوْلَهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَأَلَّوِ ٱسْتَقَٰمُواْ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَٰهُم مَّآءً غَدَقًا﴾ [الجن: ١٦]، وَلَا عَلِمَ أَنَّ المَعَاصِي تَسُدُّ أَبْوَابَ الرِّزْقِ، وَأَنَّ مَنْ ضَيَّعَ أَمْرَ اللهِ ضَيَّعَهُ اللهُ؟! فَمَا رَأَيْتُ عِلْمًا مَا أَفَادَ كَعِلْمِ هٰذَا! لِأَنَّ العَالِمَ إِذَا زَلَّ انْكَسَرَ [3]، وَهٰذَا

---

(١) القيراط = ٠,٢٢٣٢ غ.

(٢) **الكدية**: الاستجداء وسؤال الناس.

(٣) **انكسر**: انذلّ.

مُصِرٌّ، لا تُؤْلِمُهُ مَعْصِيَتُهُ، وَكَأَنَّهُ يَجُوزُ لَهُ ما يَفْعَلُ، أَوْ كَأَنَّ لَهُ التَّصَرُّفَ فِي الدِّيْنِ تَحْلِيْلًا وَتَحْرِيْمًا، فَمرِضَ عَاجِلًا، وَمَاتَ عَلَىٰ أَقْبَحِ حَالٍ!!

١٤٧٣ - قَالَ الحَاكِي: وَرَأَيْتُ شَيْخًا آخَرَ، حَصَّلَ صُوَرَ عِلْمٍ فَمَا أَفَادَتْهُ؛ كَانَ أَيُّ فِسْقٍ أَمْكَنَهُ، لَمْ يَتَحَاشَ مِنْهُ، وَأَيُّ أَمْرٍ لَمْ يُعْجِبْهُ مِنَ القَدَرِ، عَارَضَه بالاعْتِرَاضِ عَلَىٰ المُقَدِّرِ وَاللَّوْمِ، فَعَاشَ أَكْدَرَ عَيْشٍ، وَعَلَىٰ أَقْبَحِ اعْتِقَادٍ، حَتَىٰ دَرَجَ[1].

١٤٧٤ - وَهٰؤلاءِ لَمْ يَفْهَمُوْا مَعْنَى العِلْمِ، وَلَيْسَ العِلْمُ صُوَرَ الأَلْفَاظِ، إِنَّمَا المَقْصُوْدُ فَهْمُ المُرَادِ مِنْهُ، وَذَاكَ يُوْرِثُ الخَشْيَةَ وَالخَوْفَ، ويُرِي المِنَّةَ لِلمُنْعِمِ بِالعِلْمِ، وَقُوَّةَ الحُجَّةِ لَهُ عَلَىٰ المُتَعَلِّمِ.

نَسْأَلُ الله ﷻ يَقَظَةً تُفْهِمُنَا المَقْصُوْدَ، وَتُعَرِّفُنا المَعْبُوْدَ. وَنَعُوْذُ بِاللهِ مِنْ سَبِيْلِ رَعَاعٍ يَتَسَمَّوْنَ بِالعُلَمَاءِ؛ لا يَنْهَاهُم مَا يَحْمِلُوْنَ، وَيَعْلَمُوْنَ وَلا يَعْمَلُوْنَ، وَيَتَكَبَّرُوْنَ عَلَىٰ النَّاسِ بِمَا لا يَعْمَلُوْنَ، وَيَأْخُذُوْنَ عَرَضَ الأَدْنَى[2]، وَقَدْ نُهُوْا عَمَّا يَأْخُذُوْنَ، غَلَبَتْهُم طِبَاعُهُم، وَمَا رَاضَتْهُم عُلُوْمُهُم الَّتِي يَدْرُسُوْنَ؛ فَهُمْ[3] أَخَسُّ حَالًا مِنَ العَوَامِّ الَّذِيْنَ يَجْهَلُوْن، ﴿يَعْلَمُونَ ظَٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ ٱلْءَاخِرَةِ هُمْ غَٰفِلُونَ﴾ [الروم: ٧].

٣٣٧ - فصل: للفقيه أن يطالع من كل فنٍّ طرفًا

١٤٧٥ - لِلْفَقِيْهِ أَنْ يُطَالِعَ مِنْ كُلِّ فَنٍّ طَرَفًا: مِنْ تارِيخٍ، وَحَدِيْثٍ، وَلُغَةٍ، وغَيْرِ ذٰلِكَ؛ فَإِنَّ **الفِقْهَ** يَحْتَاجُ إِلَىٰ جَمِيْعِ العُلُوْمِ؛ فَلْيَأْخُذْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مِنْهَا مُهِمًّا.

١٤٧٦ - وَلَقَدْ رَأَيْتُ بَعْضَ الفُقَهَاءِ يَقُوْلُ: اجْتَمَعَ **الشِّبْلِيُّ وشَرِيْكٌ القَاضِي**[4]! فَاسْتَعْجَبْتُ لَهُ! كَيْفَ لا يَدْرِي بُعْدَ مَا بَيْنَهُمَا؟! وَقَالَ آخَرُ فِي مُنَاظَرَةٍ: كَانَتِ الزَّوْجِيَّةُ بَيْنَ فَاطِمَةَ وَعَلِيٍّ ﷺ غَيْرَ مُنْقَطِعَةِ الحُكْمِ؛ فَلِهٰذا غَسَّلَها! فَقُلْتُ لَهُ: وَيْحَكَ! فَقَدْ

---

(١) **درج**: مات.

(٢) **عرض الأدنى**: زينة الدنيا.

(٣) في الأصل: فهي، وهو تصحيف.

(٤) شريك بن عبد الله النخعي الكوفي (٩٥ - ١٧٧هـ): الفقيه العلامة، أما الشبلي فقد ولد سنة (٢٤٧هـ)؛ فكيف يلتقيان؟!

تَزَوَّجَ أُمَامَةَ بِنْتَ زَيْنَبَ، وَهِيَ ابْنَةُ أُخْتِها! فَانْقَطَعَ[1].

١٤٧٧ - وَرَأَيْتُ فِي كِتَابِ (إِحْيَاءُ عُلُوْمِ الدِّيْنِ) **لِلْغَزَالِي** مِنْ هٰذَا مَا يُدْهِشُ مِنَ التَّخْلِيْطِ فِي الأَحَادِيْثِ والتَّوَارِيْخِ، فَجَمَعْتُ مِنْ أَغَالِيْطِهِ كِتَابٌ[2].

وَقَدْ ذَكَرَ فِي كِتَابٍ لَهُ سَمّاهُ (المُسْتَظْهِري)[3] وعَرَضَهُ عَلىٰ المُسْتَظْهِرِ بِاللهِ[4]: أَنَّ سُلَيْمَانَ بْنَ عَبْدِ المَلِك[5] بَعَثَ إِلىٰ أَبي حَازِمٍ[6]، فَقَالَ لَهُ: ابْعَثْ لِي مِنْ فُطُوْرِكَ! فَبَعَثَ إِلَيْهِ نُخَالَةً مَقْلُوَّةً، فَأَفْطَرَ عَلَيْهَا، ثُمَّ جَامَعَ زَوْجَتَهُ، فَجَاءَتْ بِعَبْدِ العَزِيْزِ[7]، ثُمَّ وُلِدَ لَهُ عُمَرُ[8]!! وَهٰذَا تَخْلِيْطٌ قَبِيْحٌ؛ فَإِنَّهُ جَعَلَ عُمَرَ بْنَ عَبْدِ العَزِيْزِ بْنَ سُلَيْمَانَ بْنِ عَبدِ المَلِكِ! فجَعَلَ سُلَيْمَانَ جَدَّهُ، وَإِنَّمَا هُوَ ابْنُ عَمِّه.

١٤٧٨ - وَقَدْ ذَكَرَ أَبُوْ المَعَالِي الجُوَيْنِيُّ فِي أَوَاخِرِ كِتَابِ (الشّامِل فِي الأُصُوْلِ)[9]؛ قَالَ: قَدْ ذَكَرَتْ طَائِفَةٌ مِنَ الثِّقَاتِ المُعْتَنِيْنَ بِالبَحْثِ عَنِ البَوَاطِنِ أَنَّ الحَلّاجَ وَالجَنَّابِيَّ[10] القِرْمِطِيَّ وَابْنَ المُقَنّعِ تَوَاصَوْا عَلىٰ قَلْبِ الدُّوَلِ، وَإِفْسَادِ المَمْلَكَةِ، وَاسْتِعْطَافِ القُلُوْبِ، وَارْتَادَ كُلٌّ مِنْهُم قُطْرًا، فَقَطَنَ الجَنَّابِيُّ فِي الأَحْسَاء، وَتَوَغَّلَ ابْنُ المُقَنَّعِ فِي أَطْرَافِ بِلَادِ التُّرْكِ، وَقَطَنَ الحَلّاجُ بِبَغْدَادَ، فحَكَمَ عَلَيْهِ صَاحِبَاه بِالهَلَكَةِ والقُصُوْرِ عَنْ بُلُوْغِ الأُمْنِيَةِ؛ لِبُعْدِ أَهْلِ بَغْدَادَ عَنِ الانْخِدَاعِ، وَتَوفُّرِ فِطْنَتِهِم، وَصِدْقِ فِرَاسَتِهِم.

---

(١) **انقطع**: لم يحر جوابًا.

(٢) وقد وقع مثل هذا للمؤلف في الفصل (٤٩) من هذا الكتاب. وفي الأصل: في كتاب.

(٣) وطبع تحت اسم (فضائح الباطنية) بتحقيق عبد الرحمٰن بدوي.

(٤) أحمد بن المقتدي بأمر الله عبد الله الهاشمي الخليفة العباسي (٤٧٠ - ٥١٢هـ) كان موصوفًا بالسخاء والجود ومحبة العلماء وأهل الدين.

(٥) الخليفة الأموي السابع (٥٤ - ٩٩هـ) وهو الذي رشح عمر بن عبد العزيز للخلافة.

(٦) سلمة بن دينار عالم المدينة، توفي سنة (١٤٠هـ).

(٧) عبد العزيز بن مروان أمير مصر، توفي سنة (٨٥هـ).

(٨) فضائح الباطنية ص(٢١٧).

(٩) كتاب في أصول الدين. طبع قسم منه بتحقيق الدكتور علي سامي النشار.

(١٠) الحسن بن بهرام، أبو سعيد، كبير القرامطة في البحرين، قتله غلام له سنة (٣٠١)هـ.

قُلْتُ: وَلَوْ أَنَّ هٰذَا الرَّجُلَ أَوْ مَنْ حَكَىٰ عَنْهُ عَرَفَ التّارِيْخَ؛ لَعَلِمَ أَنَّ الحَلّاجَ لَمْ يُدْرِكِ ابْنَ المُقَنَّعَ؛ فَإِنَّ ابْنَ المُقَنَّعَ[1] أَمَرَ بِقَتْلِهِ المَنْصُوْرُ، فقُتِلَ فِي سَنَةِ أَرْبَعٍ وَأَرْبَعِيْنَ وَمِئَةٍ، وَأَبُو سَعِيْدٍ الجَنَّابِيُّ القِرْمِطِيُّ ظَهَرَ في سَنَةِ سِتٍّ وَثَمَانِيْنَ وَمِئَتَيْنِ، وَالحَلّاجُ قُتِلَ سَنَةَ تِسْعٍ وَثَلَاثِ مِئَةٍ؛ فَزَمَانُ القِرْمِطِيِّ وَالحَلّاجِ مُتَقَارِبَانِ؛ فَأَمَّا ابْنُ المُقَنَّعِ؛ فكَلَّا.

١٤٧٩ ـ فَيَنْبَغِي لِكُلِّ ذِي عَلْمٍ أَنْ يُسَاهِمَ بِبَاقِي العُلُوْمِ، فَيُطَالِعَ مِنْهَا طَرَفًا؛ إِذْ لِكُلِّ عِلْمٍ بِعِلْمٍ تَعَلُّقٌ. وَأَقْبِحْ[2] بِمُحَدِّثٍ يُسْأَلُ عَنْ حَادِثَةٍ فَلَا يَدْرِي، وَقَدْ شَغَلَهُ مِنْهَا جَمْعُ الأَحَادِيْثِ.

وَقَبِيْحٌ بِالفَقِيْهِ أَنْ يُقَالَ لَهُ: مَا مَعْنَى قَوْلِ رَسُوْلِ اللهِ ﷺ كذَا؟ فَلَا يَدْرِي صِحَّةَ الحَدِيْثِ وَلا مَعْنَاهُ! نَسْأَلُ اللهَ ﷻ هِمَّةً عَالِيَةً، لا تَرْضَىٰ بِالنَّقَائِصِ بِمَنِّهِ وَلُطْفِهِ.

٣٣٨ - فصل: همم القدماء من العلماء

١٤٨٠ ـ كَانَتْ هِمَمُ القُدَمَاءِ مِنَ العُلَمَاءِ عالية، تَدُلُّ عَلَيْهَا تَصَانِيْفُهُم، الّتِي هِيَ زُبْدَةُ أَعْمَارِهِمْ؛ إِلَّا أَنَّ أَكْثَرَ تَصَانِيْفِهِم دُثِرَتْ؛ لِأَنَّ هِمَمَ الطُّلّابِ ضَعُفَتْ، فَصَارُوْا يَطْلُبُوْنَ المُخْتَصَرَاتِ، وَلَا يَنْشَطُوْنَ لِلْمُطَوَّلَاتِ، ثُمَّ **اقْتَصَرُوْا عَلَىٰ مَا يَدْرُسُوْنَ بِهِ مِنْ بَعْضِهَا**[3]، فدُثِرَتِ الكُتُبُ، وَلَمْ تُنْسَخْ!

١٤٨١ ـ فَسَبِيْلُ طَالِبِ الكَمَالِ في طَلَبِ العِلْمِ الاطِّلَاعُ عَلَىٰ الكُتُبِ، الّتِي قَدْ تَخَلَّفَتْ مِنَ المُصَنَّفَاتِ؛ فَلْيُكْثِرْ مِنَ المُطَالَعَةِ؛ فَإِنَّهُ يَرَىٰ مِنْ عُلُومِ القَوْمِ، وَعُلُوِّ هِمَمِهِم مَا يَشْحَذُ خَاطِرَهُ، وَيُحَرِّكُ عَزِيْمَتَهُ لِلجِدِّ، وَمَا يَخْلُوْ كِتَابٌ مِنْ فَائِدَةٍ.

١٤٨٢ ـ وَأَعُوْذُ بِاللهِ مِنْ سِيَرِ هؤلاءِ الّذِيْنَ نُعَاشِرُهُم! لا نَرَىٰ فِيْهِم ذَا هِمَّةٍ عَالِيَةٍ؛ فَيَقْتَدِي بِهَا المُبْتَدِئ، وَلا صَاحِبَ وَرَعٍ، فَيَسْتَفِيْدَ مِنْهُ الزَّاهِدُ.

---

(١) الذي قتله المنصور هو عبد الله بن المقفع (١٠٦ ـ ١٤٤هـ) من أئمة الكتاب ترجم كليلة ودمنة. أما المقنع ـ وليس ابن المقنّع ـ فاسمه عطاء، مشعوذ مشهور ادعى الربوبية، فتبعه قوم، وقاتلوا في سبيله، وكان مشوّه الخَلْق، فاتخذ وجهًا من ذهب تقنّع به، جيَّش المهدي إليه الجيوش فسمَّ نفسَه ومات سنة (١٦٣)هـ، فالمؤلف رَحِمَهُ اللهُ التبس عليه الرجلان.

(٢) في الأصل: ما أقبح، ولا يستقيم مع ما بعده.

(٣) وهذا حال كثير من المشايخ ومريديهم

فَاللهَ اللهَ وَعَلَيْكُم بِمُلاحَظَةِ سِيَرِ السَّلفِ، وَمُطَالَعَةِ تَصَانِيْفِهم وَأَخْبَارِهِم؛ فَالاسْتِكْثَارُ مِنْ مُطَالَعَةِ كُتُبِهِم رُؤْيَةٌ لَهُمْ، كَمَا قَالَ[1]:

فَـاتَـنِـي أَنْ أَرَىٰ الـدِّيـارَ بِـطَـرْفِـي ... فَـلَـعَـلِّـي أَرَىٰ الـدِّيـارَ بِـسَـمْـعِـي

١٤٨٣ ـ وَإِنِّي أُخْبِرُ عَنْ حَالِي: مَا أَشْبَعُ مِنْ مُطَالَعَةِ الكُتُبِ، وَإِذا رَأَيْتُ كِتَابًا لَمْ أَرَهُ؛ فَكَأَنِّي وَقَعْتُ عَلىٰ كَنْزٍ؛ وَلَقَدْ نَظَرْتُ فِي ثَبَتِ الكُتُبِ المَوْقُوْفَةِ في المَدْرَسَةِ النظاميَّةِ[2]؛ فَإِذَا بِهِ يَحْتَوِي عَلىٰ نَحْوِ سِتَّةِ آلافِ مُجَلَّد، وَفِي ثَبَتِ كُتُبِ أَبِي حَنِيْفَةَ، وكُتُبِ الحُمَيْدِيِّ، وكُتُبِ شَيْخِنا عَبدِ الوهاب، وابن ناصرٍ، وَكُتُبِ أَبِي مُحَمّدِ بْنِ الخَشَّابِ ـ وَكَانَتْ أَحْمَالًا ـ وَغَيْرِ ذٰلِكَ مِنْ كُلِّ كِتَابٍ أَقْدِرُ عَلَيْهِ، وَلَوْ قُلْتُ: **إِنِّي طَالَعْتُ عِشْرِيْنَ أَلْفَ مُجَلَّدٍ؛ كَانَ أَكْثَر، وَأَنَا بَعْدُ فِي الطَّلَبِ!** فَاسْتَفَدْتُ بِالنَّظَرِ فِيْهَا مِنْ مُلاحَظَةِ سِيَرِ القَوْمِ، وقَدْرِ هِمَمِهِم، وحِفْظِهِم وَعِبَادَاتِهِم، وَغَرَائِبِ عُلُوْمِهِم: مَا لَا يَعْرِفُه مَنْ لَمْ يُطَالِعْ، فَصِرْتُ أَسْتَزْرِي[3] مَا النَّاسُ فِيْهِ، وَأَحْتَقِرُ هِمَمَ الطُّلَابِ. وَللهِ الحَمْدُ.

٣٣٩ - فصل: أثر قلة العقل وترك إعماله

١٤٨٤ ـ لَيْسَ لِلآدَمِيِّ أَعَزُّ مِنْ نَفْسِهِ، وَقَدْ عَجِبْتُ مِمَّن يُخَاطِرُ بِهَا، وَيُعَرِّضُهَا لِلْهَلاكِ! والسَّبَبُ فِي ذٰلِكَ قِلَّةُ العَقْلِ، وَسُوْءُ النَّظَرِ!! **فَمِنْهُم** مَنْ يُعَرِّضُهَا لِلتَّلَفِ، لِيُمْدَحَ بِزَعْمِهِ؛ مِثْلُ قَوْمٍ يَخْرُجُوْنَ إِلىٰ قَتْلِ السَّبُعِ! **وَمِنْهُم** مَنْ يَصْعَدُ إِلىٰ إِيْوَانِ كِسْرَى[4]؛ لِيُقَالَ: شَاطِرٌ! وَسَاعٍ يَمْشِي ثَلَاثِيْنَ فَرْسَخًا! وَهٰؤلاءِ إِذَا تَلِفُوا؛ حُمِلُوْا إِلى النَّارِ؛ فَإِنْ هَلَكَ؛ ذَهَبَتِ النَّفْسُ الَّتِي يُرَادُ المَالُ لِأَجْلِهَا.

---

(١) هو للشريف الرضي، ديوانه (١/ ٥٠٠).

(٢) المدرسة الكبرى التي أنشأها الوزير نظام الملك الحسن بن علي الطوسي ببغداد، وبدئ التدريس فيها سنة (٤٥٩هـ).

(٣) محمد بن أبي نصر فتوح الحميدي الأندلسي الميورقي، الفقيه، ولد قبل سنة (٤٢٠هـ) واستوطن بغداد، وتوفي سنة (٤٨٨هـ).

(٤) قال ياقوت: رأيته وقد بقي منه طاق الإيوان فحسب، وهو مبني بآجرّ، طول كل آجرّة نحو ذراع في عرض أقل من شبر، وهو عظيم جدًا، وهو من بناء كسرى أبرويز.

وَأَعْجَبُ مِنَ الكُلِّ مَنْ يُخَاطِرُ بِنَفْسِهِ فِي الهَلَاكِ وَلَا يَدْرِي؛ مِثْلُ أَنْ يَغْضَبَ، فَيَقْتُلَ المُسْلِمَ، فَيَشْفِيَ غَيْظَهُ بِالتَّعْذِيْبِ فِي جَهَنَّمَ.

١٤٨٥ ـ وَأَظْرَفُ مِنْ هٰذَا **اليَهُوْدُ والنَّصَارَىٰ**؛ فَإِنَّ أَحَدَهُمْ يَبْلُغُ، فَيَجِبُ عَلَيْهِ أَنْ يَنْظُرَ فِي نُبُوَّةِ نَبِيِّنَا ﷺ؛ فَإِذَا فرَّطَ فَمَاتَ؛ فَلَهُ الخُلُوْدُ فِي جَهَنَّمَ.

وَلَقَدْ قُلْتُ لِبَعْضِهِم: وَيْحَكَ! تُخَاطِرُ بِنَفْسِكَ فِي عَذَابِ الأَبَدِ! نَحْنُ نُؤْمِنُ بِنَبِيِّكُمْ فَنَقُوْلُ: لَوْ أَنَّ مُسْلِمًا آمَنَ بِنَبِيِّنا، وَكَذَّبَ بِنَبِيِّكُمْ أَوْ بِالتَّوْرَاةِ؛ خُلِّدَ فِي النَّارِ؛ فَمَا بَيْنَنا وَبَيْنَكُمْ خِلافٌ!! إِذْ نَحْنُ مُؤْمِنُوْنَ بِصدْقِهِ وَكِتَابِهِ؛ فَلَوْ لَقِيْنَاهُ؛ لَمْ نَخْجَلْ، وَلَوْ عَاتَبَنا مَثَلًا وَقَالَ: هَلْ قُمْتُم بِالسَّبْتِ؟ وَالسَّبْتُ مِنَ الفُرُوعِ، والفُرُوْعُ لا يُعَاقَبُ عَلَيْهَا بِالخُلُوْدِ.

فَقَالَ لِي رَئِيْسُ القَوْمِ: مَا نُطَالِبُكُمْ بِهٰذَا؛ لِأَنَّ السَّبْتَ إِنَّمَا يَلْزَمُ بَنِي إِسْرَائِيْلَ.

فَقُلْتُ: فَقَدْ سَلِمْنا بِإِجْمَاعِكُم، وَأَنْتُمْ هَالِكُوْنَ؛ لِأَنَّكم تُخَاطِرُوْنَ بِأَرْوَاحِكُم فِي العَذَابِ الدَّائِمِ!! وَالعَجَبُ بِمَنْ يُهْمِلُ النَّظَرَ فِيْمَا إِذَا تَوَانَىٰ فِيْهِ أَوْجَبَ الخُلُوْدَ فِي العِقَابِ الدَّائِمِ.

وَأَعْجَبُ مِنْ الكُلِّ جَاحِدُ الخَالِقِ، وَهُوَ يَرَىٰ إِحْكَامَ الصَّنْعَةِ، وَيَقُوْلُ: لَا صَانِعَ. وَالسَّبَبُ فِي هٰذِهِ الأَشْيَاءِ كُلِّهَا قِلَّةُ العَقْلِ، وَتَرْكُ إِعْمَالِهِ فِي النَّظَرِ وَالاسْتِدْلَالِ.

٣٤٠ - فصل: ربّ سرٍّ ظهر فكان سبب الهلاك

١٤٨٦ ـ لا يَنْبَغِي لِلْعَاقِلِ أَنْ يُظْهِرَ سِرًّا حَتَّىٰ يَعْلَمَ أَنَّهُ إِذَا ظَهَرَ لا يَتَأَذَّى بِظُهُوْرِهِ. وَمَعْلُوْمٌ أَنَّ السَّبَبَ فِي بَثِّ السِّرِّ طَلَبُ الاسْتِرَاحَةِ بِبَثِّهِ، وَذٰلِكَ أَلَمٌ قَرِيْبٌ؛ فَلْيَصْبِر عَلَيْهِ. فَرُبَّ مُظْهِرِ سِرٍّ لِزَوْجَتِهِ؛ فَإِذَا طُلِّقَتْ بَثَّتْهُ وهَلَكَ، أَوْ لِصَدِيْقِهِ، فيُظْهِرُ عَلَيْهِ حَسَدًا لَهُ، إِذَا كَانَ مُمَاثِلًا، وَإِنْ كانَ عَامِيًّا؛ فَالعَامِيُّ أَحْمَقُ. وَرُبَّ سِرٍّ أُظْهِرَ فَكَانَ سَبَبَ الهَلَاكِ.

٣٤١ - فصل: عاشق العلم

١٤٨٧ - مَا يَتَنَاهَىٰ فِي طَلَبِ العِلْمِ إِلَّا **عَاشِقُ العِلْمِ**، وَالعَاشِقُ يَنْبَغِي أَنْ يَصْبِرَ عَلَىٰ المَكَارِهِ، وَمِنْ ضَرُوْرَةِ المُتَشَاغِلِ بِهِ البُعْدُ عَنِ الكَسْبِ. وَمُذْ فُقِدَ التَّفَقُّدُ لَهُمْ مِنَ الأُمَرَاءِ وَمِنَ الإِخْوَانِ؛ لازَمَهُمُ الفَقْرُ ضَرُوْرَةً، والفَضَائِلُ تُنَادِي: ﴿هُنَالِكَ ٱبْتُلِىَ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا۟ زِلْزَالًا شَدِيدًا﴾ [الأحزاب: ١١]؛ فَكُلَّمَا خَافَتْ مِنِ ابْتَلاءٍ؛ قَالَتْ:

لا تَحْسَبِ المَجْدَ تَمْرًا أَنْتَ آكِلُهُ ... لَنْ تَبْلُغَ المَجْدَ حَتَّى تَلْعَقَ الصَّبِرا

١٤٨٨ - وَلَمَّا آثَرَ أَحْمَدُ بْنُ حَنْبَلٍ رضي الله عنه طَلَبَ العِلْمَ، وَكَانَ فَقِيْرًا؛ بَقِيَ أَرْبَعِيْنَ سَنَةً يَتَشَاغَلُ بِهِ، وَلا يَتَزَوَّجُ.

فَيَنْبَغِي لِلْفَقِيْرِ أَنْ يُصَابِرَ فَقْرَهُ كَمَا فَعَلَ **أَحْمَدُ**! وَمَنْ يُطِيْقُ مَا أَطَاقَ؟! فَقَدْ رَدَّ مِنَ المَالِ خَمْسِيْنَ أَلْفًا، وَكَانَ يَأْكُلُ الكَامَخَ[1] وَيَتَأَدَّمُ بِالمِلْحِ؛ فَمَا شَاعَ لَهُ الذِّكْرُ الجَمِيْلُ جُزَافًا، ولا تَرَدَّدَتِ الأَقْدَامُ إِلَىٰ قَبْرِهِ إِلَّا لِمَعْنًى عَجِيْبٍ. فَيَا لَهُ ثَنَاءً مَلأَ الآفَاقَ، وَجَمَالًا زَيَّنَ الوُجُوْدَ، وَعِزًّا نَسَخَ كُلَّ ذُلٍّ! هٰذَا فِي العَاجِلِ، وَثَوَابُ الآجِلِ لا يُوْصَفُ.

١٤٨٩ - وتَلَمَّحْ قُبُوْرَ أَكْثَرِالعُلَمَاءِ؛ لا تُعْرَفُ وَلَا تُزَارُ، تَرَخَّصُوْا، وَتَأَوَّلُوْا، وَخَالَطُوْا السَّلاطِينَ، فَذَهَبَتْ بَرَكَةُ العِلْمِ، ومُحِيَ الجَاهُ، وَوَرَدُوْا عِنْدَ المَوْتِ حِيَاضَ النَّدَمِ! فَيَا لَهَا حَسَراتٍ لا تُتلافَىٰ، وَخُسْرَانًا لا يَنْجَبِرُ! وَكَانَتْ صُحْبَةُ اللَّذَّاتِ طَرْفَةَ عَيْنٍ، وَلازَمَ الأَسَفُ دَائِمًا.

فَالصَّبْرَ الصَّبْرَ أَيُّهَا الطَّالِبُ لِلْفَضَائِلِ! فَإِنَّ لَذَّةَ الرَّاحَةِ بِالهَوَىٰ أَوْ بِالبَطَالَةِ تَذْهَبُ، وَيَبْقَىٰ الأَسَىٰ. وَقَالَ الشَّافِعِيُّ رضي الله عنه[2]:

يَا نَفْسُ مَا هُوَ إِلَّا صَبْرُ أَيَّامِ ... كَأَنَّ مُدَّتَهَا أَضْغَاثُ أَحْلَامِ

يَا نَفْسُ جُوْزِي عَنِ الدُّنْيَا مُبَادِرَةً ... وخَلِّ عَنْهَا فَإِنَّ العَيْشَ قُدَّامِي

---

(١) طعام من السميذ واللبن يجفف، ولعله قريب من الكشك.

(٢) ديوانه ص(١٠٨) ط. دار القلم بدمشق.

١٤٩٠ ـ ثُمَّ أَيُّهَا العَالِمُ الفَقِيْرُ! أَيَسُرُّكَ مُلْكُ سُلْطَانٍ مِنَ السَّلاطِيْنِ، وَأَنَّ مَا تَعلَمُهُ مِنَ العِلْمِ لا تَعْلَمُهُ؟ كَلَّا؛ مَا أَظُنُّ بِالمُتَيَقِّظِ أَنْ يُؤْثِرَ هٰذَا!

١٤٩١ ـ ثُمَّ أَنْتَ إِذَا وَقَعَ لَكَ خَاطِرٌ مُسْتَحْسَنٌ أَوْ مَعْنًى عَجِيْبٌ؛ تَجِدُ لَذَّةً لا يَجِدُها مُلْتَذٌّ بِاللَّذَّاتِ الحِسِّيَّةِ. فَقَدْ حُرِمَ مَنْ رُزِقَ الشَّهَوَاتِ مَا قَدْ رُزِقْتَ، وَقَدْ شَارَكْتَهُمْ فِي قِوَامِ العَيْشِ، وَلَمْ يَبْقَ إِلَّا الفُضُوْلُ، الَّذِي إِذَا أُخِذَ لَمْ يَكَدْ يَضُرُّ. ثُمّ هُمْ عَلىٰ المُخَاطَرَةِ فِي بَابِ الآخِرَةِ غَالِبًا، وَأَنْتَ عَلىٰ السَّلامَةِ فِي الأَغْلَبِ.

فَتَلَمَّحْ يَا أَخِي عَوَاقِبَ الأَحْوَالِ! وَاقْمَعِ الكَسَلَ المُثبِّطَ عَنِ الفَضَائِلِ! فَإِنَّ كَثِيْرًا مِنَ العُلَمَاءِ الَّذِيْنَ مَاتُوْا مُفَرِّطِيْنَ يَتَقَلَّبُوْنَ فِي حَسَرَاتٍ وَأَسَفٍ.

١٤٩٢ ـ رَأىٰ رَجُلٌ شَيْخَنَا **ابْنَ الزَّاغُوْنِيِّ**(١) فِي المَنَامِ، فَقَالَ لَهُ الشَّيْخُ: أَكْثَرُ مَا عِنْدَكُمُ الغَفْلَةُ، وَأَكْثَرُ مَا عِنْدَنَا النَّدَامَةُ.

١٤٩٣ ـ فَاهْرُبْ وَفَّقَكَ اللهُ قَبْلَ الحَبْسِ! وَافْسَخْ عَقْدَ الهَوىٰ عَلىٰ الغَبْنِ الفَاحِشِ! وَاعْلَمْ أَنَّ الفَضَائِلَ لا تُنَالُ بِالهُوَيْنَى(٢)، وَأَنَّ يَسِيْرَ التَّفْرِيْطِ يَشِيْنُ وَجْهَ المَحَاسِنِ!

فَالبِدَارَ البِدَارَ؛ وَنَفَسُ النَّفْسِ يَتَرَدَّدُ، وَمَلَكُ المَوْتِ غَائِبٌ مَا قَدِمَ بَعْدُ، وَانْهَضْ بِعَزِيْمَةِ عَازِمٍ:

إِذا هَمَّ أَلْقَىٰ بَيْنَ عَيْنَيْهِ عَزْمَهُ ... وَنَكَّبَ عَنْ ذِكْرِ العَوَاقِبِ جَانِبَا(٣)
وَلَمْ يَسْتَشِرْ فِي أَمْرِهِ غَيْرَ نَفْسِهِ ... وَلَمْ يَرْضَ إِلَّا قَائِمَ السَّيْفِ صَاحِبا

١٤٩٤ ـ وَارْفُضْ فِي هٰذه العَزِيْمَةِ الدُّنيا وَأَرْبَابَها؛ فَبَارَكَ اللهُ لِأَهْلِ الدُّنيا فِي دُنْيَاهُمْ؛ فَنَحْنُ الأَغْنِيَاءُ، وَهُمُ الفُقَرَاءُ؛ كَمَا قَالَ إِبْرَاهِيْمُ بْنُ أَدْهَمَ: **لو عَلِمَ المُلُوْكُ وَأَبْنَاءُ المُلُوْكِ مَا نَحْنُ فِيْهِ؛ لَجَالَدُوْنَا**(٤) **عَلَيْهِ بِالسُّيُوفِ.**

---

(١) أبو الحسن علي بن عبيد الله البغدادي (٤٥٥ ـ ٥٢٧هـ): الإمام العلامة شيخ الحنابلة. وقد تصحف بالأصل إلى (ابن الزعواني).

(٢) **الهوينى**: الاتئاد والرفق.

(٣) البيتان لسعد بن ناشب المازني. انظر: شرح الحماسة للتبريزي (١/ ٣٥).

(٤) **جالدونا**: قاتلونا.

١٤٩٥ ـ فَأَبْنَاءُ الدُّنيا؛ أَحَدُهُمْ لا يَكَادُ يَأْكُلُ لُقْمَةً إِلَّا حَرَامًا أَوْ شُبْهَةً، وَهُوَ وَإِنْ لَمْ يُؤْثِرْ ذٰلِكَ؛ فَوَكِيْلُه يَفْعَلُه، وَلا يُبَالِي هُوَ بِقِلَّةِ دِيْنٍ وَكِيْلِهِ، وَإِنْ عَمَرُوْا دَارًا؛ سَخَّرُوْا الفَعَلَةَ[1]، وَإِنْ جَمَعُوْا مَالًا؛ فَمِنْ وُجُوْهٍ لا تَصْلُحُ، ثُمَّ كُلٌّ مِنْهم خائفٌ أن يُقْتَلَ أَوْ يُعْزَلَ أو يُشْتَمَ؛ فعيشُهم نَغَصٌ.

١٤٩٦ ـ وَنَحْنُ نَأْكُلُ مَا ظَاهِرُ الشَّرْعِ يَشْهَدُ لَهُ بِالإِبَاحَةِ، وَلا نَخَافُ مِنْ عَدُوٍّ، وَلا وِلَايَتُنا تَقْبَلُ العَزْلَ، وَالعِزُّ فِي الدُّنْيَا لَنَا لا لَهُمْ، وَإِقْبَالُ الخَلْقِ عَلَيْنَا، وَتَقْبِيْلُ أَيْدِيْنَا وَتَعْظِيْمُنَا عَنْدَهُمْ كَثِيْرٌ، وَفِي الآخِرَةِ بَيْنَنَا وَبَينَهُم تَفَاوُتٌ إِنْ شَاءَ اللهُ تَعَالىٰ. فَإِنْ لَفَتَ أَرْبَابُ الدُّنْيَا أَعْنَاقَهم؛ يَعْلَمُوْنَ قَدْرَ مَزِيَّتِنا، وَإِنْ غُلَّتْ أَيْدِيْهِم عَنْ إِعْطَائِنا؛ فَلَذَّةُ العَفَافِ أَطْيَبُ، وَمَرَارَةُ المِنَنِ لا تَفِي بِالمَأْخُوْذِ، وَإِنَّمَا هُوَ طَعَامٌ دُوْنَ طَعَامٍ، وَلِبَاسٌ دُوْنَ لِبَاسٍ، وَإِنَّها أَيَّامٌ قَلَائِلُ.

١٤٩٧ ـ وَالعَجَبُ لِمَنْ شَرُفَتْ نَفْسُهُ حَتَّىٰ طَلَبَ العِلْمَ ـ إِذْ لا تَطْلُبُهُ إِلَّا ذُوْ نَفْسٍ شَرِيْفَةٍ ـ؛ كَيْفَ يَذِلُّ لِبَذْلِ مَنْ لا عِزَّهُ إِلَّا بِالدَّنَانِيْرِ؛ ولا فَخْرُهُ إِلَّا بِالمَكَنَةِ؟! وَلَقَدْ أَنْشَدَنِي **أَبُو يَعْلَىٰ العَلَوِيُّ**[2]:

رُبَّ قَـوْمٍ فِـي خَـلائِـقِـهِـمْ ... عَـرَرٌ قَـدْ صُـيِّـروا غُـرَرا

سَـتَـرَ الـمَـالُ الـقَـبِـيْـحَ لَـهُـمْ ... سَـتَـرَى إِنْ زَالَ مَـا سَـتَـرَا

أَيْقَظَنا اللهُ مِنْ رَقْدَةِ الغَافِلِيْنَ، وَرَزَقَنا فِكْرَ المُتَيَقِّظِيْنَ، وَوَفَّقَنا لِلْعَمَلِ بِمُقْتَضَىٰ العِلْمِ وَالعَقْلِ؛ إِنَّه قَرِيْبٌ مُجِيْبٌ.

٣٤٢ - فصل: البدن كالراحلة إن لم يرفق بها لم تصل بالراكب

١٤٩٨ ـ لا يَنْبَغِي لِلإِنْسَانِ أَنْ يَحْمِلَ عَلىٰ بَدَنِهِ مَا لا يُطِيْقُ؛ فَإِنَّ البَدَنَ كالرَّاحِلَةِ؛ إِنْ لَمْ يُرْفَقْ بِهَا؛ لَمْ تَصِلْ بِالرَّاكِبِ.

---

(١) هم الذين يعملون بالمياومة في أعمال البناء والترميم ونحوها، وما زال هذا التعبير دارجًا عندنا في الشام وكانوا يسمّون في عصر المؤلف الرُّوْزجارية. انظر الفصل (٣٧١).

(٢) لم أجد له ترجمة، **والعرر**: العيوب.

١٤٩٩ ـ فَتَرَىٰ فِي النَّاسِ مَنْ يَتَزَهَّدُ، وَقَدْ رَبَّى جَسَدَهُ عَلَىٰ التَّرَفِ، فَيُعْرِضُ عَمَّا أَلِفَهُ، فَتَتَجَدَّدُ لَهُ الأَمْرَاضُ، فَتَقْطَعُهُ عَنْ كَثِيْرٍ مِنَ العِبَادَاتِ. وَقَدْ قِيلَ: عَوِّدُوْا كُلَّ بَدَنٍ مَا اعْتَادَ! وَقَدْ قُرِّبَ إِلَىٰ **رَسُوْلِ اللهِ** ﷺ ضَبٌّ، فَقَالَ: «**أَجِدُنِي أَعَافُهُ؛ لِأَنَّه لَيْسَ بِأَرْضِ قَوْمِي**»[1].

١٥٠٠ ـ وَفِي **حَدِيْثِ الهِجْرَةِ**: **أَنَّ أَبَا بَكْرٍ** رضي الله عنه **طَلَبَ لِرَسُوْلِ اللهِ** ﷺ **الظِّلَّ، وَفَرَشَ لَهُ فَرْوَةً، وَصَبَّ عَلَىٰ القَدَحِ الَّذِي فِيْه اللَّبَنُ مَاءً حَتَّى بَرَدَ.**

١٥٠١ ـ وَجَاءَ رَسُوْلُ اللهِ ﷺ عَلَىٰ قَوْمٍ، فَقَالَ: «**إِنْ كَانَ عَنْدَكُمْ مَاءٌ بَاتَ فِي شَنٍّ، وَإِلَّا؛ كَرَعْنا**». **وَكَانَ** ﷺ **يَأْكُلُ لَحْمَ الدَّجَاجِ**. وفي «الصحيح»: أنَّه **كان يحبُّ الحلوى والعسلَ. وَكَانَ إِذَا لَمْ يَقْدِرْ؛ أَكَلَ ما حَضَرَ.**

١٥٠٢ ـ وَلَعَمْرِي؛ إِنَّ فِي العَرَبِ وَأَهْلِ السَّوادِ[2] مَنْ لا يُؤَثِّرُ عَنْدَهُ التَّخَشُّنُ فِي المَطْعَمِ والمَلْبَسِ، وذاكَ إِذَا جَرَىٰ بَعْدَ تَوْبَتِهِ عَلَىٰ عادَتِهِ؛ لَمْ يَسْتَضِرَّ. فأَمَّا مَن قَد أَلِفَ اللُّطْفَ؛ فَإِنَّهُ إِذَا غَيَّرَ حَالَتَه؛ تَغيَّرَ بَدَنُهُ، وَقَلَّتْ عِبَادَتُهُ.

١٥٠٣ ـ وَقَدْ كَانَ **الحَسَنُ**[3] يُدِيْمُ أَكْلَ اللَّحْمِ، ويَقُوْلُ: لا رَغِيْفَي مَالِكٍ[4]، ولا صَحْنَي فَرْقَدٍ[5].

١٥٠٤ ـ وَكَانَ ابْنُ سِيْرِيْنَ لا يُخْلِي مَنْزِلَهُ مِنْ حَلَوىٰ. وَكَانَ سُفْيَانُ الثَّوْرِيُّ يُسَافِرُ، وَفِي سُفْرَتِهِ الحَمَلُ المَشْوِيُّ والفَالُوْذَجُ. وَقَالَتْ **رَابِعَةُ**: مَا أَرَىٰ لِبَدَنٍ يُرَادُ بِهِ العَمَلُ للهِ إِذَا أَكَلَ الفَالُوْذَجَ عَيْبًا.

فَمَنْ أَلِفَ التَّرَفَ؛ فَيَنْبَغِي أَنْ يَتَلَطَّفَ بِنَفْسِهِ إِذَا أَمْكَنَهُ.

١٥٠٥ ـ وَقَدْ عَرَفْتُ هٰذَا مِنْ نَفْسِي؛ فَإِنِّي رُبِّيتُ فِي تَرَفٍ، فَلَمَّا ابْتَدَأْتُ فِي التَّقَلُّلِ وَهَجْرِ المُشْتَهَى؛ أَثَّرَ مَعِي مَرَضًا، قَطَعَنِي عَنْ كَثِيْرٍ مِنَ التَّعَبُّدِ، حَتَّى إِنِّي قَرَأْتُ

---

(١) رواه البخاري (٥٥٣٧)، ومسلم (١٩٤٦) عن ابن عباس رضي الله عنهما.

(٢) جنوب العراق: وحدّه من حديثة الموصل إلى عبّادان طولًا، ومن العذيب بالقادسية إلى حلوان عرضًا، وسمي سوادًا لخضرته.

(٣) هو البصري.

(٤) مالك بن دينار.

(٥) فرقد السبخي.

فِي أَيَّامٍ كُلَّ يَوْمٍ خَمْسَةَ أَجْزَاءٍ مِنَ القُرْآنِ، فَتَنَاوَلْتُ يَوْمًا مَا لَا يَصْلُحُ، فَلَمْ أَقْدِرْ فِي ذٰلِكَ اليَوْمِ عَلىٰ قِرَاءَتِهَا، **فَقُلْتُ**: إِنَّ لُقْمَةً تُؤَثِّرُ قِرَاءَةَ خَمْسَةِ أَجْزَاءٍ، بِكُلِّ حَرْفٍ عَشْرُ حَسَنَاتٍ؛ إِنَّ تَنَاوُلَهَا لَطَاعَةٌ عَظِيْمَةٌ! وَإِنَّ مَطْعَمًا يُؤْذِي البَدَنَ، فَيَفُوْتُهُ فِعْلُ خَيْرٍ يَنْبَغِي أَنْ يُهْجَرَ!

١٥٠٦ ـ وَقَدْ رَأَىٰ رَسُوْلُ اللهِ ﷺ رَجُلًا مِنْ أَصْحَابِهِ حَضَرَ عَنْدَهُ، وَقَدْ تَغَيَّرَ مِنَ التَّقَشُّفِ، فَقَالَ لَهُ: «**مَنْ أَمَرَكَ بِهٰذَا؟!**»[1].

١٥٠٧ ـ فَالعَاقِلُ يُعْطِي بَدَنَهُ مِنَ الغِذَاءِ مَا يُوَافِقُهُ، كَمَا يُنَقِّي الغَازِي شَعِيْرَ الدَّابَّةِ.

وَلا تَظُنَّنَّ أَنِّي آمُرُ بِأَكْلِ الشَّهَوَاتِ، وَلا بِالإِكْثَارِ مِنَ المَلْذُوْذِ! إِنَّمَا آمُرُ بِتَنَاوُلِ مَا يَحْفَظُ النَّفْسَ، وَأَنْهَىٰ عَمَّا يُؤْذِي البَدَنَ؛ فَأَمَّا التَّوَسُّعُ فِي المَطَاعِمِ؛ فَإِنَّهُ سَبَبُ النَّوْمِ، والشِّبَعُ يُعْمِي القَلْبَ، ويُرَهِّلُ[2] البَدَنَ ويُضْعِفُهُ.

فَافْهَمْ مَا أَشَرْتُ إِلَيْهِ؛ فَالطَّرِيْقُ هِيَ الوُسْطَىٰ.

٣٤٣ - فصل: إذا تكامل العقل قوي الذكاء والفطنة

١٥٠٨ ـ إِذَا تَكَامَلَ العَقْلُ؛ قَوِيَ الذَّكَاءُ والفِطْنَةُ، وَالذَّكِيُّ يَتَخَلَّصُ إِذَا وَقَعَ فِي آفَةٍ؛ كَمَا قَالَ الحَسَنُ: إِذَا كَانَ اللِّصُّ ظَرِيْفًا؛ لَمْ يُقْطَعْ، فَأَمَّا المُغَفَّلُ؛ فَيَجْنِي عَلىٰ نَفْسِهِ المِحَنَ.

١٥٠٩ ـ هٰؤلاءِ **إِخْوَةُ يُوْسُفَ** عليه السلام؛ أَبْعَدُوْهُ عَنْ أَبِيْهِ، لِيَتَقَدَّمُوْا عَنْدَهُ، وَمَا عَلِمُوْا أَنَّ حُزْنَهُ عَلَيْهِ يَشْغَلُهُ عَنْهُم، وتُهْمَتَهُ إِيَّاهُم تُبَغِّضُهُم إِلَيْهِ، **ثُمَّ رَمَوْهُ فِي الجُبِّ**، فقالوا: ﴿**يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ ٱلسَّيَّارَةِ**﴾ [يوسف: ١٠]، وَلَيْسَ بِطِفْلٍ، إِنَّمَا هُوَ صَبِيٌّ كَبِيْرٌ، وَمَا عَلِمُوا أَنَّهُ إِذَا الْتُقِطَ؛ يُحَدِّثُ بِحَالِهِ، فَيَبْلُغُ الخَبَرُ إِلىٰ أَبِيْهِ! وَهٰذَا تَغْفِيْلٌ، ثُمَّ إِنَّهُم **قَالُوْا: أَكَلَهُ الذِّئْبُ**؛ وَجَاؤُوا بِقَمِيْصِهِ صَحِيْحًا، وَلَوْ خَرَّقُوْهُ؛ احْتَمَلَ الأَمْرُ، ثُمَّ لَمَّا **مَضَوْا إِلَيْهِ**

---

(١) رواه أبو داود (٢٤٢٨)، وابن ماجه (١٧٤١) (ضعيف).

(٢) في الأصل يهزل.

يَمْتَارُوْنَ[1]؛ قَالَ: ﴿ٱئْتُونِى بِأَخٍ لَّكُمْ﴾ [يوسف: ٥٩]؛ فَلَوْ فَطِنُوا؛ عَلِمُوا أَنَّ مَلِكَ مَصْرَ لا غَرَضَ لَهُ فِي أَخِيْهِم، ثُمَّ حَبَسَهُ بِحُجَّةٍ، ثُمَّ قَالَ: هٰذَا الصُّوَاعُ يُخْبِرُني أَنَّهُ كَانَ كَذَا وَكَذَا! هٰذَا كُلُّهُ وَمَا يَفْطَنُوْنَ. فَلَمَّا أحسَّ بهٰذِهِ الأَشْيَاءِ يَعْقُوْبُ عليه السلام؛ قَالَ: ﴿ٱذْهَبُوا۟ فَتَحَسَّسُوا۟ مِن يُوسُفَ﴾ [يوسف: ٨٧]، وَكَانَ يُوْسُفُ عليه السلام قَدْ نُهِيَ بِالوَحي أَنْ يُعْلِمَ أَبَاهُ بِوُجُوْدِهِ، وَلهٰذَا؛ لمَّا الْتَقَيَا؛ قَالَ لَهُ: هَلَّا كَتَبْتَ إِليَّ! فَقَالَ: إِنَّ جِبْرَيْلَ عليه السلام مَنَعَنِي. فَلَمّا نُهِيَ أَنْ يُعَرِّفَه خَبَرَهُ، لِيَنْفُذَ البَلَاءُ؛ كَانَ مَا فَعَلَ بِأَخِيْهِ تَنْبِيْهًا، فَصَارَ كَأَنَّهُ يُعَرِّضُ بِخِطْبَةِ المُعْتَدَّةِ. وَعَلىٰ فَهْمِ يُوْسُفَ ـ والله ـ بَكَىٰ يَعْقُوْبُ، لا عَلىٰ مُجَرَّدِ صُوْرَتِهِ.

٣٤٤ - فصل: من رزق اليقظة ينبغي أن يصابر لنيل الفضائل

١٥١٠ ـ الآدَمِيُّ مَوْضُوْعٌ عَلىٰ مَطْلُوْبَاتٍ تُشَتِّتُ الهَمَّ؛ **العَيْنُ** تَطْلُبُ المَنْظُوْرَ، **واللِّسَانُ** يَطْلُبُ الكَلَامَ، **وَالبَطْنُ** يَطْلُبُ المَأْكُوْلَ، **وَالفَرْجُ** المَنْكُوْحَ، **وَالطَّبْعُ** يُحِبُّ جَمْعَ المَالِ. وَقَدْ أُمِرْنَا بِجَمْعِ الهَمِّ لِذِكْرِ الآخِرَةِ وَالهَوَىٰ يُشَتِّتُهُ؛ فَكَيْفَ إِذَا اجْتَمَعَتْ إِلَيْهِ حَاجَاتٌ لازِمَةٌ مِنْ طَلَبِ قُوْتِ البَدَنِ، وَقُوْتِ العِيَالِ؟!

١٥١١ ـ وَهٰذَا يُبَكِّرُ إِلىٰ دُكَّانِهِ، وَيَفْتَكِرُ فِي التَّحْصِيْلِ، وَيَسْتَعْمِلُ آلَةَ الفَهْمِ فِي نَيْلِ مَا لَا بُدَّ مِنْهُ؛ فَأَيُّ هَمٍّ يَجْتَمِعُ مِنْهُ؟! خُصُوْصًا إِنْ أَخَذَه الشَّرَهُ فِي صُوْرَةٍ، فَيَمْضِي العُمُرُ، فَيَنْهَضُ مِنَ الدُّكَّانِ إِلىٰ القَبْرِ؛ فَكَيْفَ يَحْصُلُ العِلْمُ أوِ العَمَلُ أَوْ إِخْلَاصُ القَصْدِ أَوْ طَلَبُ الفَضَائِلِ؟!

١٥١٢ ـ فَمَنْ رُزِقَ يَقَظَةً؛ فَيَنْبَغِي أَنْ يُصَابِرَ لِنَيْلِ الفَضَائِلِ: فَإِنْ كَانَ **مُتَزَهِّدًا** بِغَيْرِ عَائِلَةٍ؛ اكْتَفَىٰ بِسَعْيٍ قَلِيْلٍ؛ فَقَدْ كَانَ **السَّبْتِيُّ**[2] يَعْمَلُ يَوْمَ السَّبْتِ فَيَكْتَفِي بِهِ طُوْلَ الأُسْبُوْعِ. **فَإِنْ كَانَ لَهُ مَالٌ**؛ باضَعَ[3] بِهِ مَنْ يَكْفِيهِ بِدينهِ وثِقَتِهِ مَنْ أَنْ يَهتَمَّ هُوَ. وَإِنْ كَانَ لَهُ عائلةٌ؛ جَمَعَ هَمَّهُ فِي نِيَّةِ الكَسْبِ عَلَيْهِم، فَيَكُوْنُ مُتَعَبِّدًا. أَوْ أَنْ يُكْوِنَ [له] قُنْيَةً

---

(١) **يمتارون**: يجلبون الميرة وهي الطعام.

(٢) أحمد بن هارون الرشيد، توفي سنة (١٨٤هـ).

(٣) **باضع**: ضارب.

مَالٍ كعِقارٍ؛ ناصَفَهُ فِي نَفَقَتِهِ[1]؛ لَيَكْفِيَهُ دَخْلَهُ، وَلِيُقَلِّلَ الهَمَّ عَلىٰ مِقْدَارِ ما يُمْكِنُهُ مِنْ حَذْفِ العَلَائِقِ جَهْدَهُ؛ لِيَجْمَعَ الهَمَّ فِي ذِكْرِ الآخِرَةِ. فَإِنْ لَمْ يَفْعَلْ؛ أُخِذَ فِي غَفْلَتِهِ، وَنَدِمَ فِي حُفْرَتِهِ.

١٥١٣ ـ وَأَقْبَحُ الأَحْوَالِ حَالُ عَالِمٍ فَقِيْهٍ، كُلَّمَا جَمَعَ هَمَّهُ لِذِكْرِ الآخِرَةِ، شَتَّتَهُ طَلَبُ القُوْتِ لِلْعَائِلَةِ، وَرُبَّمَا احْتَاجَ إِلىٰ التَّعَرُّضِ لِلظَّلَمَةِ، وَأَخْذِ الشُّبُهاتِ، وَبَذْلِ الوَجهِ، فَيَلْزَمُ هٰذَا التَّقْدِيْرُ فِي النَّفَقَةِ، وَإِذَا حَصَلَ لَهُ شَيْءٌ مِنْ وَجْهٍ؛ دَبَّرَ فِيْهِ. ولا يَنْبَغِي أَنْ يَحْمِلَهُ قِصَرُ الأَمَلِ عَلىٰ إِخْرَاجِ مَا فِي يَدِهِ؛ فَقَدْ قَالَ ﷺ: «**لَأَنْ تَتْرُكَ وَرَثَتَكَ أَغْنِيَاءَ خَيْرٌ مِنْ أَنْ تَتْرُكَهُم عَالَةً يَتَكَفَّفُوْنَ النَّاسَ**».

١٥١٤ ـ وَأَذَلُّ مِنْ كُلِّ ذُلِّ التَّعَرُّضُ لِلْبُخَلاءِ وَالأُمَرَاءِ؛ فَلْيُدَبِّرْ أَمْرَهُ، وَيُقَلِّلِ العَلَائِقَ، وَيَحْفَظْ جَاهَهُ؛ فَالأَيَّامُ قَلَائِلُ. وَقَدْ بُعِثَ إِلىٰ أَحْمدَ بْنِ حَنْبَلَ مَالٌ، فَسَأَلَهُ ابنُهُ قَبُوْلَه، فَقَالَ: يا صَالِحُ! صُنِّي! ثُمَّ قَالَ: أَسْتَخِيْرُ اللهَ. فَأَصْبَحَ فَقَالَ: يَا بُنَيَّ! قد عُزِمَ لِي ألّا أقْبَلَهُ. هٰذَا؛ وَكَانَ العَطَاءُ هَنِيًّا، وَجَاءَهُ مِنْ وُجُوْهٍ! فَانْعَكَسَ الأَمْرُ اليَوْمَ.

٣٤٥ - فصل: لا بد من مخالطة بمقدار

١٥١٥ ـ العُزْلَةُ عَنِ الْخَلْقِ سَبَبُ طِيْبِ العَيْشِ، وَلا بُدَّ مِنْ مُخَالَطَةٍ بِمِقْدَارٍ. فَدَارِ العَدُوَّ وَاسْتَمِلَّه؛ فَرُبَّمَا كَادَكَ فَأَهْلَكَكَ! وَأَحْسِنْ إِلَىٰ مَنْ أَسَاءَ إِلَيْكَ! وَاسْتَعِنْ عَلىٰ أُمُوْرِكَ بِالكِتْمَانِ!

١٥١٦ ـ وَلْتَكُنِ النَّاسُ عِنْدَكَ مَعَارِفَ، فَأَمَّا أَصْدِقَاءَ؛ فَلَا؛ لِأَنَّ أَعَزَّ الأَشْيَاءِ وُجُوْدُ صَدِيْقٍ، ذَاكَ أَنَّ الصَّدِيْقَ يَجِبُ أَنْ يَكُوْنَ فِي مَرْتَبَةِ مُمَاثِلٍ؛ فَإِنْ صَادَفْتَه عَامِّيًّا؛ لَمْ تَنْتَفِع بِهِ؛ لِسُوْءِ أَخْلَاقِهِ، وَقِلَّةِ عِلْمِهِ وَأَدَبِهِ، وَإِنْ صَادَفْتَ مُمَاثِلًا أَوْ مُقَارِبًا؛ حَسَدَكَ، وَإِذَا كَانَ لَكَ يَقَظَةٌ؛ تَلَمَّحْتَ مِنْ أَفْعَالِهِ مَا يَدُلُّ عَلىٰ حَسَدِكَ، ﴿وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ ٱلْقَوْلِ﴾ [محمد: ٣٠]، وَإِذَا أَرَدْتَ تَأْكِيْدَ ذٰلِكَ؛ فَضَعْ عَلَيْهِ مَنْ يَضَعُكَ[2] عِنْدَهُ؛ فَلَا يَخْرُجُ إِلَيْهِ إِلَّا بِمَا فِي قَلْبِهِ.

---

(١) أي سكن النصف وأجّر النصف الآخر. (٢) **وضعه**: حطّ من قدره.

١٥١٧ - فَإِنْ أَرَدْتَ العَيْش؛ فَابْعُدْ عَنِ الحَسُوْدِ؛ لِأَنَّهُ يَرَىٰ نِعْمَتَكَ؛ فَرُبَّما أَصَابَهَا بِالعَيْنِ! فَإِنْ اضْطُرِرْتَ إِلىٰ مُخَالَطَتِهِ؛ فَلَا تُفْشِ لَهُ سِرَّك، وَلا تُشَاوِرْه، وَلَا يَغُرَّنَّك تَمَلُّقُهُ لَكَ، وَلَا مَا يُظْهِرُه مِنَ الدِّيْنِ والتَّعَبُّدِ؛ فَإِنَّ الحَسَدَ يَغْلِبُ الدِّيْنَ! وَقَدْ عَرَفْتَ أَنَّ قَابِيْلَ أَخْرَجَهُ الحَسَدُ إِلىٰ القَتْلِ! وَأَنَّ إِخْوَةَ يُوْسُفَ بَاعُوْه بِثَمَنٍ بَخْسٍ! وَكَانَ أَبُوْ عَامِرٍ الرَّاهِبُ[1] مِنَ المُتَعَبِّدِيْنَ العُقَلَاءِ، وَعَبْدُ اللهِ بْنُ أُبَيٍّ[2] مِنَ الرُّؤَسَاءِ؛ أَخْرَجَهُمَا حَسَدُ رَسُوْلِ اللهِ ﷺ إِلىٰ النِّفَاقِ، وتَرْكِ الصَّوَابِ.

١٥١٨ - وَلَا يَنبَغِي أَنْ تَطْلُبَ لِحَاسِدِكَ عُقُوْبَةً أَكْثَرَ مِمَّا هُوَ فِيْهِ؛ فَإِنَّهُ فِي أَمْرٍ عَظِيْمٍ مُتَّصِلٍ، لا يُرْضِيْهِ إِلَّا زَوَالُ نِعْمَتِك، وَكُلَّمَا ٱمْتَدَّتْ؛ ٱمْتَدَّ عَذَابُهُ؛ فَلَا عَيْشَ لَهُ! ومَا طَابَ عَيْشُ أَهْلِ الجَنَّةِ إِلَّا حِيْنَ نُزِعَ الحَسَدُ وَالغِلُّ مِنْ صُدُوْرِهِم، وَلَوْلَا أَنَّهُ نُزِعَ؛ تَحَاسَدُوْا، وتَنَغَّصَ عَيْشُهُم.

٣٤٦ - فصل: من سار مع العقل أمكنه أن يتمتع من الدنيا

١٥١٩ - مَنْ سَارَ مَعَ العَقْلِ، وَخَالَفَ طَرِيْقَ الهَوَىٰ، ونَظَرَ إِلىٰ العَوَاقِبِ؛ أَمْكَنَهُ أَنْ يَتَمَتَّعَ مِنَ الدُّنْيَا أَضْعَافَ ما تَمَتَّعَ مَنِ ٱسْتَعْمَلَ الشَّهَوَاتِ. فأمّا المُسْتَعْجِلُ فَيُفَوِّتُ [على] نفسِهِ حَظَّ الدُّنيا والذِّكْرَ الجَمِيْلَ، وَيَكُوْن ذٰلِكَ سَبَبًا لِفَوَاتِ مُرَاده مِنَ اللَّذَّاتِ، وَبَيَانُ هٰذَا مِنْ وَجْهَيْنِ:

أحدهما: **أَنَّ [مَنْ] مَالَ إِلىٰ شَهَوَاتِ النِّكَاحِ وَأَكْثَرَ مِنْهَا؛ قَلَّ ٱلتِذَاذُهُ، وفَنِيَتْ حَرَارَتُهُ**، وَكَانَ ذٰلِكَ سَبَبًا فِي عَدَمِ مَطْلُوْبِهِ مِنْهَا! وَمَنِ ٱسْتَعْمَلَ ذٰلِكَ بِمِقْدَارِ مَا يُجِيْزُهُ العَقْلُ وَيَحْتَمِلُهُ؛ كَانَ ٱلتِذَاذُهُ أَكْثَرَ، لِبُعدِ مَا بَيْنَ الجِمَاعَيْنِ، وَأَمْكَنَهُ التَّرَدُّدُ لِبَقَاءِ الحَرَارَةِ.

وَكَذٰلِكَ مَنْ غَشَّ فِي مُعَامَلَتِهِ أَوْ خَانَ؛ فَإِنَّهُ لا يُعَامَلُ، فَيَفُوْتُهُ رِبْحُ المُعَامَلَةِ

---

(١) عمرو بن صيفي بن مالك الأوسي، جاهلي من أهل المدينة، كان يذكر البعث والحنيفية، فلما بعث النبي ﷺ عاداه أشد العداوة، هلك سنة (٩هـ).

(٢) ابن سلول، وسلول جدته لأمه. أبو الحباب رأس المنافقين في المدينة، هلك سنة (٩هـ).

الدَّائِمَةِ لِخِيَانَتِهِ مَرَّةً، وَلَوْ عُرِفَ بِالثِّقَةِ؛ دَامَتْ مُعَامَلَةُ النَّاسِ لَهُ، فَزَادَ رِبْحُهُ.

والثاني: **أَنَّه مَنِ اتَّقى اللهَ، وَتَشَاغَلَ بِالعِلْمِ أَوْ تَحْقِيْقِ الزُّهْدِ؛ فُتِحَ لَهُ مِنَ المُبَاحَاتِ مَا يَلْتَذُّ بِهِ كثيرًا**، وَمَنْ تَقَاعَدَ بِهِ الكَسَلُ عَنِ العِلْمِ أَوِ الهَوىٰ عَنْ تَحْقِيْقِ الزُّهْدِ؛ لَمْ يَحْصُلْ لَهُ إِلَّا اليَسِيْرُ مِنْ مُرَادِهِ. قَالَ ﷻ: ﴿وَأَلَّوِ ٱسْتَقَـٰمُوا۟ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَـٰهُم مَّآءً غَدَقًا﴾ [الجن: ١٦].

٣٤٧ - فصل: عيش الصديقين وعيش البهائم

١٥٢٠ - يَنْبَغِي أَنْ يَكُوْنَ العَمَلُ كُلُّهُ للهِ، وَمَعَهُ، وَمِنْ أَجْلِهِ؛ وَقَدْ كَفَاكَ كُلَّ مَخْلُوْقٍ، وَجَلَبَ لَكَ كُلَّ خَيْرٍ. وَإِيَّاكَ أَنْ تَمِيْلَ عَنْهُ بِمُوَافَقَةِ هَوًى، وَإِرْضَاءِ مَخْلُوْقٍ؛ فَإِنَّه يَعْكِسُ عَلَيْكَ الحَالَ، وَيَفُوْتُكَ المَقْصُوْدُ، وَفِي الحَدِيْثِ: «**مَنْ أَرْضَىٰ النَّاسَ بِسَخَطِ اللهِ؛ عَادَ حَامِدُهُ مِنَ النَّاسِ ذَامًّا**»[1].

١٥٢١ - **وَأَطْيَبُ العَيْشِ عَيْشُ مَنْ يَعِيْشُ مَعَ الخَالِقِ سُبْحَانَه. فَإِنْ قِيْلَ: كَيْفَ يَعِيْشُ مَعَهُ؟ قُلْتُ: بِٱمْتِثَالِ أَمْرِهِ، وَٱجْتِنَابِ نَهْيِهِ، وَمُرَاعَاةِ حُدُوْدِهِ، وَالرِّضَا بِقَضَائِهِ، وَحُسْنِ الأَدَبِ فِي الخَلْوةِ، وَكَثْرَةِ ذِكرِهِ، وَسَلَامَةِ القَلْبِ مِنَ الاعْتِرَاضِ فِي أَقْدَارِهِ؛ فَإِنِ ٱحْتَجْتَ؛ سَأَلْتَهُ؛ فَإِنْ أَعْطَىٰ، وَإِلَّا؛ رَضِيْتَ بِالمَنْعِ، وَعَلِمْتَ أَنَّهُ لَمْ يَمْنَعْ بُخْلًا، وَإِنَّمَا نَظَرًا لَكَ، وَلَا تَنْقَطِعْ عَنِ السُّؤَالِ؛ لِأَنَّكَ تَتَعَبَّدُ بِهِ، وَمَتَىٰ دُمْتَ عَلىٰ ذٰلِكَ؛ رَزَقَكَ مَحَبَّتَهُ، وَصِدْقَ التَّوَكُلِ عَلَيْهِ، فَصَارَتِ المَحَبَّةُ تَدُلُّكَ عَلىٰ المَقْصُوْدِ، وَأَثْمَرَتْ لَكَ مَحَبَّتَهُ إِيَّاكَ؛ فَحِيْنَئِذٍ تَعِيْشُ عَيْشَ الصِّدِّيْقِيْنَ.**

وَلا خَيْرَ فِي عَيْشٍ إِنْ لَمْ يَكُنْ كذا فَإِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ مُخَبِّطٌ فِي عَيْشِهِ، يُدَارِي الأَسْبَابَ، وَيَمِيْلُ إِلَيْهَا بِقَلْبِهِ، وَيَتْعَبُ فِي تَحْصِيْلِ الرِّزْقِ بِحِرْصٍ زَائِدٍ عَلىٰ الحَدِّ، وبرَغبةٍ إِلىٰ الخَلْقِ، وَيَعْتَرِضُ عِنْدَ انْكِسَارِ الأَغْرَاضِ؛ وَالقَدَرُ يَجْرِي، وَلَا يُبَالِي بِسَخَطٍ، وَلا يَحْصُلُ لَهُ إِلَّا مَا قُدِّرَ، وَقَدْ فَاتَهُ القُرْبُ مِنَ الحَقِّ، وَالمَحَبَّةُ لهُ، وَالتَّأَدُّبُ مَعَهُ. فذٰلِكَ العَيْشُ **عَيْشُ البَهَائِمِ**.

---

(١) رواه البزار (كشف الأستار: ٣٥٦٨)، والبيهقي في الزهد (٨٨٧) عن عائشة ﵂.

٣٤٨ - فصل: مقصود الموضوعات وحكمها والمراد منها

١٥٢٢ ـ نَظَرْتُ فِي حِكْمَةِ المَطْعَمِ وَالمَشْرَبِ وَالمَلْبَسِ وَالمَنْكَحِ، فَرَأَيْتُ أَنَّ الآدَمِيَّ لَمَّا خُلِقَ مِنْ أُصُوْلٍ تَتَحَلَّلُ، وَهِيَ المَاءُ وَالتُّرَابُ وَالنَّارُ والهَواءُ، وَبَقَاؤُهُ إِنَّمَا يَكُوْنُ بِالحَرَارَةِ وَالرُّطُوْبَةِ، [والحَرَارَةُ تُحَلِّلُ الرُّطُوْبَةَ] دَائِمًا؛ فَلَمْ يَكُنْ لَهُ بُدٌّ مِنْ شَيْءٍ يَخْلُفُ مَا بَطَلَ[1]. وَلمّا كَانَ اللَّحْمُ لا يَنُوْبُ عَنْهُ إِلَّا اللَّحْمُ؛ أَبَاحَ الشَّرْعُ ذَبْحَ الحَيَوَانِ، لِيَتَقَوَّى بِهِ مَنْ هُوَ أَشْرَفُ مِنْهُ.

وَلَمَّا كَانَ بَدَنُهُ يَحْتَاجُ إِلىٰ **كُسْوَةٍ**، وَلَهُ قُدْرَةُ تَمْيِيْزٍ، وَقُدْرَةٌ يَصْنَعُ بِهَا مَا يَقِيْهِ الأَذَىٰ مِنَ القُطْنِ والصُّوْفِ؛ لَمْ يَجْعَلْ عَلىٰ جِلْدِهِ مَا يَقِيْهِ خِلْقةً؛ بِخِلَافِ الحَيَوَانِ البَهِيْمِ؛ فَإِنَّهُ لَمَّا لَمْ يَكُنْ لَهُ قُدْرَةٌ عَلىٰ مَا يُغَطِّي جِلْدَهُ؛ عَوَّضَهُ بِالرِّيْشِ وَالشَّعْرِ وَالوَبَرِ.

وَلَمَّا لَمْ يَكُنْ بُدٌّ مِنْ فَنَاءِ الآدَمِيِّ وَالحَيَوَانِ؛ هَيَّجَ **شَهْوَةَ الجِمَاعِ؛ لِتُخْلِفَ النَّسْلَ**. فَمُقْتَضَىٰ العَقْلِ الَّذِي حُرِّكَ عَلىٰ طَلَبِ هٰذِهِ المَصَالِحِ أَنْ يَكُوْنَ التَّنَاوُلُ لِلْمَطْعَمِ وَالمَشْرَبِ مِقْدَارَ الحَاجَةِ والمَصْلَحَةِ؛ لِيَقَعَ الاِلْتِذَاذُ بِالعَافِيَةِ.

وَمِنَ البَلِيَّةِ طَلَبُ الاِلْتِذَاذِ بِالمَطْعَمِ، وَإِنْ كَانَ غَيْرَ صَالِحٍ، وَالإِكْثَارُ مِنْهُ، وَالشَّرَهُ فِي تَنَاوُلِهِ، وَكَذٰلِكَ الكُسْوَةُ والنِّكَاحُ!

١٥٢٣ ـ وَمِنَ الحَزْمِ جَمْعُ المَالِ، وَادِّخَارُهُ لِعَارِضِ حَاجَةٍ مِنْ ذٰلِكَ، وَمِنَ التَّغْفِيْلِ إِنْفَاقُ الحَاصِلِ؛ فَرُبَّمَا عَرَضَتْ حَاجَةٌ، فَلَمْ يُقْدَرْ عَلَيْهَا، فَأَثَّرَ عَدَمُهَا فِي البَدَنِ، أَوْ فِي العِرْضِ بِطَلَبِهَا مِنَ الأَنْذَالِ!

١٥٢٤ ـ وَمِنْ أَقْبَحِ الأُمُوْرِ الانْهِمَاكُ فِي النِّكَاحِ طَلَبًا لِصُوْرَةِ اللَّذَّةِ؛ نَاسِيًا مَا يَجْنِي ذٰلِكَ مِنِ انْحِلَالِ القُوَّةِ، وَيَزِيْدُ فِي الحَرَامِ بِالعُقُوْبَةِ.

١٥٢٥ ـ فَمَنْ مَالَ إِلىٰ تَدْبِيْرِ العَقْلِ سَلِمَ فِي دُنْيَاهُ وَآخِرَتِهِ، وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ مُشَاوَرَتِهِ أَوْ عَنِ القَبُوْلِ مِنْهُ؛ تَعَجَّلَ عَطَبَهُ. فَلْيُفْهَمْ مَقْصُوْدُ المَوْضُوْعَاتِ وَحِكَمُهَا وَالمُرَادُ مِنْهَا! فَمَنْ لَمْ يَفْهَمْ، وَلَمْ يَعْمَلْ بِمُقْتَضَىٰ مَا فَهِمَ؛ كَانَ كَأَجْهَلِ العَوَامِّ، وَإِنْ كَانَ عَالِمًا.

---

(١) هذه نظرية يونانية قديمة.

٣٤٩ - فصل: في مخالطة الأمراء

١٥٢٦ - الْعَجَبُ مِمَّنْ لَهُ مُسْكَةٌ مِنْ عقْلٍ، أَوْ عِنْدَهُ قَلِيْلٌ مِنْ دِيْنٍ؛ كَيْفَ يُؤْثِرُ مُخَالَطَتَهُم؟! فَإِنَّه بِالمُخَالَطَةِ لَهُمْ، أَوِ العَمَلِ مَعَهُم، يَكُوْنُ قَطْعًا خَائِفًا مِنْ عَزْلٍ، أَوْ قَتْلٍ، أَوْ سُمٍّ، وَلا يُمْكِنُه أَنْ يَعْمَلَ إِلَّا بِمُقْتَضىٰ أَوَامِرِهِم؛ فَإِنْ أَمَرُوْا بِمَا لا يَجُوْزُ؛ لَمْ يَقْدِرْ أَنْ يُرَاجِعَ؛ فَقَدْ بَاعَ دِيْنَه قَطْعًا بِدُنْيَاهُ، فَمَنَعَهُ الخَوْفُ [مِنَ القِيَامِ بِأَمْرِ اللهِ، وَضَاعَتْ عَلَيْهِ آخِرَتُهُ]، وَلَمْ يَبْقَ بِيَدِهِ إِلَّا عَاجِلُ التَّعْظِيْمِ، وَأَنْ يُقَالَ بَيْنَ يَدَيْهِ: بِسْمِ اللهِ! وَأَنْ يُنَفِّذَ أَوَامِرَهُ! وَذٰلِكَ بَعِيْدٌ مِنَ السَّلَامَةِ فِي بَابِ الدِّيْنِ، وَمَا يَلْتَذُّ بِهِ مِنْهُ فِي الدُّنْيَا مَمْزُوْجٌ بِخَوْفِ العَزْلِ أَوِ القَتْلِ.

٣٥٠ - فصل: العاقل من عمل بمقتضى الحزم

١٥٢٧ - مِنَ الغَلَطِ العَظِيْمِ أَنْ يُتَكَلَّمَ فِي حَقِّ مَعْزُوْلٍ بِمَا لا يَصْلُحُ؛ فَإِنَّهُ لا يُؤْمَنُ أَنْ يَلِيَ فَيَنْتَقِمَ. **وَفِي الجُمْلَةِ**؛ لا يَنْبَغِي أَنْ يُظْهِرَ العَدَاوَةَ لِأَحَدٍ أَصْلًا؛ فَقَدْ يَرْتَفِعُ المُحتَقَرُ، وَقَدْ يَتَمَكَّنُ مَنْ لا يُعَدُّ[1]. بَلْ يَنْبَغِي أَنْ يُكْتَمَ مَا فِي النُّفُوْسِ مِنْ ضَغَنٍ عَلى الأَعْدَاءِ؛ فَإِنْ أَمْكَنَ الانْتِقَامُ مِنْهُم؛ كَانَ العَفْوُ انْتِقَامًا؛ لِأَنَّهُ يُذِلُّهُم.

١٥٢٨ - وَيَنْبَغِي أَنْ يُحْسِنَ إِلَىٰ كُلِّ أَحَدٍ، خُصُوْصًا مَنْ يَجُوْزُ أَنْ يَكُوْنَ لَهُ وِلَايةٌ، وَأَنْ يُخْدَمَ المَعْزُوْلُ؛ فَرُبَّمَا نَفَعَ فِي وِلَايتِهِ.

١٥٢٩ - وَقَدْ رُوِّيْنَا أَنَّ رَجُلًا ٱسْتَأْذَنَ عَلىٰ قَاضِي القُضاةِ **ابْنِ أَبِي دُوَادٍ وَقَالَ**: قُوْلُوْا لَهُ: أَبُوْ جَعْفرٍ بِالبَابِ! فَلَمَّا سَمِعَ؛ هَشَّ[2] لِذٰلِكَ، **وَقَالَ**: ائْذَنُوْا لَهُ! فَدَخَلَ، فَقَامَ، وَتَلَقَّاهُ، وَأَكْرَمَه، وَأَعْطَاهُ خَمْسَةَ آلافٍ، وَوَدَّعَهُ. **فَقِيْلَ لَهُ**: رَجُلٌ مِنَ العَوَامِّ فَعَلْتَ بِهِ هٰذَا؟! قَالَ: إِنِّي كُنْتُ فَقِيْرًا، وَكَانَ هٰذَا صَدِيْقًا، فَجِئْتُهُ يَوْمًا، **فَقُلْتُ لَهُ**: أَنَا جَائِعٌ. **فَقَالَ**: اجْلِسْ! وَخَرَجَ، فَجَاء بِشِوَاءٍ وَحَلْوَىٰ وَخُبْزٍ، **فَقَالَ**: كُلْ. **فَقُلْتُ**: كُلْ مَعِي. **قَالَ**: لا. **قُلْتُ**: وَاللهِ؛ لا آكُلُ حَتَّى تَأْكُلَ مَعِي. فَأَكَل، فَجَعَلَ الدَّمُ يَجْرِي مِنْ

---

(١) **من لا يعد**: من لا يحسب له حساب.

(٢) في الأصل: دهش، وهو تصحيف

فمِهِ. **فَقُلْتُ**: مَا هٰذَا؟ **فَقَالَ**: مَرَضٌ. **فَقُلْتُ**: واللهِ؛ لا بُدَّ أَنْ تُخْبِرَنِي. **فَقَالَ**: إِنَّكَ لَمَّا جِئْتَنِي؛ لَمْ أَكُنْ أَمْلِكُ شَيْئًا، وَكَانَتْ أَسْنَانِي مُضَبَّبَةٌ بِشَرِيْطٍ مِنْ ذَهَبٍ، فَنَزَعْتُهُ، وَاشْتَرَيْتُ بِهِ! فَهَلَّا أُكَافِئُ مِثْلَ هٰذَا؟!

١٥٣٠ ـ وَعَلىٰ عَكْسِ هٰذِهِ الأَشْيَاءِ كَانَ ابْنُ الزَّيَّاتِ[١] وَزِيْرَ الوَاثِقِ[٢]، وَكَانَ يَضَعُ مِنَ المُتَوَكِّلِ، فَلَمَّا وَلِيَ؛ عَذَّبَه بِأَنْوَاعِ العَذَابِ.

١٥٣١ ـ وَكذٰلِكَ ابْنُ الجَزَرِيِّ؛ كَانَ لا يُوَقِّرُ المُسْتَرْشِدَ قَبْلَ الوِلَايَةِ، فجَرَتْ عَلَيْهِ الآفَاتُ لَمَّا وَلِيَ.

١٥٣٢ ـ فَالعَاقِلُ مَنْ تَأَمَّلَ العَوَاقِبَ وَرَعَاهَا، وَصَوَّرَ كُلَّ مَا يَجُوْزُ أَنْ يَقَعَ، فَعَمِلَ بِمُقْتَضَى الحَزْمِ.

١٥٣٣ ـ وَأَبْلَغُ مِنْ هٰذَا تَصْوِيْرُ وُجُوْدِ المَوْتِ عَاجِلًا؛ لِأَنَّهُ يَجُوْزُ أَنْ يَأْتِيَ بَغْتَةً مِنْ غَيْرِ مَرَضٍ؛ فَالحَازِمُ مَنِ اسْتَعَدَّ لَهُ، وَعَمِلَ عَمَلَ مَنْ لا يَنْدَمُ إِذَا جَاءَهُ، وَحَذِرَ مِنَ الذُّنُوْبِ؛ فَإِنَّهَا كَعَدُوٍّ مُرَاصِدٍ بِالجَزَاءِ، وادَّخَرَ لِنَفْسِهِ صَالِحَ الأَعْمَالِ؛ فَإِنَّهَا كَصَدِيْقٍ صِدِّيقٍ، يَنْفَعُ وَقْتَ الشِّدَّةِ.

١٥٣٤ ـ وَأبلغُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ أَنْ يَعْلَمَ المُؤْمِنُ أَنَّهُ كُلَّمَا زَادَ عَمَلُهُ فِي الفَضَائِلِ؛ عَلَتْ مَرْتَبَتُهُ فِي الجَنَّةِ، وَإِنْ نَقَصَ نَقَصَتْ؛ فَهُوَ، وَإِنْ دَخَلَ الجَنَّةَ فِي نَقْصٍ بِالإِضَافَةِ إِلىٰ كَمَالِ غَيْرِهِ؛ غَيْرَ أَنَّهُ قَدْ رَضِيَ بِهِ، وَلا يَشْعُرُ بِذٰلِكَ. **فَرَحِمَ اللهُ مَنْ تَلَمَّحَ العَوَاقِبَ، وَعَمِلَ بِمُقْتَضَىٰ التَّلَمُّحِ**، وَاللهُ تَعَالىٰ الْمُوَفِّقُ.

٣٥١ - فصل: هلك الهالكون لقلة الصبر عن المشتهى

١٥٣٥ ـ لَمّا جَمَعْتُ كِتَابِي المُسَمَّى بـ«**المُنْتَظَم فِي تَارِيْخِ المُلُوْكِ والأُمَم**»[٣]؛

---

(١) محمد بن عبد الملك، أبو جعفر (١٧٣ ـ ٢٣٣هـ): هو وزير المعتصم والواثق العباسيين.

(٢) هارون بن المعتصم، الخليفة العباسي (١٩٦ ـ ٢٣٢هـ) كان عالمًا لكنّه تابع أباه وعمه في حمل الناس على القول بخلق القرآن.

(٣) طبع من (٥ ـ ١٠) بحيدرآباد، ثم طبع كاملًا في دار الكتب العلمية.

اطَّلَعْتُ عَلى سِيَرِ الخَلْقِ مِنَ المُلُوْكِ وَالوُزَرَاءِ وَالعُلَمَاءِ وَالأُدَبَاءِ وَالفُقَهَاءِ والمُحَدِّثِيْنَ والزُّهَّادِ وَغَيْرِهم، فَرَأَيْتُ الدُّنيا قَدْ تَلَاعَبَتْ بِالأَكْثَرِيْنَ تَلَاعُبًا أَذْهَبَ أَدْيَانَهُم، حَتَّى كَانُوْا لا يُؤْمِنُوْنَ بِالعِقَابِ.

١٥٣٦ ـ فَمِنَ الأُمَرَاءِ مَنْ يَقْتُلُ، ويُصادِرُ، ويَقْطَعُ، ويَحْبِسُ بِغَيْرِ حَقٍّ، ثُمَّ يَنْخَرِطُ فِي سِلْكِ المَعَاصِي، كَأَنَّ الأَمْرَ إِلَيْهِ، أَوْ قَدْ جَاءَهُ الأَمْنُ مِنَ العِقَابِ، فَرُبَّمَا تَخَايَلَ أَنَّ حِفْظِي الرَّعَايَا يَرُدُّ عَنِّي، وَيَنْسَى أَنَّه قَدْ قِيْلَ لِرَسُوْلِ الله ﷺ: ﴿قُلْ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ [الأنعام: ١٥]!!

١٥٣٧ ـ وَقَدِ انْخَرَطَ جَمَاعَةٌ مِمَّنْ يتَّسِمُ **بِالعِلْمِ** فِي سِلْكِ المَعَاصِي لَتَحْصِيْلِ أَغْرَاضِهِم العَاجِلَةِ؛ فَمَا نَفَعَهُمُ العِلْمُ!

وَرَأَيْنَا خَلْقًا مِنَ المُتَزَهِّدِيْنَ [خَالَفُوا] لِنَيْلِ أَغْرَاضِهِم! وَهٰذَا لِأَنَّ الدُّنْيَا فَخٌّ، والنَّاسُ كَعَصَافِيْرَ، وَالعُصْفُوْرُ يُرِيْدُ الحَبَّةَ، وَيَنْسَىٰ الخَنْقَ. قَدْ نَسِي أَكْثَرُ الخَلْقِ مَآلَهُم، مَيْلًا إِلىٰ عَاجِلِ لَذَّاتِهِم، فَأَقْبَلُوْا يُسَامِرُوْنَ الهَوَىٰ، وَلا يَلْتَفِتُوْنَ إِلىٰ مُشَاوَرَةِ العَقْلِ. فَلَقَدْ بَاعُوْا بِلَذَّةٍ يَسِيْرةٍ خَيْرًا كَثِيْرًا، وَاسْتَحَقُّوا[1] بِشَهَوَاتٍ مَرْذُوْلَةٍ عَذَابًا عَظِيْمًا. فَإِذَا نَزَلَ بِأَحَدِهِمُ المَوْتُ؛ قَالَ: لَيْتَنِي لَمْ أَكُنْ! ﴿يَٰلَيْتَنِي كُنتُ تُرَٰبًا﴾ [النبأ: ٤٠]! فَيُقَالُ لَهُ: ﴿ءَآلْـَٰٔنَ﴾ [يونس: ٩١]؟!

١٥٣٨ ـ فَوَا أسفا؛ لِفَائِتٍ لا يُمْكِنُ اسْتِدْراكُهِ، وَلِمُرْتَهنٍ لا يَصِحُّ فَكَاكُهُ، وَلِنَدَمٍ لا يَنْقَطِعُ زَمَانُهُ، وَلِمُعَذَّبٍ عَزَّ عَلَيْهِ إِيْمَانُهُ.

١٥٣٩ ـ بِاللهِ؛ مَا نَفَعَتِ العُقُوْلُ إِلَّا لِمَنْ يَلْتَفِتُ إِلَيْهَا، وَيُعَوِّلُ عَلَيْهَا، وَلَا يُمْكِنُ قَبُوْلَ مُشَاوِرِهَا إِلَّا بِعَزِيْمَةِ الصَّبْرِ عَمّا يَشْتَهِي.

١٥٤٠ ـ فَتَأَمَّلْ فِي **الأُمَرَاءِ** عَمَرَ بْنَ الخَطَّابِ، وَابْنَ عَبْدِ العَزِيْزِ رضي الله عنهما، وَفِي **العُلَمَاءِ** أَحْمَدَ بْنَ حَنْبل رَحْمَةُ الله عَلَيْهِ، وَفِي **الزُّهَّادِ** أُوَيْسًا القَرَنِي[2]؛ لَقَدْ أَعْطَوُا الجِدَّ حَقَّه، وَفَهِمُوا مَقْصُوْدَ الوُجُوْدِ.

---

(١) في الأصل: استبدلوا.

(٢) أويس بن عامر بن القرني المرادي اليماني، أبو عمر، القدوة العابد، سيد التابعين بشهادة سيد المرسلين ﷺ، وجد مقتولًا في صفين مع أصحاب علي رضي الله عنه سنة (٣٧هـ).

١٥٤١ ـ وَمَا هَلَكَ الهَالِكُوْنَ إِلَّا لِقِلَّةِ الصَّبْرِ عَنِ المُشْتَهَىٰ، وَرُبَّما كَانَ فِيْهِم مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِالبَعْثِ والعِقَابِ. وَلَيْسَ العَجَبُ مِنْ ذاكَ، إِنَّمَا العَجَبُ مِنْ مُؤْمِنٍ يُوقِنُ، وَلا يَنْفَعُهُ يَقِيْنُه! وَيَعْقِلُ العَوَاقِبَ، وَلا يَنْفَعُهُ عَقْلُهُ!

٣٥٢ - فصل: من رزق همة عالية يعذَّب بمقدار علوها

١٥٤٢ ـ مَنْ رُزِقَ هِمَّةً عاليةً؛ يُعَذَّبُ بِمِقْدَارِ عُلُوِّها! كَمَا قَالَ الشَّاعِرُ[١]:

وَإِذَا كَانَتِ النُّفُوْسُ كِبَارًا ... تَعِبَتْ فِي مُرَادِهَا الأَجْسَامُ

وَقَالَ الآخَرُ[٢]:

وَلِكُلِّ جِسْمٍ فِي النُّحُوْلِ بَلِيَّةٌ ... وَبَلَاءُ جِسْمِي مِنْ تَفَاوُتِ هِمَّتِي

وَبَيَانُ هٰذَا أَنَّ مَنْ عَلَتْ هِمَّتُهُ؛ طَلَبَ العُلُوْمَ كُلَّها، وَلَمْ يَقْتَصِرْ عَلىٰ بَعْضِهَا، وَطَلَبَ مِنْ كُلِّ عِلْمٍ نِهَايَتَهُ، وَهٰذَا لا يَحْتَمِلُهُ البَدَنُ.

١٥٤٣ ـ ثُمَّ يَرَى أَنَّ المُرَادَ العَمَلُ، فَيَجْتَهِدُ فِي قِيَامِ اللَّيْلِ، وَصِيَامِ النَّهَارِ، والجَمْعُ بَيْنَ ذٰلِكَ وَبَيْنَ العِلْمِ صَعْبٌ، ثُمَّ يَرَىٰ تَرْكَ الدُّنيا، وَيَحْتَاجُ إِلىٰ مَا لَا بُدَّ مِنْهُ، وَيُحِبُّ الإِيْثَارَ، وَلَا يَقْدِرُ عَلىٰ البُخْلِ، وَيَتَقَاضَاهُ الكَرَمُ البَذْلَ، وَيَمْنَعُهُ عِزُّ النَّفْسِ عَنِ الكَسْبِ؛ فَإِنْ هُوَ جَرَىٰ عَلىٰ طَبعِهِ مِنَ الكَرَمِ؛ احْتَاجَ وَافْتَقَرَ، وَتَأَثَّرَ بَدَنُه وَعَائِلَتُهُ، وَإِنْ أَمسَكَ؛ فَطَبْعُهُ يَأْبَىٰ ذٰلِكَ.

وَفِي **الجُمْلَةِ**؛ يَحْتَاجُ إِلىٰ مُعَانَاةٍ؛ وَجَمْعٍ بَيْنَ أَضْدَادٍ؛ فَهُوَ أَبَدًا فِي نَصَبٍ لا يَنْقَضِي، وَتَعَبٍ لا يَفْرَغُ. ثُمَّ إِذَا حَقَّقَ **الإِخْلَاصَ** فِي الأَعْمَالِ؛ زَادَ تَعَبُهُ، وقَوِيَ وَصَبُه[٣].

١٥٤٤ ـ فَأَيْنَ هُوَ؛ وَمَنْ دَنَتْ هِمَّتُهُ؟! إِنْ كَانَ فَقِيْهًا، فَسُئِلَ عَنْ حَدِيْثٍ؛ قَالَ: مَا أَعْرِفُه! وَإِنْ كَانَ مُحَدِّثًا، فَسُئِلَ عَنْ مَسْأَلَةٍ فِقْهِيَّةٍ؛ قَالَ: مَا أَدْرِي! وَلا يُبَالِي إِنْ قِيْلَ عَنْه: مُقَصِّرٌ!!

---

(١) هو المتنبي، ديوانه ص(٢٤٩).

(٢) نسبه المؤلف للرضي في الفصل (١٧٠) ولم أجد البيت في ديوانه.

(٣) **الوصب**: المرض والتعب.

١٥٤٥ ـ والعَالِي الهِمَّةِ يَرَىٰ التَّقْصِيرَ فِي بَعْضِ العُلُوْمِ فَضِيْحَةً قَدْ كَشَفَتْ عَيْبَهُ، وَقَدْ أَرَتِ النَّاسَ عَوْرَتَهُ. وَالقَصِيْرُ الهِمَّةِ لا يُبَالِي بِمِنَنِ النَّاسِ، وَلا يَسْتقْبِحُ سُؤَالَهُم، وَلَا يَأْنَفُ مِنْ ردٍّ!!

والعَالِي الهِمَّةِ لا يَحْمِلُ ذٰلِكَ.

وَلٰكِنَّ تَعَبَ العَالِي الهِمَّةِ رَاحَةٌ فِي المَعْنَىٰ، وَرَاحَةُ القَصِيْرِ الهِمَّةِ تَعَبٌ وشَيْنٌ؛ إِنْ كَانَ ثَمَّ فَهْمٌ.

١٥٤٦ ـ وَالدُّنْيَا دَارُ سِبَاقٍ إِلىٰ أَعَالِي المَعَالِي؛ فَيَنْبَغِي لِذِي الهِمَّةِ أَلّا يُقَصِّرَ فِي شَوْطِهِ؛ فَإِنْ سَبَقَ؛ فَهُوَ المَقْصُوْدُ، وَإِنْ كَبَا جَوَادُهُ مَعَ اجْتِهَادِهِ؛ لَمْ يُلَمْ.

٣٥٣ - فصل: المصيبة العظمى رضا الإنسان عن نفسه

١٥٤٧ ـ المُصِيْبَةُ العُظْمَىٰ رِضَا الإِنْسَانِ عَنْ نَفْسِهِ، وَاقْتِنَاعُهُ بِعِلْمِهِ! وَهٰذِهِ مِحْنَةٌ قَدْ عَمَّتْ أَكْثَرَ الخَلْقِ: فَتَرَىٰ **اليَهُوْدِيَّ أَوِ النَّصْرَانِيَّ** يَرَىٰ أَنَّهُ عَلىٰ الصَّوَابِ، وَلا يَبْحَثُ ولا يَنْظُرُ فِي دَلِيْلِ نُبُوَّةِ **نَبِيِّنَا** ﷺ، وَإِذَا سَمِعَ مَا يُلَيِّنُ قَلْبَهُ، مِثْلَ القُرْآنِ المُعْجِزِ؛ هَرَبَ، لِئَلَّا يَسْمَعَ! وَكذٰلِكَ كُلُّ ذِي هَوًى يَثْبُتُ عَلَيْهِ: إِمَّا لِأَنَّهُ مَذْهَبُ أَبِيْهِ وَأَهْلِهِ، أَوْ لِأَنَّهُ نَظَرَ نَظَرًا أَوَّلَ فَرَآهُ صَوَابًا، وَلَمْ يَنْظُرْ فِيْمَا يُنَاقِضُهُ، وَلَمْ يُبَاحِثِ العُلَمَاءَ لِيُبَيِّنُوا لَهُ خَطأَهُ!

١٥٤٨ ـ وَمِنْ هٰذَا حَالُ **الخَوَارِجِ** عَلىٰ أَمِيْرِ المُؤْمِنِيْنَ عَلِيٍّ رضي الله عنه؛ فَإِنَّهُم اسْتَحْسَنُوْا مَا وَقَعَ لَهُم، وَلَمْ يَرْجِعُوْا إِلىٰ مَنْ يَعْلَمُ، وَلَمَّا لَقِيَهُم عَبْدُ اللهِ بْنُ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما، فَبَيَّنَ لَهُمْ خَطَأَهُمْ؛ رَجَعَ عَنْ مَذْهَبِهِ مِنْهُم أَلْفانِ. وَمِمَّنْ لَمْ يَرْجِعْ عَنْ هَوَاهُ **ابنُ مُلْجِمٍ**، فَرَأَىٰ مَذْهَبَهُ هُوَ الحَقَّ، فَاسْتَحَلَّ قَتْلَ أَمِيْرِ المُؤْمِنِيْنَ رضي الله عنه، وَرَآهُ دِيْنًا، حَتَّى إِنَّهُ لَمَّا قُطِّعَتْ أَعْضَاؤُهُ؛ لَمْ يُمَانِعْ، فَلَمَّا طُلِبَ لِسَانُهُ لِيُقْطَعَ؛ انْزَعَجَ، وَقَالَ: كَيْفَ أَبْقَىٰ سَاعَةً فِي الدُّنْيَا لَا أَذْكُرُ اللهَ؟! وَمِثْلُ هٰذَا مَا لَهُ دَوَاءٌ.

١٥٤٩ ـ وَكذٰلِكَ كَانَ **الحَجَّاجُ**[1] يَقُوْلُ: وَاللهِ؛ مَا أَرْجُوْ الخَيْرَ إِلَّا بَعْدَ المَوْتِ!

---

(١) الحجاج بن يوسف الثقفي: قائد سفاك للدماء، ووال ظالم جبار، وداهية خطيب، وفاتح عظيم (٤٠ ـ ٩٥هـ) يعد من مساوئ بني أمية.